الإسلام دين الله
وفطرته التي فطر الناس عليها

تأليف

الإمام المجدد السيد مُحَّمد ماضي أبو العزائم

بسم الله الرحمن الرحيم
فاتحة الكتاب

الحمد لله، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، كما شهد لنفسه، وشهدت له ملائكته، وأولو العلم من خلقه، ولا إله إلا هو العزيز الحكيم، والصلاة والسلام على سيدنا مُحَّد عبده المنتخب ورسوله المرتضى، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وعلى آله الأئمة الراشدين، المطيعين لله، القوامين بأمره، العاملين بإرادته، الفائزين بكرامته، وعلى صحابته الهادين المهتدين، وسلام الله تبارك وتعالى على الإمام المجدد السيد مُحَّد ماضي أبي العزائم، ونضر الله وجه خليفته الأول السيد أحمد ماضي أبي العزائم.

أما بعد:

فتقدم (دار الكتاب الصوفي) التابعة لمشيخة الطريقة العزمية الطبعة الثالثة من كتاب: "الإسلام دين الله وفطرته التي فطر الناس عليها " في هذه الظروف العصيبة، والأزمات العنيفة التي تحل بعالمنا الإسلامي، وتأخذ بتلابيبنا وتهدد كياننا، كورثة دعوة وحملة رسالة خالدة خاتمة، وبناة حضارة في المشرق والمغرب لا يمكن تجاهلها والغض من شأنها، بل لابد من الاستجابة لها والسير على ضوئها إذا شاء الله لهذه الإنسانية التعسة الحائرة التي تتخبط في دياجير الفتنة، وتتجاذبها أمواج الإلحاد والإباحية، وتنوء عليها لتلفظ آخر أنفاسها ثمرة للحضارة المادية التي عمت العالم كله حين وقف تيار المد الإسلامي، وانحسرت عنه ظلال رحمته الوارفة، وتعاليمه السمحة، وأخوته الحانية، ودولته الرحيمة العادلة.

إن المسلمين هم المسئولون وحدهم ـ دون غيرهم ـ في بناء هذا المجتمع الذي أغوته الرأسمالية، وأنهكته الشيوعية، ودمدمت عليه الأفكار الضالة، وهدمته العقول غير المعصومة.

وليس أمامنا لدرء هذا الفساد إلا بالعقيدة التي ترتكز على أن الإسلام دين الله وفطرته التي فطر الناس عليها، فهو الدين الواقي الكافي لكل محاولات الرأسمالية والشيوعية والصهيونية وغيرها من المبادئ والأفكار التي تريد هدم الكيان الإسلامي وبث روح التحلل بين المسلمين.

ونظرة إلى الهزات العنيفة التي يتعرض لها الإسلام كدين في هذه الأيام من جراء طغيان المادة من جهة، ومن طفرة العلوم الكونية المادية من جهة أخرى.

لكل ذلك رأت مشيخة الطريقة العزمية أن الحاجة ماسة إلى إعادة طبع هذا السفر الجليل "الإسلام دين الله وفطرته التي فطر الناس عليها ".

وهذا الكتاب يحوي في الباب الأول منه تعريفا بالدين، وحكمة اختصاص الإنسان بتحمل الأمانة، وأن الدين عند الله الإسلام، وحكمة إنزال الكتب السابقة. وفى الباب الثاني يتضمن أصول الدين الإسلامى، ويدور هذا الباب حول أبحاث أربعة :المبحث الأول في العقيدة التي يجب أن يعقد المسلم قلبه عليها والمبحث الثاني في صفات الله تعالى، وهي :الوجود والقدم والبقاء ومخالفته للحوادث وقيامه تعالى بنفسه والوحدانية، وكذلك معاني الصفات السبع وهي :القدرة والحياة والعلم والإرادة والسمع والبصر والكلام.والمبحث الثالث في علوم القرآن.والمبحث الرابع في النبوات. كما تناول الإمام في الباب الثالث العبادات، وينقسم هذا الباب إلى فصلين : الفصل الأول في التعريف بالعبادة وأقسامها من علم وعمل، وواجب ومندوب، وعن الغرض من العبادة، أما الفصل الثاني فيتناول بيان العبادات من صلاة وزكاة وصوم وحج.

وفى الباب الرابع يحدثنا الإمام عن المعاملات، ويقصر هذا الباب على معاملة النساء،ومن آداب عشرتهن، ويبين أن الزواج فرض مع الحاجة، وسنة على الكفاية، كما يبين لنا أن النساء على أوصاف النفس، ويرشدنا إلى العدل بين الأزواج، وأساس المعاملة والسلوك بين الزوجين، وحكم الطلاق.

وباستقراء هذه الأبواب والفصول والمباحث نجد أن الإمام يقرر أن الإسلام ليس دينا جديدا بل إنه الدين عند الله، وأنه فطرته التي فطر الناس عليها، فرضا ومجموعا في كل مكان وفى أي زمان، لأنه يتضمن اعترافا من العقل والوجدان بأن للكون خالقا ومدبرا حكيما، وبهذا الاعتراف يكون كل ذي عقل من البشر راضيا بطاعته.

إن هذا الكتاب يكرم المرأة، ويرشد الناس جادا إلى النهج الأقوم لحل قضايا المرأة الاجتماعية بصورة واقعية وعملية.

وهو يوضح ويقرر ويؤكد أن دين الإسلام يغنينا عن كل دستور للحياة من وضع البشر، وأنه العروة الوثقى التي يجب أن تمسك بها في وسط هذا العالم الذي اشتدت فيه عواصف الفوضى العقائدية، وفسدت فيه القيم الروحية ،وأنه المخرج الوحيد من المأزق الذي وقع فيه العالم الآن من جراء اتباع المذاهب القصيرة النظر للإنماء الاقتصادى.

هذا هو كتاب :(الإسلام دين الله وفطرته التي فطر الناس عليها) أرجو أن يكون فيه ﴿ بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب ﴾ [1].

أتوجه إلى الله أن ينفح قاريء هذا الكتاب بنفح منه ،وأن يطيب أنفاسه بعطر الرضا، وشذا القبول، لينعم بهذا الكاب الجليل من آثار الإمام أبي العزائم.

فمرحى بالإمام المجدد السيد مُحَّد ماضي أبي العزائم وهو يدعو الناس في كل زمان ومكان بدعوة الإسلام الخالدة ﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين﴾[2].

ومرحى بدار الكتاب الصوفي وهي تؤدي واجبها نحو المسلمين في كل مكان بنشر هذا التراث الإسلامى، وأسأل الله أن يصدق فينا قول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : (مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء وأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجاديب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا...)

وأحب أن أنوه بجهد الأخ قنديل عبد الهادي الذي قام بمراجعة تصحيح الكتاب، فله مني الشكر، ومن الله عظيم الأجر.

والله سبحانه وتعالى هو الموفق الهادى إلى سواء السبيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا مُحَّد وآله، واعطنا الخير وادفع عنا الشر ونجنا واشفنا يارب العالمين.

---

(1) سورة إبراهيم آية 52.

(2) سورة فصلت آية 33 .

التماس الطبعة الأولى
الخليفة الأول
السيد أحمد ماضي أبي العزائم

غرة جمادى الأولى 1340 هـ – 31 ديسمبر 1921 م

الحمد لله الذي تفضل علينا بأن جعلنا من أمة حبيبه ومصطفاه، وأكرمنا سبحانه بدوام أنواره المحمدية لنا وفينا، فهو ﴿ﷺ وآله﴾ خاتم الرسل حقا، ولا تزال معجزاته تترى إلى أبد الآبدين، وأنوار شمسه المحمدية تشرق في كل حين. وكيف لا ؟ ونحن فآخر الزمان يجدد الله لنا وبنا ما خفى من أنوار العلوم، وما اندرس من آثار أئمة الهدى، حتى نرى أننا في عصر السلف الصالح ، الذي كان مشرقا بأنوار النبوة، وأسرار الفتوة، وأحوال الأئمة الهداة، كما قال ﴿ﷺ وآله﴾: (أمتي هذه أمة مرحومة مغفور لها، لا يدرى أولها خير أم آخرها).

وكما قال سبحانه وتعالى : ﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لآئم ذلك فضلا لله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴾[1]. والصلاة والسلام على الشمس المشرقة في كل زمان، التي إذا غابت عن أفق أظهرت أنجمها المضيئة بنورها ،فاستبانت بهم الحجة ووضحت بهم المحجة.

وبعد، فيقول الخديم المسكين أحمد ماضي أبو العزائم : إني لما نشأت من نعومة أظفاري في حضانة سيدي ووالدي الإمام المجدد السيد مُحَّد ماضي أبي العزائم ، متمتعا بسماع الحكمة، نمت في نفسي همة الخدمة العامة، فظهر لى أن أنفع شيء أقوم به هو نشر تلك الأسرار العلمية، والحكم النبوية، بين إخوتي المؤمنين حفظا لآثار سيدي الوالد.

وبعد أن طبعت كتاب : (الإسلام وطن) وكتاب : (الإسلام نسب) اشتاقت نفسي أن أتمم طبع الكتب الثلاثة الجامعة لأسرار الشريعة الإسلامية، فالتمست من سيدي الوالد ، أن يأمرني بطبع كتاب : (الإسلام دين الله) [2] فشرح الله صدره لطبعه، فاجتهدت لضبطه وتصحيحه، وسألت الله تعالى أن يجعل عملي هذا خالصا لوجهه الكريم، وبرا بوالدي وسيدي أطال الله عمره.

وها هو الكتاب قد أعان الله على تمام طبعه، جامعا لما كان عليه سلفنا الصالح من العقيدة الحقة، والعبادة المطلوبة، والمعاملات المحمودة، لتبتهج به نفوس أهل الإيمان، حتى يكون المتأخر مع المتقدم، بل ونكون جميعا مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، بنص قوله تعالى :﴿ مُحَّد رسول الله والذين معه... ﴾ [3] إلى آخر سورة الفتح.

فإن الله تعالى أثبت لكل متصف بتلك الصفات معية رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وليس بيننا وبينه ﴿ ﷺ وآله﴾ بين، وإنما هو عزيمة على التشبه بالأئمة، فإقدام على العمل، فاتصال به ﴿ ﷺ وآله﴾، حتى نكون من أهل العزائم، وكلنا نتوجه إلى الله تعالى أن يطيل لنا عمر السيد الوالد، وأن ينفع بعلمه

(1) سورة المائدة آية 54 .

(2) يطلب جميع تراث الإمام أبي العزائم عليه السلام من مكتبة دار الكتاب الصوفي التابعة لمشيخة الطريقة العزمية – 14 ش مجلس الشعب – القاهرة.

(3) سورة الفتح آية 29.

وينشر طريقه في سائر البلدان، وأن يحفظ هذا النور المشرق لنا وبنا إنه مجيب الدعاء، وصلى الله على سيدنا مُحَّد وعلى آله وصحبه وسلم.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، والصلاة والسلام على سيدنا مُحَّد وآله، بدور الهدى، وبحور الندى، وبعد، فيقول خديم الفقراء مُحَّد ماضي أبو العزائم : إني بعد أن أكرمني الله تعالى بإملاء الكتب الجامعة للعقيدة والعبادات والأخلاق والآداب، والسير والسلوك، وبيان الإشارات الروحانية ومقامات المقربين وعلوم أهل اليقين، شرح الله سبحانه وتعالى صدرى لأن أكتب كتابا مبينا فيه ما خفى على أهل هذا العصر من أسرار الدين ،مفصلا فيه ما خفى من آثار السلف الصالح ،ليجدد أهل الله تعالى آثارهم الدارسة، وأسرارهم الخافية، وقد أعانني الله تعالى على هذا العمل البار، فجمعت الحقائق الثلاث : الدين، والوطن، والنسب، ووضعت لكل حقيقة من تلك الحقائق كتابا خاصا بها يبين روح الشريعة فيها، حتى يتحقق كل مسلم أن الدين هو الإسلام، وأن الوطن هو الإسلام، وأن النسب هو الإسلام، وأن يسارع إلى الخير الحقيقي الذي سارع إليه أصحاب رسول الله وتابعوهم بإحسان، طمعا في نيل العزة بالله، والسعادة في الدنيا، والتمكين في الأرض بالحق، والفوز برضوان الله الأكبر، والنعيم المقيم في جوار رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾.

وهذا هو كتاب : (الإسلام دين الله)، أتقرب به إلى الله تعالى وإلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وأسأل الله تعالى أن يتقبله بقبول حسن ،وأن ينفع به إخوتي المسلمين ،وإني على يقين حق أن ما كان فيه من الحق فهو من الله تعالى بتوفيقه وحسن عنايته، وما كان من خطأ فهو مني لعجلتي ونسياني، والله غفور رحيم، أسأله أن يتوفاني مسلما ويلحقني بالصالحين، وأن يغفر لي عجلتي ونسياني ،وأن يجدد آثار سلفنا الصالح بمحو البدع والضلالات، وإعادة المجد لنا بإهلاك أعداء الله، وأعداء رسوله، وأعدائنا، إنه مجيب الدعاء، وصلى الله على سيدنا مُحَّد وآله وسلم.

خديم الفقراء

مُحَّد ماضي أبو العزائم

الباب الأول
الـديـن

تعريف الدين :

الدين وضع إلهي، يدعو أصحاب العقول إلى قبول ما هو عن الرسول صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم. أو وضع إلهي سائغ لذوي العقول السليمة باختيارهم المحمود إلى الخير بالذات.أو دين الله المرضي الذي لا لبس فيه، ولا حجاب عليه، ولا عوج له. أو هو إطلاعه تعالى عبده على قيوميته الظاهرة، وعظمته الحقية التي لا يشير إليها اسم، ولا يحيزها رسم، وهي مداد كل مداد. هذه التعاريف التي بينا بها رسم الدين ــوإن اختلفت عبارتها ــ فمدلولها في الجملة واحد.

حكمة اختصاص الإنسان بتحمل الأمانة :

لاشك أن الإنسان ــكما بينا فيما سبق لنا من الكتب ــ هو العالم الوسط الذي خلقه الله تعالى صالحا للدارين، مؤهلا لأن يتجمل بالكمالات حتى يكون في أعلى الجنات، تتولى خدمته الملائكة بعناية الله تعالى وحسن تدبيره، أو يتعشق الضلالات وتستعبده الشهوات، حتى يكون في هاوية السخط والمقت أسفل سافلين في العذاب الأليم مع الشياطين، ولهذا فإن الله سبحانه وتعالى جعله محل البلوى بنص قوله تعالى : ﴿ إنا عرضنا الأمانة... ﴾ [1] الآية، وقوله سبحانه : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ [2] وقوله سبحانه وتعالى :﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾ [3] وقوله سبحانه وتعالى :﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين﴾ [4] وقوله جلت قدرته :﴿ لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا﴾[5]

(1) سورة الأحزاب آية 72.
(2) سورة المؤمنون آية 115.
(3) سورة محمد آية 31.
(4) سورة الدخان آية 38.
(5) سورة الأنبياء آية 17.

وقوله صلوات الله وسلامه عليه ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له)) [1] وحيث أن الله سبحانه وتعالى خلقه صالحا للدارين، ركبه جلت قدرته من قوى متباينة، بعضها يفارقه، وبعضها لا يفارقه.

القوى التي لا تفارقه :

للنفس قوى تعمل أعمالها بالآلات الجسمانية كالغازية والمربية والمولدة، وتلك القوى لها الرئاسة على أنواع أخرى تخدمها، ومنها القوى المدركة وهي ظاهرة وباطنة، فالظاهرة منها هي الحواس. والباطنة هي المتخيلة والواهمة والذاكرة والمفكرة، والقوى المحركة الشهوانية والغضبية، والقوى التي تحرك الأعضاء، وكل تلك القوى التي ذكرناها تعمل أعمالها بآلة ــ وإن لم تر بعض الآلات ــ لأنه لابد من ذلك، وجميعها لا يفارق الإنسان.

القوى المفارقة :

هي كثيرة، منها العقل العلمي، وهو الذي يستنبط ما يجب فعله من الأعمال الإنسانية، ويقيس الأشباه والنظائر التي لم يرد بها نص صريح لا في الكتاب ولا في السنة بالجزئيات المستنبطة من الكتاب والسنة، ومن تلك القوى العقل العملي، وهو الذي يتم به جوهر النفس وتصير نفسا طاهرة زكية بالفعل، وتتفاوت مراتبه فقد يكون بالوهب أو بالكسب.

تلك القوى التي تدرك المعقولات روح مجردة ليست بجسم، ولكن لا تؤدي أعمالها الخاصة بها إلا بواسطة آلاتها الجسمانية، لأنها مفارقة للإنسان ليست من نوع قواه، تلك الروح تبقى بعد موت البدن لأنها ليست قابلة للفساد، وهي الروح المعنية بقوله.

---

(1) هذا حديث رواه البخاري في كتاب القدر، باب جف القلم، وله فيه روايتان إحداهما عن عمران بن حصين : " قال رجل : يا رسول الله أيعرف أهل الجنة من أهل النار ؟ قال : نعم، قال : فلم يعمل العاملون ؟ قال : كل يعمل لما خلق له . أو لما ييسر له " والرواية الثانية عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال : كنا جلوسا مع النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ ومعه عود ينكت في الأرض، وقال : ما منكم من أحد إلا قد كتب مقعده من النار أو من الجنة، فقال رجل من القوم : ألا نتكل يا رسول الله ؟ قال : لا، اعملوا فكل ميسر، ثم قرأ : وأما من أعطى واتقى ... الآية " وهذا الحديث أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي .

سبحانه وتعالى :﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي﴾ [1] وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة۞ ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي۞ وادخلي جنتي﴾ [2] وهذه الروح هي الإنسان على الحقيقة، وبدونها فهو كالأنعام بل أضل. وإنما تفاض من المنعم الوهاب عند إرادته ذلك بإيجاده سبحانه الشيء الصالح لقبولها وهو البدن الإنسانس الذي يمثل الكمالات الروحانية، وتتجلى به الأخلاق الربانية، وقليل ما هم.

عناية الله تعالى بالإنسان :

لكل تلك المعاني اقتضت حكمة الله تعالى العناية بهذا النوع حتى حمله الأمانة، وهي الخلافة عنه سبحانه وعبادته، والقيام بما أوجبه مشاهدا جماله العلي وجلاله الرباني في كل عمل، حتى لا يغيب عن الحق ولا ينسى عهد ﴿ألست﴾ وهو العهد الذي أخذه الله على بني آدم بقوله عز وجل ﴿ألست [بربكم﴾ [3] فسخر له ما في السموات وما في الأرض فضلا منه سبحانه، وأمده تنزهت ذاته بما به يمكنه أن يتصرف في الأرض، ويقوم بحقوق الخلافة عن الرب، مجاهدا نفسه وهواه في ذات الله تعالى، ناهجا المنهج الذي وضعه الله لنا ضامنا لنيل سعادته في الدارين، من العقيدة الحقة التي هي الحقيقة في نفس الأمر، والعبادات الخالصة التي رضيها سبحانه لنفسه من عباده المخلصين، والمعاملات الحسنة التي بها يكون الإنسان أخا للإنسان، وعضوا متمما للجسد الذي تمثله كل أفراد بني الإنسان، والأخلاق الربانية التي يكون بجميعها إنسانا روحانيا كاملا فوق الملائكة منزلة، وإن كان في الظاهر هو الهيكل الإنساني الذي يأكل وينام ويمشي في الأسواق.

إذا تقرر ذلك فبنو الإنسان ينتظرون من الله تعالى رسولا كريما عليه يأتيهم من قبله سبحانه وتعالى، مبينا لهم جزئيات كل تلك المعاني التي لا ينالون السعادة الحقيقية إلابها، وكل من أتانا بنوع واحد من تلك الأنواع نعتبره يؤهلنا لشروق أنوار هذا الرسول الكريم، ويعدنا لأن نكون صالحين لنيل الكمالات العالية التي يأتينا بها من قبل ربنا سبحانه وتعالى، وبذلك يكون ما أتى به (ﷺ) هو دين الله حقا، الذي لا يقبل الله تعالى بعد ظهوره من أحد صرفا ولا عدلا ما لم يؤمن به ﷺ، ويتبعه (ﷺ)، وقد بحث العقل بقواه كلها في كل ما جاء به (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ بعد حكمه بأن

---

(1) سورة ص آية 72

(2) سورة الفجر آية 27-30.

(3) سورة الأعراف آية 172.

الله أرسل رسلا كثيرين، وتصديقه بهم عليهم الصلاة والسلام أجمعين في كل ما جاءوا به _ فحكم حكما نهائيا أن كل رسول جاء قبل سيدنا ومولانا مُحَّد صلى الله عليه وآله وسلم، إنما جاء ليعد بني الإنسان لنيل تلك السعادة القصوى، التي لا تنال إلا بظهوره صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذه الأسفار السماوية لو تتبعها الحكيم الألمعي، لوجد بعضها يومىء إلى تكميل القوى الجسمانية وتقويمها دون نظر إلى النفس، وبعضها يبين طرق تزكية النفس مع إهمال ما يجب على الأبدان التي هي الآلات للنفس، وإغفال ما لابد أن يكون عليه الإنسان في كل أنواع المجتمع الإنساني صغيرها ووسطها وكبيرها، وترك بيان مرتبة الإنسان ومنزلته بين العوالم كلها، حتى أن بعض الكتب صرح بأن البعث بالنفس دون الجسم إهمالا للأجسام التي بها ظهرت تلك المعاني الروحانية، وقامت أعمالها الخاصة بها.

ولم يرسل الله تعالى رسولا يدعو الناس إلى الخير الحقيقي والسعادة الحقيقية في الدارين، مبينا أنواع الكمالات الإنسانية كلها عقيدة وعبادة ومعاملة وأخلاقا، وموضحا الآداب التي تجعل الإنسان أهلا لأن يكون في معية ربه في الدنيا و الآخرة، وصورة كاملة مجملة بالأخلاق الربانية حتى يحصل له الخير الحقيقى وتتم له السعادة الحقيقية روحا وجسما، إلا سيدنا ومولانا مُحَّدا صلى الله عليه وآله وسلم.

إن الدين عند الله الإسلام :

لما تقدم يحق لى أن أقول : إن الإسلام هو الدين حقا، وإن الأديان التي جاءت بها الرسل قبل نبينا صلى الله عليه وآله وسلم كانت أديانا قبل بعثته صلى الله عليه وآله وسلم، ثم نسخت بدينه الناسخ لكل دين قبله، فمثله ومثلهم صلى الله عليهم أجمعين كالأنجم الزاهرة التي يستضاء بها في ظلمة الليل، فإذا أشرقت الشمس حجبت ما هنالك من النجوم، فمن غض بصره عن الشمس ولم يهتد بها جنى على نفسه أكبر جناية، وخسر خسرانا مبينا، لاسيما وأن تلك الشمس لا تغيب أبدا، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم خاتم الرسل ولا نبي بعده، ولا يزال نوره مشرقا في الآفاق بأعمال وأقوال وأحوال خلفائه صلى الله عليه وآله وسلم الهادين المهتدين الراشدين من العارفين والأئمة، فالعارفون والأئمة من المسلمين أمثال الأنجم المضيئة بنور الشمس في أفقها.

حكمة إنزال الكتب السابقة :

لو تتبعنا كل ما جاء في صحف وأسفار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بإمعان وروية، لظهر لنا جليا أن كل الكتب السماوية السابقة أنزلت لتنويع الأفكار، وتطهير الأخلاق من النجاسات والنقائص، ليستعد الإنسان بالتخلي للتجمل بالجمال الحقيقي بعد الطهارة من الدنس والأرجاس.

وذلك لأنا نرى كل رسول من رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أتى قومه يدعوهم إلى الاستغفار من خطاياهم، أو إلى ترك قبيح الأعمال التي تعودوها، شأن من يؤهل الناس ويعدهم للوصول إلى من يتكملون على يده بما به يكونون في أمن وهداية وعزة وسعادة.

انظر إلى سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام، فلقد دعا قومه إلى أن يستغفروا ربهم ويتوبوا إليه، فأبوا عليه أن يسمعوا ويطيعوا، حتى باغتتهم النقمة، وهي من كبريات الآيات، وكان ممن لم يقبل الهدى ابن سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام حتى هلك بالطوفان.

وجاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام يدعوهم إلى ترك الشرك بالله، وأقام الحجة بما تلين له الأحجار الصم فأبوا عليه.

وأتى سيدنا لوط عليه الصلاة والسلام يدعوهم إلى ترك الفاحشة. وأتى سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام يدعو إلى ترك الظلم واستعباد عباد الله. وأتى سيدنا عيسى عليه السلام يدعو إلى الخلاص من الدنيا وترك العمل لها، والإقبال على الآخرة التي يسميها الملكوت.

يظهر كل ذلك لمن استقرأ ما ترمي إليه الكتب السماوية قبل القرآن المجيد، حتى أشرقت الشمس التي ظهر بنورها الحق، وتبين طريق السعادتين ببعثة سيدنا ومولانا مُحَمَّد صلى الله عليه وآله وسلم، ومع هذا كله فإنه ما من نبي ولا رسول إلا بشر بالرسول الذي يرسله الله كافة للناس، وسماه باسمه وبين لقومه كريم نعوته وشريف صفاته صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وسأبين إن شاء الله تعالى في آخر هذا الكتاب بشائر الأنبياء عليهم السلام في صحفهم من التوارة والإنجيل، عند دعوة النصارى واليهود إلى الإسلام، ونبوآتهم ببعثة خاتم الرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام، ولا يخفى كل ذلك إلا على مكابر.

الدين الجامع :

لاشك أن الدين الذي يجب أن يدين به العالم أجمع لابد أن يكون مستوفيا للأحكام التي تكون بها سعادة الإنسان دنيا وأخرى، وكمالاته النفسانية، وجمالاته الجسمانية متجملا بحقيقة الخلافة عن ربه، قائما بحسن رعاية ما استرعاه الله، عاملا من عمال الله في أرض الله، حاضرا مع الله بروحه، قريبا من الله بأخلاقه وأعماله، مشاهدالله بمراقبته ومحاسبته لنفسه، ذاكرا فاكرا، لا غافلا ولا ناسيا، يشهد بنور بصيرته الحق قبل أن تشهد عين بصره الخلق، يرضي الله في خلقه ولو أغضبوه في حظهم، ويعمل لله في السر كما يعمل له سبحانه في العلانية لأنه يراه بنور سره، أو يوقن أن الله يراه حيث كان، وهي منزلة عامة المؤمنين، لأن المؤمن الكامل مع الله في كل حاله وشأنه، وغيره من المؤمنين موقن أن الله يراه في حركاته وسكناته، وهو مقام الحفظ الإلهي وسر قوله تعالى : ﴿ أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾[1] ودون هاتين المنزلتين غافل يدعي أنه مؤمن فيجب أن ينبه، أو ساه يجهل حقوق الإيمان فينبغي أن يذكر.

ولم يجمع تلك المعاني كلها إلا كتاب الله تعالى، وسنة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فظهرت جمالاتها جلية، وأسرارها علنا ،حتى بلغ المسلم مقاما من مقامات اليقين، يكاشفه الله بما كاشف به أنبياءه المقربين، من معاني صفاته القدسية، وأسرار تجليات أسمائه العلية ،ويهب له الحكمة وفضل الخطاب، فصار به وارثا من ورثة رسل الله عليهم الصلاة والسلام، وبدلا من أبدال أولي العزم عليهم الصلاة والسلام، وهم كثيرون في المسلمين لا يخلو منهم زمان، أسرارهم جلية، وأحوالهم علية، وأنوارهم مضيئة، وعزائمهم ماضية، لأن كل تلك المعاني لم يأت بها رسول قط، ولا أنزلها الله كاملة في كتاب قط قبل سيدنا ومولانا مُحَّد ﴿ ﷺ وآله﴾، وقد تفضل الله بها علينا فضلا منه وكرما، له الحمد والشكر، لا نحصي ثناء عليه سبحانه، فهو كما أثنى على نفسه.

إذا تقرر ذلك ظهر جليا أن الإسلام هو الدين حقا، وأن الدين هو الإسلام، ولن يقبل الله من أحد ابتغى غير الإسلام دينا.

على أني معتقد أن القرآن المجيد أنزله الله تعالى جامعا لكل ما أنزله على رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، قبل سيدنا ومولانا مُحَّد ﴿ ﷺ وآله﴾، ثم تفضل فأتم نعمته علينا وأكمل لنا ديننا

---

(1) سورة الأنعام آية 82.

الذي ارتضى لنا، وبين لنا في القرآن المجيد كل شيء لم ينزله من قبل. فالكتب السابقة كانت كالتعليم في الصغر الذي لابد أن يكون مناسبا لقوة العقل، حتى إذا تمكن من المبادىء الأولية ترقى في مراقي المعارف والحكم والأحكام، حتى يبلغ مبلغا يمكنه فيه أن يتلقى العلوم العالية، حتى يبلغ نهاية العلوم وغاية الفهوم ،فكأن الرسل السابقين كأساتذة للإنسان في سن الطفولية ،يؤهلونه للتلقي عمن هو أرقى منهم، ذلك هو السيد الكريم والرءوف الرحيم إمام الأئمة ورسول الرسل عليهم الصلاة والسلام، الذي جمع الله له العلم والمعلوم، والاسم والمسمى، واللفظ والمعنى، والروح والجسد، فكان خاتم الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام، ورسولا للناس عامة، فمن لم يؤمن به كفر، ومن ائتم بغيره هلك، ولو أدركه موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام ما وسعهما إلا اتباعه، صلوات الله وسلامه عليه وآله وصحبه وسلم.

الباب الثاني
أسس الدين الإسلامى

وهنا ينبغي أن أفصل ما أجملت، وأبين ما أبهمت، من أسس الدين الإسلامي التي هي : العقيدة، والعبادة، والأخلاق[1]، والمعاملات، وما يتجمل به المسلم بإتباعه للسنة والكتاب مبتدئا بالعقيدة.

المبحث الأول

العقيدة :

سبق لنا شرح ما يجب أن يعقد عليه القلب في كتاب : (أصول الوصول) مما أجمع عليه أهل السنة، ثم بينا اختلاف الفرق الإسلامية في بعض ما يجب اعتقاده، فيما ليس من الأصول الكلية في أساس التوحيد، كالخلاف في أفعال العبد وغيرها مما بينه أهل السنة والمعتزلة وغيرهما، ثم أعقبنا ذلك بمذهب السلف الصالح موضحا بتفصيل فكتاب : (معارج المقربين) توضيحا لا يحتاج المطالع بعده إلى بيان.

ولما كان الغرض من هذا المختصر بيان بعض جمال الإسلام، وما يتكمل به المحافظ على حدود الله تعالى في الدنيا، وما يفوز به من النعيم الأبدي في الآخرة، أحببت أن لا أخليه من مزيد بيان يكون به النفع أعم، والخير أشمل، ولمزيد البيان أبتديء بذكر نوع من طرق تعليم العقيدة.

قبل أن نبين الأصول التي يجب أن يعقد المسلم قلبه عليها، أشرح الطريقة التي يجب أن يلاحظها المعلم عند إلقاء درس العقيدة.

سبق لنا أن الإيمان مقدم على العلم، ووضح الحق بلا ريب بما قررناه في كتاب :(معارج المقربين) في موضع العلم والإيمان، قال سيدنا أبو هريرة ﷺ : كنا نتعلم الإيمان قبل القرآن، وأنتم تتعلمون القرآن قبل الإيمان.

---

(1) تناول الإمام المجدد عليه السلام موضوع الأخلاق في كتابه : أصول الوصول لمعية الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ وفى غيره من كتبه .

ومعنى ذلك أن الصحابة رضوان الله عنهم كانوا يتعلمون التصديق قبل العلم، حتى إذا تعلم أحدهم القرآن بعد التصديق كان كما قال الله تعالى : ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾[1] فإن الإيمان برهان حق على صفاء جوهر النفس، والتكذيب دليل على مرض النفس ونجاستها، لأن النفس الصافية الجوهر تقبل الحق بسرعة لأنه جلى لها، ولكنها كالمهملة قبل إخبارها بالحق، وعندما يخبرها الصادق عن الحق بالحق تقبل مصدقة.

. الغرض من دراسة علم التوحيد

لما كان لابد من التصديق قبل العلم، لزم أن نبدأ بتعليم التصديق، حتى يكون العلم موجبا لليقين الذي يجعل النفس تستحضر تلك المعاني ـــ استحضارا بقدرها لا بقدر الجناب المقدس ـــ ويجعلها تنجذب إلى الحق بكليتها وتسارع في مرضاته، وتفر من موجبات غضبه، حتى يبلغ بها العلم من استحضار تلك المعاني مبلغا يجعل المسلم حسن التوكل على الله، كامل الثقة بالله، عظيم الرغبة في الله، شديد الرهبة من الله، مطمئن القلب بالله، لا تلم بقلبه لمة شيطان فيهم بمخالفة الشرع، ولا يهجس بسره هاجس شك فيتأول كلام الله برأيه، ويجرؤ على فعل القبائح والمنكرات، بل قد يبلغ به اليقين مبلغا حتى يكون إذا ألقى عليه درس في التوحيد كأنه يرى تلك المعاني، لما تقتبسه نفسه من قبس الأنوار القدسية عند سماع صفات الحق سبحانه، وهذا هو الغرض من دراسة علم التوحيد، وليس الغرض منه تشكيك المسلم وتنمية قوة الإنكار والجدل، وتعليمه سوء الأدب مع الأئمة الهداة حتى يبلغ به الجهل مبلغا يجعله ينكر على العلماء.

وقد ظهر الفساد حتى صار بعض المعلمين يجلس في مجلسه يقرر درسا من التوحيد ،وتدعوه نفسه إلى أن يظهر قدر علمه ومقدرته على إيراد الشبه وردها بالأقيسة، ويظن المسكين أنه أرضى ربه لما أظهر من أبواب الشبه وما أبدى من دقائق المباحث، وفى الحقيقة أنه أفسد عقول المتعلمين وأبدل اليقين بالشك، والتصديق بالريب، ونجس الآذان بما لا يفيد، وأطفأ نور القلوب بما يظنه خيرا، فيجلس المعلم السنين الطوال يعلم الفقه والتوحيد والأصول، ولم يوفقه الله تعالى أن يقول في درسه : قال الله، ولا : قال رسول الله. حتى يتخيل بعض المتعلمين أن القرآن الشريف إنما يحفظه أهل العاهات ليكون وسيلة للرزق، وأن كتب السنة يحفظها العامة لتكون تمائم في بيوتهم، فصارت مناهج الكتاب والسنة

(1) سورة البقرة آية 282 .

خفية، وأصبحت القلوب إذا تلي كتاب الله عليها لا تفهم له معنى، بعد أن كانت تقشعر له الجلود، وتلين له القلوب والجلود، ويزداد بتلاوته الإيمان إذا قرىء، وإذا قريء وجلت القلوب.

كان ذلك الحال في السلف الصالح ، لأن العالم أو المفتي إذا ذكر حكما من أحكام الله تعالى قال :قال الله تعالى كذا. وكذلك كان المفتي بعد أن يقرر الجواب يقول :قال الله تعالى. بل كان الكاتب إذا كتب رسالة ود يخللها بقال الله وقال رسول الله. والخطيب في الصلح أو في الزواج أو في الحث على الفضائل أو في بيان مكرمة يتخلل خطبته بقال الله وقال رسول الله، وصرنا في زمان يجلس المتعلم أمام المعلم فلا يسمع إلا الشكوك والريب والاعتراض والجدل، ويجلس في درس الفقه فلا يسمع إلا الخلاف، والتضعيف، ورأى فلان، واستحسن فلان، ونقل فلان.

مع أن السلف الصالح كانوا يقولون في درس الطب : قال الله، وقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، فكان الطبيب إذا نظر إلى ألطاف الله وأسرار الله كيف ركب الجسم وأودع لك الخواص في النباتات افتتح كل موضع من الطب بقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء).

كان البناء إذا ابتدأ يبنى افتتح فقال : قال الله تعالى : ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه﴾ [1] وقال :﴿ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير.....﴾ [2]، وبذكر أحاديث عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وكان التاجر إذا دخل السوق قال : قال الله تعالى :﴿ وأحل الله البيع وحرم الربا﴾ [3] حتى بلغ من ملاحظة القرآن وملاحظة كلام رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ في جميع أعمالهم، أن بعض السلف مكث سنين لا يتكلم مع الناس إلا بالقرآن، حتى في شؤونه الخاصة.

طريقة تعليم العقيدة :

فطريقة تعليم العقيدة أن يبدأ المعلم بتعليم المتعلمين التصديق والتسليم لما يلقيه، لأنه أمر بديهي للعقول بعد الإيمان به وبيان دلائله، فإذا أنس منهم التصديق والتسليم نبه فكرهم ــ بعد حفظ الصفات التي يجب أن يعقد قلبه عليها ــ إلى ما يراه فيما حوله من الأنواع الكثيرة التي خلقت لأجله، وأنه ينتفع بجميعها ولولاها لكان من المستحيل أن يكون الإنسان موجودا، خصوصا الأشياء الضرورية

(1) سورة النور آية 36 .
(2) سورة التوبة آية 109 .
(3) سورة البقرة آية 275 .

كالهواء والماء والأرض التي يمشى عليها والشمس التي تضيء له وتعطيه الحرارة، فإذا تنبه قلبه وحضر لبه يجب أن تنقله إلى مقام أرقى من هذا، فتبين له أن تلك الأشياء لابد أن يكون خلقها قادر حكيم، أراد أن يخلقها صالحة لنفعنا، حتى يتنبه إلى برهان العناية والإيجاد، فيطمئن قلبه، وينعقد على حب مولاه المتفضل عليه بالعناية والإيجاد ،لأنه لو لم يكن الموجد للكائنات قادرا حكيما مريدا أن يخلقها صالحة لنا ونافعة، بل وضرورية لوجودنا وبقائنا الزمن المقدر لنا، لم تكن تلك الأنواع مرتبة هذا الترتيب، ومنظمة هذا النظام.

فإذا أنس قلبه بأن هذا الكون أحدثه قادر حكيم بإرادة وتدبير، وأنه سبحانه وتعالى جعله مسخرا لنا بني الإنسان، إذ ما من نوع من أنواع الكائنات إلا وهي لنفعنا وللذتنا ونعيمنا، ولتهذيب أخلاقنا وتزكية نفوسنا، فكان الكل مسخرا لنا حتى الوحش الضاري.

وبتلك الطريقة ترتقي بالمتعلم شيئا فشيئا، حتى يشتد تعظيمه وإجلاله لربه، وتقوى رغبته فيه سبحانه وتعالى، وحبه الحقيقي لمولاه سبحانه ،والمسارعة في طاعة أمره، فلا يلقى درسا في معاني الصفات إلا ويشرق على القلب نور اليقين، حتى لو كشف الحجاب لم يزدد يقينا.

فعلم التوحيد في الحقيقة هو العلم الذي إذا اعتنى العلماء بدراسته على الوجه الذي كان عليه السلف، أصبح المسلم عزيزا عاملا للخير العام، لايخاف إلا الله، ولا يرغب إلا في الله، وتشتد تلك المراقبة حتى يتمثل عظيم نعمة الله، وجميل عناية الله به، فيستحي أن يرى نفسه مخالفا لربه، أو ذليلا لغيره، أو محتاجا إلى غيره، وما من صفة من الصفات الإلهية إلا ويمكن للعالم أن يشرح للمتعلم المقصود من العلم بها، فإن كانت صفة السمع بين له أن الله سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيء من القول، ولا من العمل، فراقبه في سرك وفى علنك، وهكذا في كل صفة من الصفات يعتني بتلك الحكم الجلية المرادة من دراسة هذا العلم ،ليقوى الإيمان، وتقوى مراقبة العبد ربه ومحاسبته نفسه، وإني ــ والحمد لله ــ قد جاهدت نفسي على أن أنهج هذا المنهج في إلقاء دروس التوحيد، وببركة الاقتداء بالسلف الصالح حصل الخير للمتعلمين.

علم التوحيد :

رأس مال المؤمن، وحصنه الحصين، وذخيرته عند الشدة، ونجاته عند الفزع الأكبر، قال الله تعالى :﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [1] وبقدر إشراق أنواره على القلب يكون ارتفاع المسلم إلى درجات القرب، ومنازل الحب، قال تعالى : ﴿...والذين أوتوا العلم درجات ﴾ [2] إنما تكون مقامات اليقين كلها بقدر ذوق أسرار التوحيد ، وفهم غوامضه، والانتشال من أوحاله ،وقد أصبحنا في زمان صارت دراسة علم التوحيد تسلب الخشية من القلوب وتمرض النفوس، وتجعل المؤمن ــ بعد أن كان مسلما يخاف مقام ربه ــ تعتوره الشكوك والريب، وبالإهمال في هذا الركن ــ الذي هو أصل الأصول ــ تهاون المسلمون بحدود الله، وأهملوا فيما أوجبه سبحانه على المسلمين لجنابه المقدس، ولنبيه ﴿ ﷺ وآله﴾، ولأنفسهم ولأرحامهم، ولخاصة المسلمين وعامتهم، فكادت عروة الإخاء الإسلامي تنفصم ،ذلك كله من الجهل بطريقة تعليم علم التوحيد، وإني أتقرب إلى الله تعالى بتلك العقيدة التي هي أنوار تسليم السلف، وحصون حيطة الخلف، متوجها إلى الله سبحانه وتعالى أن يقبلها وينفع بها ويجعلها خالصة لوجهه الكريم، ويغفر لي عجلتي الفطرية، وأعوذ بوجهه الكريم من هوى يعمي، ورأى يحجب، وحظ يقطع عن حضرته العلية، وأسأله سبحانه الحفظ والوقاية والسلامة في الدين والدنيا والآخرة، إنه مجيب الدعاء.

العقيدة التي يجب أن يعقد المسلم قلبه عليها :

معلوم أن العقيدة هي عقد القلب على علم بمعلوم عقدا قويا مؤكدا، وفى ذلك الإشارة إلى أن المسلم يجب عليه أن يكون علمه بالتوحيد عن يقين وتمكين، لأن الموقن حقا بالتوحيد هو الذي يسمى مسلما حقا لقيامه بشعائر الإسلام عن وجد وشهود. والعقيدة الإسلامية هي تصديق القلب بحقيقة ما عليه الأمر في ذاته في نفس الأمر، وطريق ذلك خبر الصادق الأمين، بعد أن يكون المتلقي صحيح الجسم، كامل العقل، سريع الفهم، قوي الفكر، معافى من أمراض الحظ وعمى الهوى، وبذلك يكون مؤمنا حقا قائما بما أوجبه الشرع، عاملا من عمال الله، خليفة من خلفاء ربنا سبحانه وتعالى، وبدون تلك الشروط لا يبلغ المسلم تلك الكمالات إلا بقدر ما تجمل به من تلك الشروط، التي هي كالآلات

(1) سورة النساء آية 48 .
(2) سورة المجادلة آية 11 .

والأدوات لكشف أسرار الدين وفك رموزه، فإن المعاني الإلهية من الكمالات الربانية والجمالات والجلالات لا يدركها العقل ــ من حيث أنه عقل ــ إلا بقدر ما يتضح له من الدلائل.

الآثار كنوز لم تفك رموزها :

أكثر الدلائل معان قائمة بمبان مقيدة بأدوات وآلات وكيفيات، تتفاوت العقول في إدراك خواصها فضلا عن غوامض أسرارها، وكيف لا ؟ والإنسان منذ سيدنا آدم عليه السلام وهو يجول بعقله في ميدان الآثار، يرفع الخلف أسس السلف حتى عصرنا هذا، ولا تزال خواص الكائنات تنكشف شيئا فشيئا للعقول، وتظهر مكنوناتها مدهشة للمفكرين، محيرة للمتأملين، ولا عجب، فإن القادر البديع الحكيم خلق الكون كله وسخره للإنسان، قال تعالى : ﴿ وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه﴾ [1] وأمد الإنسان بالعقل، وجعل له السلطان على الآثار لتظهر حكمة التسخير.

ولو نظر الناظر إلى ما اكتشفه الإنسان من خواص النباتات والجمادات والمعادن لمعالجة المرضى، وما استخدمه ــ بما وهبه الله من قوة العقل ــ من البخار والكهرباء، وما اخترعه من أنواع الصناعات الغريبة والفنون العجيبة، التي كلها إما لراحة الإنسان وخيره، أو لراحة فئة وشقاء آخرين، فالأول : كعلم الطب والعمارات والتربية وعلوم الحكمة العملية، والثاني : كفنون السياسات وتدبير الممالك واختراع الآلات الجهنمية لقهر بني الإنسان.

ومع هذا كله فلا تزال الآثار كنوزا لم تفك رموزها، وخزائن خيرات لم تفتح أبوابها، ورياض أفكار لم تفتق أكمامها، وهي بما فيها من الخواص معارج لمن سبقت لهم الحسنى، ومدارج لمن سبقت لهم السوءى، فالإنسان منذ سيدنا آدم عليه السلام إلى عصرنا هذا ــ مع ما بلغه من الفنون والصناعات ــ عاجز عن الحيطة بخواص المادة مما أودعه المنعم المتفضل النافع المعطي الوهاب من فضله في الآثار، ووهب لبني الإنسان القوى التي تكشف الستار عنها للنفع العام.

هذا هو أفق العقل، فإذا انكشف للعقل هذا الأفق فصار مبينا، يوقن أن لهذه الآثار مبدعا حكيما بقدر ما أدرك من هذه الآثار لا بقدر ما يليق بالجناب العلي المقدس، ولا يكون الإنسان

---

(1) سورة الجاثية آية 13 .

مسلما كامل الإسلام إلا إذا شهد بنور التسليم والإيمان . لا بعيون العقل والإمكان . آيات القادر الحكيم مشرقة أنوارها في تلك المباني، دالة على كمال التنزيه والعلو والعظمة والتقديس والكبرياء لذات الواحد الأحد سبحانه وتعالى، تنزيها وتقديسا يليقان بجناب الكبير المتعال، الذي لا تدركه سبحانه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير، ولا تحوم حوالى عزته وجلاله أنوار عيون الروحانيين، ولا بصائر أولي العزم المكرمين ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾[1].

كيف يبلغ العقل والنفس درجة الإيمان الكامل ؟ :

لا يمكن للعقول . وإن كملت . ولا للنفوس . وإن تزكت . أن تبلغ درجة الإيمان الكامل إلا بخبر الصادق المصدوق ﴿ ﷺ وآله﴾، والتسليم لحضرته المحمدية صلوات الله وسلامه عليه، وبشيء آخر لابد منه، وهو النور الذي يجعله الله تعالى في القلب فضلا وكرما ،المعبر عنه بالعقل الموهوب، فإن العبارات لاتفى بالكمالات الإلهية، بل ولا بالكمالات المحمدية، إلا بمشاهدة بنور الإيمان، وتسليم حق وفقه للبيان، ولو أن كل فرد من بني الإنسان وهبت له تلك المواهب لما اختلف اثنان في الحق، ولكن الحكمة الإلهية اقتضت أن تطالب الإنسان بمعرفة الله بقدر ما لو قصر عنه الإنسان لهلك، لأن أصغر إنسان مؤهل لأن يعرف الحق سبحانه معرفة تحصل بها النجاة من الهول ،والسلامة من المقت والسخط، وتتفاوت بعد ذلك مقامات أهل الخصوصيات في هذا المجد العلى والخير الحقيقي، فمن الأفراد الخصوصيين من يهب له الله مواهب يبلغ بها مكاشفة المقربين، حتى لايقع بصره إلا على وجه الله العظيم، ولا يسير به وطر إلا إلى الجناب المقدس، ولا تلم به لمة إلا ملكوتية.

قلنا : وشيء آخر هو النور، فإن هذا الفضل العظيم الذي يجعله الله للعبد به يكشف أسرارا هي الآن غيب وكانت شهودا قبل، وهي تجلي الرب سبحانه وتعالى يوم قوله سبحانه : ﴿ألست بربكم﴾[2] وأخذه العهود على الإنسان بعد الاعتراف بالتوحيد، والإقرار لله سبحانه بالربوبية، فإن تلك الحضرة لا يشهدها العقل، وإنما تشهد بعيون الإيمان وبنور التسليم الذي يجعله الله في قلب العبد، ولا شك أن ما ظهر عن تلك الآثار من الآيات الجلية إنما هي إشارات لكمالات المبدع الحكيم

(1) سورة الزمر آية 67 .
(2) سورة الأعراف آية 172 .

القادر، ومراء تمثل للقلوب السليمة كالمثل الذي يضرب لتقريب الحقيقة وإيضاحها بقدر ما قال تعالى :﴿ ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ﴾[1] وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ﴾[2].

فكل إنسان لم يجعل الله له النور تسترت عنه الآيات، وحجبت عنه البينات، وصار ضالا في فيافي الحظوظ والأهواء، وعاملا مجدا للفوز بحظه العاجل ولذته الفانية، لأنه لم تنكشف له آيات الحق الدالة على كمال قدرته، وعجائب حكمته، وجميل إيجاده وإمداده، وما أعده من الكمالات والنعيم الأبدي لمن اهتدى بهدي سيدنا ومولانا مُحَّد ﴿ ﷺ وآله﴾ وعمل بسنته، فيكون الذي حرمه الله من هذا النور كالأنعام بل هو أضل سبيلا. كل تلك المقدمات أرى أنها لابد منها، ولولا أن هذا المختصر لا يسع البيان ــ كل البيان ــ لاستوفيت الموضوع، وقد شرحت بعض أسرار من الآيات المنبلجة في الآثارفي كتاب : (معارج المقربين) وجملا من الكمالات والمقامات التي ينالها الإنسان بحسن الاقتداء برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ في كتاب : (أصول الوصول لمعية الرسول) وأشرت إلى شيء من وجوه التفكر في السموات والأرض وما فيهن ،ببيان يجعل القاريء يشهد من أسرار الآيات ما يجعله في مزيد من الإيمان، وكمال الإقبال على الله سبحانه وتعالى المنعم بكل تلك النعم في كتاب : (النور المبين لعلوم اليقين) [3] فأكتفي هنا بما بينته.

ويحسن أن أقول : إن العقل لا يستقل بإدراك تلك الأسرار، ولا يمكنه أن يبلغ مبلغا بالإنسان يجعله (مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين)، بل ولا يقتدر أن يجعل الإنسان سعيدا في مجتمع مدني سعادة معقولة يعم خيرها أفراد بني الإنسان، فإن له منطقة خاصة به لا يتعداها، وإن كان هو الآلة لكل الخيرات فإنما يجول في مادة موجودة ليخترع ما يلائمه، أو يستنتج منها نتائج معنوية تدل عليها بطريق الالتزام مما قد يخطيء فيه أو يصيب، فلم يبق طريق يبلغ به

---

(1) سورة النور آية 35 .

(2) سورة إبراهيم آية 25 .

(3) تطلب هذه الكتب وغيرها من تراث الإمام المجدد أبي العزائمعليه السلام من مكتبة دار الكتاب الصوفي 114 ش مجلس الشعب _القاهرة.

الإنسان السعادة الحقيقية والخير الحقيقي في الدنيا والآخرة إلا خبر الصادق، الذي يقيم الحجة للعقل أنه صادق حقا فيسلم له ويستسلم، لديها يفوز بكل خير عاجل وآجل، ولا يمكن أن تتلقى العقيدة التي بها النجاة إلا من هذا الطريق، وقد شرحت جملا في كتاب : (أصول الوصول) ولكن لابد أن أبين ما الحاجة ماسة إليه، حتى لا يخلو هذا المختصر من أصل الأصول فأقول وبالله التوفيق :

العقيدة المأخوذة من كتاب الله تعالى وبيان رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ :

مأخذها كتاب الله تعالى، وبيان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وما قرره بعد ذلك أئمة الهدى رضوان الله عليهم، وقام بتدوينه أهل العلم المخلصون خدمة للأصل الأول من أصول الدين الذي هو رأس المال لكل مسلم، قال تعالى :﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾[1] وقوله سبحانه وتعالى :﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾[2] وقوله جل شأنه :﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله﴾ [3] وقوله تعالى :﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾[4] وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ ((من مات لا يشرك بالله شيئادخل الجنة)) [5] وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : ((من مات لا يشرك بالله شيئا حرمه الله على النار)).

وقد أجمع المسلمون جميعا عليها إلا ما اختلف فيه، والخلاف بينهم ﷺ فأمور جزئية اقتضتها مقاماتهم من العلم بالله تعالى، وكلهم خائفون من الله سبحانه وتعالى، ومراتب الخوف متفاوتة، فالسلف الصالح رضوان الله عليهم خافوا وسلموا علم ما ورد . مما يقف العقل دون إدراكه . إلى الله تعالى، إجلالا لكلام الله تعالى الذي هو صفة من صفاته، والخلف خافوا فتأولوا ما ورد للوسعة في ذلك، إجلالا للجناب المقدس أن تتصوره العقول، و ((إنما الأعمال بالنيات)) [6] وكلهم مؤمنون ،بذلوا وسعهم في خدمة العلم وتقرير الحق والله واسع عليم، وإني أحب الكل، وأسأل الله تعالى أن

---

(1) سورة النساء آية 48

(2) سورة الأنبياء آية 25 .

(3) سورة الزمر آية 38 .

(4) سورة الزخرف آية 9 .

(5) هذا جزء حديث أورده ابن كثير في تفسيره ، وقد رواه عن أبي ذر حيث جاء في الصحيحين بلفظ ((... ذلك جبريل عرض لي في جانب الحرة فقال : بشر أمتك أنه من مات لايشرك بالله شيئا دخل الجنة ، قلت : يا جبريل ،وإن سرق وإن زنى ؟ قال : نعم ، قلت : وإن سرق وإن زنى ؟ قال : نعم ، قلت : وإن سرق وإن زنى ؟ قال : نعم ، وإن شرب الخمر)) انظر تفسير ابن كثير ج 4ص 195 ، المعارف.

(6) هذا حديث متفق عليه ورواه الجماعة انظر البخاري باب بدء الوحى .

يتقبل أعمالهم بقبول حسن، وأن يغفر لى ولهم، وأحب أن كل مسلم يتعلم ويعمل، فإذا تعلم وعمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم، وهذه هي العقيدة.

المبحث الثاني
تقديس الله تعالى

أشرح في هذا الموضوع ما يجب على كل مسلم أن يعلمه علم يقين مما لا يسع المسلم جهله، حتى يستحضر الجناب المقدس العلي بنوع ما من الكمال الإلهي الذي يمكن للنفس الإنسانية الكاملة أن تكاشف به، فإن جهل تلك المعاني من هذا العلم نقص للإيمان أو محو له _ نعوذ بالله تعالى _ ولما كان ما أحب أن أشرحه تحت هذا العنوان قد اعتنى أئمة هذا العلم ببعض صفات منها لحكمة لا تخفى على مسلم، اقتديت بهم ﷺ في أن أخص تلك الصفات بالذكر، وأعرف كل صفة منها، وأقيم الدليل بآي القرآن، ثم أسرد جميع معاني التنزيه عقب ذلك.

والصفات التي اعتنى بها الأئمة في مقام التنزيه هي : الوجود ،والقدم، والبقاء ومخالفته تعالى للحوادث، وقيامه تعالى بنفسه، والوحدانية.

1. الوجود:

الوجود هو التحقق والثبوت، ولما كان علم التوحيد ومعرفة صفات الله تعالى لايمكن أن يشهد إلا بعيون الإيمان، حتى تنكشف أسرار جلية بعد الإيمان للقلوب فتطمئن بذكر الله، لأن الاعتراف بوجود الله سبحانه وتعالى أمر بديهي، تجلت حقيقته للعقل بما ظهر من الآيات البديعة في الآثار الجلية الناطقة بلسان حالها ومآلها أن قادرا بديعا حكيما واجب الوجود لذاته أبدعها من العدم، ودبرها بحكمة وقدرة، وأنشأها إنشاء.

فإن العقل إذا شهد سر ارتباط مراتب الوجود بعضها ببعض، واستعداد كل مرتبة لنفع خاص، وتأهل كل مرتبة لإظهار ما خصها الله تعالى به من الخصوصيات التي هي خاصة بها دون غيرها، لا يشرك معها غيرها فيها من أصغر ذرة في الوجود إلى ما فوق العرش العظيم، قال تعالى: ﴿ تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير۝الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور۝ الذي خلق سبع سماوات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ۝ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير﴾[1] فكل العالم بأجمعه دلائل قاطعة على وجود صانع قادر حكيم، لا يجهل ذلك ذرات الثرى ،ولاما وراء العرش

(1) سورة الملك آية 1 ـ 4

العظيم من الكروبيين وعوالم عالين، فإن كل مرتبة من مراتب الوجود ناطقة بحالها ومآلها بإثبات وجود الواحد المصور البديع الخلاق الرزاق سبحانه ،قال تعالى :﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله﴾[1] فالتكلم في صفة الوجود ينبغي أن يكون بطريق تستنير به القلوب، وتزكو به النفوس، وتتروح به الأرواح.

وما نهج عليه علماء الكلام من البدع التي ابتدعوها والشبه التي فتحوا أبوابها على المسلمين لم يكن من الحكمة التي سجد العقل لأول نظرة نظرها في هذا الكون البديع ،معترفا أن له محدثا أحدثه، وموجدا أوجده، وحكيما دبره، وقادرا أبرزه، وإنما بحث العقل عما يجب أن يكون لهذا الموجد واجب الوجود من الكمالات والجمالات والجلالات، وما الذي يقرب إليه من العبادات والمعاملات، وما الذي ينال به المسلم رضوان الله الأكبر من الأخلاق.

أما البحث في أن الوجود عين الموجود أو غير الموجود، أو أن له صفة لها وجود أو صفة اعتبارية، وما يلزم على ذلك، مما أوجب العداوة والبغضاء بين أهل المذاهب والآراء، والتفريق بين جماعة المسلمين، حتى صار يذم بعضهم بعضا، ويكفر بعضهم بعضا، فكل ذلك من البدع في الدين.

وهل بعد أن سجد العقل معترفا بوجود واجب الوجود نأتي فنبتدع تلك البدع التي جعلت المسلمين شيعا وأحزابا ؟ ! هل بعد أن خلق الله الإنسان، وقبل إبرازه في الكون أهل الكون له، من شمس مشرقة بالنور والحرارة، وهواء مناسب لصحته، وماء نافع له، وأرض تنبت له النباتات، وحيوانات تعينه وتغذيه بألبانها ولحومها، يرجع الإنسان فيشك في وجود هذا الصانع ؟ ! أو يفتح أبواب البدع فيقول : وجوده عين ذاته أو غير ذاته ؟ ! ما لأصول التوحيد وللخوض في مثل هذه البدع ؟ !.

ولو أنك سألت الإنسان الذي لا دين له، الذي تربى فوق شاهق جبل مع الأنعام الراتعة وقلت له : من الذي خلق السموات والأرض وخلقك ؟ لقال : موجود قادر حكيم، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير. ولو سألت عابد الصنم : من الذي خلقك وخلق الصنم ؟ لقال : الله، ولو قلت له : لم تعبد الصنم ؟ لقال لك : ليقربني إلى الله.

---

(1) سورة الزمر آية 38

فوجود الله لا شك فيه عند كل طبقة من طبقات الناس، والله تعالى ليس كمثله شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فكيف يمثله شيء وهو ليس كمثله شيء ؟ تلك أنوار لا تشهدها إلا عيون الإيمان، ولا تكاشف بأنوارها إلا عيون الإحسان واليقين ،

وإنما العقل يعترف بواجب الوجود لما ظهر له من آياته وبيناته.

معنى صفة الوجود :

إذا تقرر ذلك، فما علينا إلا أن نبين معنى صفة الوجود بما بينه الله لنا في كتابه العزيز، فقد ذكر الله تعالى من الآيات الدالة على وجوده وعظيم قدرته وبدائع صنعه ما فيه عبرة لمعتبر، وحجة قاطعة لمن أراد التقرب إليه سبحانه بمعرفة وجوده، فقال جلت قدرته : ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ۞ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون۞ ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين۞ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون۞ ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون۞ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون﴾[1].

وقال تعالى في بدائع جوده وعلامات وجوده سبحانه :﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ [2].

وقال أيضا في الآيات الدالة على وجوده جل وعلا : ﴿ نحن خلقناكم فلولا تصدقون ۞ أفرأيتم ما تمنون ۞ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ۞ نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ۞ على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون ۞ ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون أفرأيتم ما تحرثون ۞ أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ۞ لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون ۞إنا لمغرمون ۞ بل نحن محرومون ۞ أفرأيتم الماء الذي تشربون ۞ أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ۞ لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون ۞ أفرأيتم النار التي تورون ۞ أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ۞

(1) سورة الروم آية 20 ـ 25 .
(2) سورة فصلت آية 53 .

نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين ۞ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ [1].

وقال أيضا في الآيات الدالة على وجوده سبحانه : ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ۞ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ [2] وقال سبحانه حاثا على التفكير في مصنوعاته حتى يستدل بها على وجوده تعالى ومعرفة ذاته العلية : ﴿ أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون ﴾ [3] وقال أيضا في العلامات الدالة على وجوده : ﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ [4].

وقال تعالى في بيان طريق النظر الموصل إلى معرفته سبحانه ووجوده : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ۞ وإلى السماء كيف رفعت ۞ وإلى الجبال كيف نصبت ۞ وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ [5] وقال تعالى : ﴿ فلينظر الأنسان مم خلق ۞ خلق من ماء دافق ۞ يخرج من بين الصلب والترائب ۞ إنه على رجعه لقادر ﴾ [6] وقال تعالى : ﴿ فلينظر الأنسان إلى طعامه ۞أنا صببنا الماء صبا۞ثم شققنا الأرض شقا۞فأنبتنا فيها حبا۞وعنبا وقضبا۞وزيتونا ونخلا ۞وحدائق غلبا ۞وفاكهة وأبا ۞متاعا لكم ولأنعامكم ﴾ [7].

هذه الآيات البينات المحكمات، والبراهين الناصعة الجلية، لم يحتج إنسان ــ حفظه الله من المسخ ــ بعدها إلى بحث وتنقيب لطمأنينة قلبه، ولكن من مسخهم الله فجعل منهم القردة والخنازير وعبدة الطاعوت وأضلهم وأعمى أبصارهم كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ [8]لم تتجل لهم أنوار تلك البراهين القدسية والدلائل الربانية، تجليا تطمئن به قلوبهم، فمالوا عن الإسلام

---

(1) سورة الواقعة آية 57 - 74 .
(2) سورة الذاريات آية 20 - 21 .
(3) سورة الروم آية 8 .
(4) سورة البقرة آية 164 .
(5) سورة الغاشية آية 17 _20
(6) سورة الطارق آية 5 _8 .
(7) سورة عبس آية 24 - 32 .
(8) سورة الأعراف آية 179 .

بعقول مكسوفة بالهوى واتباع آبائهم، ولو أنهم صدقوا الله تعالى ورسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ لكان خيرا لهم، والله غفور رحيم.

الإيمان سابق العلم :

قد سبق لنا أننا بينا الفرق بين العلم والإيمان في كتاب : (معارج المقربين) وقررنا أن الإيمان سابق العلم، وأنه لا علم بعد الشك في خبر الصادق، وكيف يكون ذلك وقد سجد العقل للآيات التي أعجزته حتى تحقق صدقه ﴿ ﷺ وآله﴾ ؟ ! فلو أن الإنسان صدق الله تعالى ورسوله ﴿ﷺ وآله﴾ لانشرح صدره، وتجلت له براهين الصفات ودلائل معانيها بالقرآن الشريف كما تتجلى الشمس في السماء الصافية، وكان طريق الصحابة رضوان الله عنهم أن يتعلموا الإيمان قبل القرآن، كما قال سيدنا أبو هريرة ﷺ : كنا نتعلم الإيمان قبل القرآن.

ومعنى ذلك أنهم كانوا يتعلمون كيف يصدقون الله ورسوله تصديقا يجملهم الله به بالعلم اليقيني، علم البيان والبرهان بأدلة القرآن وآياته البرهانية التي هي عين اليقين لأهل الإحسان ، وحق يقين لأهل الإيقان، أسال الله تعالى أن يتفضل علينا بالإيمان الذي يشرح صدورنا لفهم القرآن.

وليس وراء تلك البراهين العلية ما تطمئن به القلوب، وتسكن به النفوس إلى منفسها سبحانه، وهل بعد الحق إلا الضلال ؟ حفظني الله وإخواني المؤمنين من البدع المضلة، والأهواء المضلة، ومن الالتفات عن كتاب الله تعالى الذي ورد من الله، وعن سنة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ التي هي الأمن في الدنيا والآخرة.

هذا كله لا يجعل حيا يظن أني أكره له تعليم العلوم الرياضية، التي ترتاض بها النفس وتتأهل للنظر في الكائنات نظر عبرة وفكرة، فإن تلك العلوم كلها طريق إلى مشاهدة آيات الله المنبلجة في الكائنات، لا طريق إلى تصور الجناب المقدس بصورة ما والحكم عليه بما تقتضيه تلك الصورة ، تنزه ربنا وتعالى علوا كبيرا عما يصفه الواصفون، وأشكر الله تعالى على ما من به من النور، وما تفضل به من الهدى، وأسأله سبحانه وتعالى أن يشرح صدرى وييسر أمري ويحلل عقدة من لسانى ليفقهوا قولى.وهذه الآيات التي أوردناها في مختصرنا هذا نور مبين لذى بصر يبصر، وسمع يسمع، وقلب يفقه،

قال تعالى : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ [1] رزقنا الله الهداية والنور، إنه مجيب الدعاء.

2_ القدم :

هو نفي سبق العدم على الوجود، وبعبارة أخرى : هو نفي الأولية للوجود ، أو : هو عدم الأولية، قال الله تعالى في ثبوت تلك الصفة لنفسه سبحانه : ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم﴾ [2] لم تكن تلك الصفة من الصفات التوقيفية وإن كانت وردت في بعض الأحاديث بطرق حسنة، وإطلاقها على الله سبحانه وتعالى من جهة مدلولها الذي بيناه لا حظر عليه عند العلماء، وقد أشرقت أنوارها جلية لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ [3] فمشيء الشؤون سبحانه لم يشأ أن يجعلها شؤونا تتغير وتتحول إلا ليقيم الحجة على العقول أنه أزلي أبدي، لا افتتاح لأوليته، ولا بداية لأزليته، حتى سجد العقل بعد إشراق أنوار البرهان على أزليته سبحانه وتعالى، واعتقد أن كل محدث كائن بقدرة قادر وحكمة حكيم، مشهود محسوس، وكل مستنبط من الغيب معقول محسوس ،وأن واجب الوجود وحده هو الأزلي الصمد، الواحد الأحد، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ بل هم في لبس من خلق جديد﴾ [4] ومن نظر بعين الإيمان إلى هذا الخلق الجديد لم يحصل له لبس، ولكنه يحصل له اليقين الحق أنه ممكن محدث، وأن محدثه واجب الوجود أزلي لا افتتاح لأوليته، قديم لا افتتاح لأزليته.

ومن تعلم الإيمان قبل القرآن كانت آيات القرآن بردا وسلاما عليه، ومعراجا لوصوله إلى حضرة القدس الأعلى. ومن تعلم القرآن قبل الإيمان اعتورته الشكوك والريب، ونهج مناهج البدع، وحكم بعقله المكسوف على من ليس كمثله شيء، ونظر بعيون رمداء وآذان صماء وقلوب مقفلة إلى تلك الآيات المنبلجة أنوارها، المشرقة أسرارها، قال الله تعالى : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ [5] وقال الله تعالى : ﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها

---

(1) سورة الأنعام آية 125 .
(2) سورة الحديد آية 3 .
(3) سورة الرحمن آية 29 .
(4) سورة ق آية 15 .
(5) سورة العنكبوت آية 43 .

وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ [(1)].

3 – البقاء :

هو صفة سلبية معبر بها عن سلب معنى لا يليق به تعالى، وهو عدم الآخرية.

وبعبارة أخرى : فهو نفي لحوق العدم للوجود، أو : هو نفي الآخرية، قال الله تعالى في بيان أنه باق لا آخر له سبحانه أبدى لا نهاية له : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ﴾ [(2)] وقال تعالى : ﴿ كل من عليها فان ۞ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والأكرام ﴾ [(3)] تلك المعانى التي يعبر عنها بالصفات السلبية لا يشك في إثباتها للجناب المقدس شاك مهما كان، ولو أنه من غير بنى الإنسان، فالبهيم الأعجم لو أننا أمكنا أن نفهم منه ويفهم منا، وسألناه عن إثبات تلك الصفات الكمالية لله تعالى، لأجابنا : هذا أمر بديهي، لا يسأل عنه حى يرزق، يحتاج في كل نفس إلى معونة من مبدع الكون ومن بيده الإيجاد والإمداد سبحانه وتعالى.

ومن اعتور قلبه الشك والريب فأظلم أفق قلبه عن مكاشفة تلك الآيات الجلية، والأنوار الساطعة والأسرار المجلوة، لا يقع به العلم على عين اليقين، بل يهوى به الوهم في مكان سحيق، والله سبحانه وتعالى أسأل أن يجعل لنا نورا نمشي به في الناس، نشهد به آياته في الآفاق وفى أنفسنا حتى يتبين لنا أنه الحق، إنه مجيب الدعاء.

4 _ مخالفته تعالى للحوادث :

هي نفي المماثلة لها في الذات والصفات والأفعال، فلا يماثله تعالى شيء منها مطلقا ،وبعبارة أخرى أنه تعالى لا يماثل موجودا ولا يماثله موجود، ليس كمثله شيء. ولا هو مثل شيء، قال تعالى منزها جنابه العلي عن الشبيه والمثيل : ﴿ قل هو الله أحد ۞ الله الصمد ۞ لم يلد ولم يولد ۞ ولم يكن له كفوا أحد ﴾ [(4)] وقال تعالى أيضا في نفي المثلية وتنزيهه سبحانه عن الشبيه والمثيل : ﴿ ليس

(1) سورة البقرة آية 164 .
(2) سورة القصص آية 88 .
(3) سورة الرحمن آية 26 _ 27 .
(4) سورة الإخلاص .

كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ [1] وقال تعالى في نفى صفات الحوادث عنه تعالى : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم ﴾ [2] وقال الله تعالى في نفى المماثل وتنزيهه عن الصاحبة والولد : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ۞ لقد جئتم شيئا إدا ۞ تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ۞ أن دعوا للرحمن ولدا ۞ وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا ۞ إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا ۞ لقد أحصاهم وعدهم عدا ۞ وكلهم آتيه يوم القيامة فردا ﴾ [3] وقال تعالى في تنزيهه عن الخطأ والنسيان مما هو شأن الحوادث : ﴿ إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى۞ قال فمن ربكما يا موسى۞ قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى۞ قال فما بال القرون الأولى۞ قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ﴾[4] وقال في بيان أنه سبحانه مستغن عن كل من سواه وأن كل ما سواه مفتقر إليه :﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد ﴾ [5] كل تلك الآيات القرآنية برهانية للمؤهل لفهم البرهان وإقامة البرهان.

حقيقة بديهية :

إليك حقيقة من الحقائق بديهية : مبدع قوى قادر حكيم أعجز العقول عن أن تحيط علما بخواص ما أبدعه من الكائنات، فضلا عن نسبة ارتباط كل مرتبة من مراتب الوجود وأخرى، وفضلا عن مكاشفة أسرار الحكمة المنبلجة فيها من كيفية رفع السماء بلا عمد ترونها، وانتشار الكواكب في الجو الفسيح من غير أن يختل نظامها، أو تنحرف عن مدارها، أو تختلف نسبتها، وكيفية خلق الإبل وما بث على الأرض من دابة، وكيفية إنبات النبات وتصريف الرياح وتسخير السحاب وجري الأنهار، فضلاعن الآيات المنبلجة في غضون تلك الكيفيات، مما يشهد سر سريان القدرة والحكمة فكل كائن من الكائنات ،فضلا عن معاني التجليات التي هي كمالات مقتضى الأسماء والصفات ،فضلا عن

(1) سورة الشورى آية 11 .
(2) سورة البقرة آية 255 .
(3) سورة مريم آية 88 _95 .
(4) سورة طه آية 48 _52 .
(5) سورة فاطر آية 15 .

أنوار الأسماء والصفات عن تعلق الأسماء والصفات بالذات، فضلا عن كمالات الذات الأحدية، فإذا عجز العقل عن الخصوصيات المسخرة له في الكائنات لنيل كمالاته، ومما يتنعم به في دنياه وينتفع به في حياته، فكيف يدرك العقل كمالات الذات ؟ أو يحكم أن لها نظيرا أو مثيلا تمثل به أو تشبه به ؟ تنزهت وتعالت علوا كبيرا.

وكل حي من بني الإنسان ــ ولو كان ناقص العقل ــ لايشك في أن ممد الكون بالإيجاد والإمداد لا يماثل شيئا منه أو يشبهه، تعالى الله علوا كبيرا، قال تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ [1]. أسأله سبحانه وتعالى أن يواجهنا بأنواره مواجهة تسكن بها نفوسنا إلى جنابه العلي، وتطمئن بها قلوبنا بذكره، ويعيننا به سبحانه حتى نكون من الذاكرين الفاكرين الحاضرين في معيته سبحانه وتعالى، حتى لا نتيه في مهاوي الأهواء والضلال وتحجبنا الأوهام عن الآيات الجلية، إنه مجيب الدعاء.

5– قيامه تعالى بنفسه :

معناه سلب افتقاره إلى شيء من الأشياء تنزه وتعالى، فلا يفتقر سبحانه إلى ذات سوى ذاته، يوجد فيها كما توجد الصفة في الموصوف، وهو الغني عن كل من سواه، المغني لكل من عداه، والله تنزهت ذاته، وتقدست صفاته، ذات موصوفة بجميع صفات الكمال والجمال والجلال، وليس جل وعز صفة تحتاج في ظهورها إلى القيام بالغير، كما زعم النصارى الذين قادهم الشيطان فقالوا : إن الله مركب من ثلاثة أقانيم، أقنوم الوجود ويعبرون عنه بالآب، وأقنوم العلم ويعبرون عنه بالابن، وأقنوم الحياة ويعبرون عنه بروح القدس، ويعنون بالأقنوم الصفة، والصفة لا تقوم بنفسها، ويقولون : إن أقنوم العلم الذي هو جزء الإله انتقل لجسد سيدنا عيسى عليه السلام وامتزج به فاتحد اللاهوت [2] بالناسوت [3]. وما أبلد هؤلاء حيث ادعوا أن العلم إله ،والوجود إله، والحياة إله، ثم صار مجموع الأقانيم الثلاثة إلها واحد !!!.

---

(1) سورة الزمر آية 67 .
(2) اللاهوت : الروح .
(3) الناسوت : الجسم .

وهنا يحسن بي أن أذكر ما ورد : بعد أن رفع سيدنا عيسى عليه السلام إلى السماء، خاف أصحابه من اليهود فاختفوا منهم، فجاءهم إبليس – لعنة الله عليه – فقال لهم :ماذا تقولون في المسيح ؟ فقالوا : نقول عنه : إنه رسول الله أرسله الله يبين لنا ما اختلفنا فيه، ويهدينا الله به إلى الحق، فقال الشيطان لعنة الله عليه : أني سائلكم فأجيبوني، فقالوا : من أنت ؟ فقال : أني رجل آمنت بالمسيح وصدقت به فقال لهم : الذي خلق آدم من الطين ماذا يكون ؟ قالوا : إلها، قال : والذي يجعل الأكمه بصيرا ماذا يكون ؟ قالو : إلها، قال : والذي يحي ويميت ماذا يكون ؟ قالوا : إلها، قال : والذي يشفي من الأمراض ماذا يكون ؟ قالوا : إلها، قال : فالمسيح فعل كل ذلك فهو إله.

فصدقه أكثرهم، وكان الحزن على المسيح والشوق إليه شديدين، وانزعج بعضهم لما يعلمه من اعتراف المسيح بأنه عبد، ومن تنزيهه للجناب العلي.

فخشي إبليس لعنة الله عليه أن يتأثروا بمن أنكر منهم فيخيب في سعيه، فقال لمن انزعجوا : ماذا تقولون في المسيح ؟ هل الإنسان الذي خلق من الطين طيرا ونفخ فيه فصار حيا يمكنه أن يفعل ذلك بإنسانيته ؟ ولم يفعل ذلك إلا الإله سبحانه الذي خلق آدم من الطين ونفخ فيه، فماذا تقولون أنتم في المسيح ؟ أنا أقول: إن المسيح حل فيه الإله، فصدقه بعض المنزعجين وقالوا: حل فيه الإله.

وأنكر رجل منهم كان مؤمنا فقال له إبليس: هذه الأعمال لا يعملها إلا الإله،والمسيح لا أب له، إذا فأبوه الله.

فأضلهم لعنة الله عليه، فصار بعضهم يقول: هو الإله، وبعضهم يقول: حل فيه الإله، وبعضهم يقول : هو ابن الله.

وتنزه مبدع الكون الذي وسع كرسيه السموات والأرض، أن يحيط بعظمته وكبريائه وجلاله عرش أو كرسي، فضلا عن جسد إنسان يحيط به الثوب من المنسوج القطني.

ولو أن الإنسان نظر نظرة بعقل صحيح من أمراض التقليد والتعصب للآباء لوقع به العلم على عين اليقين، واهتدى إلى تنزيه الحق سبحانه وتعالى عن أن يجعل له نظيرا أو مثيلا أو والدا أو ولدا، تعالى الله علوا كبيرا، ولا نجلت له الحقيقة بأجلى مظاهرها وتحقق أن الجناب المقدس غني بذاته

عن الاحتياج إلى المكان والزمان المخصص، قائم بذاته سبحانه وتعالى قياما لا يعلمه غيره سبحانه، من لا يعلم قدره غيره، ولا يبلغ الواصفون صفته.

اللهم أني أشهدك أني آمنت بالصفات كما وردت، وكما وضحتها في كتابك سبحانك، وبينها حبيبك ورسولك ﴿ ﷺ وآله﴾، اللهم أني أسألك أن تحفظني من الشرك الخفي، ومن كل ضلال وغي، إنك مجيب الدعاء.

6- الوحدانية:

هي نفي الكمية المتصلة والمنفصلة، ونفي الشريك في الأفعال عموما، أو بعبارة أخرى: هي عدم التعدد في الذات والصفات والأفعال، فالله سبحانه وتعالى واحد في ذاته، واحد في صفاته، واحد في أفعاله، قال الله تعالى مشيرا إلى تفرده سبحانه في الذات وعدم الشريك والمعين له سبحانه:﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ [1].

وقال تعالى في بيان وحدانيته وتفرده سبحانه بالإيجاد مستدلا على ذلك بمصنوعاته ومخلوقاته: ﴿ أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون ۞أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً إله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ۞أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون ۞أمن يهديكم في ظلمات البرو البحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون ۞أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾[2].

وقال تعالى في بيان وحدانيته تعالى في الذات والصفات والأفعال: ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا۞ الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا۞ واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا﴾[3] وقال جل ثناؤه في بيان وحدانيته

---

(1) سورة الأنبياء آية 22.
(2) سورة النمل آية 60 - 64 .
(3) سورة الفرقان آية 1 - 3 .

وصمدا نيته تعالى ونفى كونه والدا أو مولودا وتنزيهه عن المكافىء والمماثل: ﴿ قل هو الله أحد۞الله الصمد۞ لم يلد ولم يولد۞ولم يكن له كفوا أحد ﴾ [1] وقال جل وعلا في نفى اتخاذه الولد والشريك وإقامة الدليل على ذلك: ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون ﴾[2] وقال جل شأنه ردا على بطلان دعوى من يقول بوجود آلهة غير الله تعالى:﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا ۞سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ﴾ [3] وقال تعالى في عدم فلاح من أشرك مع الله تعالى غيره في العبادة : ﴿ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ﴾ [4].

هذه الدلائل نور مشرق، يمحق ظلمات الأوهام، وظلال الخيال الحاجبة عن مشاهد غيب الوحدانية عن القلوب المطمئنة بذكر الله تعالى، والنفوس الساكنة إلى الله تعالى، ونار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة فتحرق رجس الشرك الخفي ورجز الشكوك والريب، حتى تستعد النفوس للفلاح والفوز بمشاهدة أنوار وحدة واجب الوجود سبحانه، ومشاهدة أسرار حقيقته في الذات والصفات والأفعال ، حتى يتجمل العبد بحق يقين أهل لا حول ولا قوة إلا بالله، ويكون من أهل عين يقين من شهدوا ملكوت ربهم في السموات والأرض، بقدر ما تفضل الله به على المسلمين من سر قوله تعالى : ﴿ ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل ﴾[5] ونور قوله تعالى : ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين ﴾ [6] وليست الحيرة في دلائل الوحدانية لأنها جلية ناصعة بينة، وإنما حيرة المؤمن ودهشته في غرائب كمالات القدرة، وعجائب جمالات الحكمة، ومعانى صفات الربوبية.

التوحيد هو رأس المال :

(1) سورة الإخلاص .
(2) سورة المؤمنون آية 91 .
(3) سورة الإسراء آية 42 ـ 43.
(4) سورة المؤمنون آية 117 .
(5) سورة الحج آية 78 .
(6) سورة الأنعام آية 75 .

رأس المال في الحقيقة إنما هو التوحيد، ومن لم يستنر قلبه بنور التوحيد حقا ؛ ويتطهر من كل شوائب الشك والريب، والحكم على الحق بما تقتضيه أحوال الخلق ؛ كان قلبه خربا من أنوار التوحيد مؤهلا لنفثات الشيطان الرجيم، ومتى أشرقت شمس التوحيد في أفق لطائف القلب شهدت عين القلب أسرار ما في السموات والأرض، وشهدت ملكوت الرب سبحانه، وحكمة النبوات، وشهدت سر فضل القضاء ،والجنة والنار، قال الله تعالى : ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون ﴾ [1] وقال سبحانه : ﴿كلا لو تعلمون علم اليقين ۞ لترون الجحيم ۞ ثم لترونها عين اليقين ﴾ [2].

كل تلك المشاهد العلية والمكاشفات الملكوتية نتيجة من نتائج نور التوحيد المشرق على القلب، وآية من آيات التنزيه المبينة لسبل الله تعالى، ومتى تجمل القلب بنور التوحيد أشرقت أنوار الحكمة والمعرفة على الجوارح المجترحة والأعضاء العاملة، فنطق اللسان بالحكمة العالية، وشهدت عيون الرؤوس الآيات المنبلجة في الآثار، وصغت أذنا الرأس إلى نغمات تسبيح الأكوان، وشم الأنف شذا عبير نسيم الآيات، وبسطت اليدان بالعمل في طاعة الله، وثبتت القدمان في مواطن البأس، إحياء لكلمة الله سبحانه وتجديد سنة رسول الله ﷺ، وحفظت البطن من أن يصل إليها ما حرم الله تعالى، وحفظ الفرج من معصية الله، فكان نور التوحيد في القلب حصنا حصينا من الوقوع في معصيته، وتلقى القلب بنور التوحيد عن الله ما به يكون هاديا مهديا راضيا مرضيا.

هذه بعض نتائج التوحيد عن عين اليقين، فإذا بلغ التوحيد حق اليقين لا تفى العبارة بشرح حالة المتحقق بهذا المقام، وكيف تفي العبارة ببيان أحوال من رفع الله قدرهم، وقربهم منه سبحانه قربا حتى طوى سره عن العقول ؟ قال تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ [3].

---

(1) سورة الزمر آية 69 .
(2) سورة التكاثر آية 5 – 7 .
(3) سورة السجدة آية 17 .

ذنوب من كمل التوحيد في قلوبهم :

ولا تجد مسلما كمل التوحيد في قلبه يعمل صغائر الذنوب . فضلا عن كبائرها وإن وقعت منهم الذنوب فإنما تحصل منهم لا لأنها ذنوب قاموا بها مخالفة للحق، وإنما تحصل منهم لتأويل تأولوه اجتهادا منهم معتقدين أن عملهم هذا هو الحق، فيقعون في المعصية من حيث لا يعلمون أنها معصية، فإذا تذكروا أبصروا خطأهم فتابوا إلى الله، وأنابوا إليه مسلمين، فقبل الله توبتهم، وإلا فهم ليسوا بمعصومين من الخطايا، ومن هنا تفهم سر معصية أبينا آدم عليه السلام، فإنه ما ارتكب المعصية إلا متأولا مجتهدا فغفر الله له وقبله، ولكن معصية إبليس كانت عن قصد، والمؤمن لا يقع في معصية الله إلا متأولا أو فاقدا الإدراك، لأن كمال التوحيد يقتضي شهود الحق سبحانه، قال سبحانه وتعالى : ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ﴾ [1] فالتصديق بهذه الآية الشريفة يؤدي إلى العلم بأسرارها، والعلم بأسرارها يؤدي إلى مشاهدة أنوارها، ومشاهدة أنوارها حصن الله وحفظه لعبده، قال تعالى : ﴿ أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ [2].

ميزان التوحيد :

إنما يوزن الرجال بميزان التوحيد، فمن رأيته متساهلا في دينه فاعلم أنه لم يبلغ من التوحيد درجة يحفظه الله بها، قال تعالى : ﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾ [3] وقال تعالى : ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ [4] هذا ما يمكن أن يسطر في مثل هذا المختصر ترويحا لأرواح الواصلين، وريحانا لنفوس السالكين، وزجرا لأهل الغواية المدعين، والله سبحانه وتعالى أسأل أن يمنحنا اليقين حتى نكون على كمال التوحيد والتنزيه والتجريد، إنه مجيب الدعاء، وصلى الله على سيدنا مُحَّد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(1) سورة المجادلة آية 7 .
(2) سورة الأنعام آية 82 .
(3) سورة العنكبوت آية 2 .
(4) سورة محمد آية 31 .

تقديس الجناب المقدس عما لا يليق به سبحانه :

الله ﷻ وتقدست ذاته وصفاته وأسماؤه، واحد لا شريك له، فرد لا مثل له، صمد لا ضد له، متوحد لا ند له، وأنه قديم لا أول له، أزلى لا بداية له، مستمر الوجود لا آخر له، أبدى لا نهاية له، قيوم لا انقطاع له، دائم لا انصرام له، لم يزل ولا يزال موصوفا بنعوت الجلال، لا يقضى عليه بالانقضاء والانفصال بتصرم الآماد وانقراض الآجال، بل هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم، وأنه تعالى ليس بجسم مصور، ولا جوهر محدود مقدر، وأنه لا يماثل الأجسام لا في التقدير ولا في قبول الانقسام، وأنه تعالى ليس بجوهر ولا تحله الجواهر، ولا بعرض ولا تحله الأعراض، بل لا يماثل موجودا، ولا يماثله موجود، وليس كمثله شيء ولا هو مثل شيء.

وأنه تعالى لا يحده المقدار، ولا تحويه الأقطار، ولا تحيط به الجهات، ولا تكتنفه السموات، وأنه مستو على العرش على الوجه الذي قاله، وبالمعنى الذي أراده، استواء منزها عن المماسة والاستقرار والتمكن والتحول والانتقال، لا يحمله العرش، بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته، ومقهورون في قبضته، وهو فوق العرش وفوق كل شيء إلى تخوم الثرى، فوقية لا تزيده قربا إلى العرش والسماء، بل هو رفيع الدرجات على العرش كما أنه رفيع الدرجات على الثرى، وهو مع ذلك قريب من كل موجود ،وهو أقرب إلى العبيد من حبل الوريد، وهو على كل شيء شهيد، إذ لا يماثل قربه قرب الأجسام.

وأنه تعالى لا يحل في شيء، ولا يحل فيه شيء، تعالى عن أن يحويه مكان، كما تقدس عن أن يحده زمان، بل كان قبل أن خلق الزمان والمكان، وهو الآن على ما عليه كان، وأنه تعالى بائن بصفاته من خلقه ،ليس في ذاته سواه، ولا في سواه شيء من ذاته. وأنه تعالى مقدس عن التغيير والانتقال، لا تحله الحوادث، ولا تعتريه العوارض، بل لا يزال في نعوت جلاله منزها عن الزوال. وأنه تعالى في ذاته معلوم الوجود بالعقول، مرئي بالأبصار نعمة منه ولطفا بالأبرار في دار القرار، وإتماما للنعيم بالنظر إلى الوجه الكريم.

هذا ما يمكن أن يسطر على صفحات الأوراق مما يقرب للعقول فهمه، وتطمئن به القلوب، وترتاح له النفوس، وما وراء ذلك من شهود عين اليقين ومكاشفات حق اليقين لا تفى به عبارات أهل التعبير، ولا إشارات أولياء الله المقربين، لأنه من غوامض أسرار عجائب القدرة وغرائب الحكمة، وغيب كمالات الذات الأحدية، وجمالات صفاتها العلية، وجلال أسمائها المقدسة الصمدية.

ومن سبقت له الحسنى من الله تعالى لحظته عين العناية فعمل بما علم، فإذا عمل بما علم ورثه الله من غوامض تلك الأسرار علم ما لم يعلم، قال سيدنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام :)إن في صدرى هذا لعلوما لو أبحت بها لقطع منى هذا الحلقوم) وقال سيدنا أبو هريرة ﷺ : (ملأت من رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ جرابين بثثت فيكم أحدهما ولو بثثت الآخر لقطعتم ما بين كتفي) وأسرار الغيب المصون حظر أن تباح إلا للأرواح، أو تكشف إلا لمن زكت نفسه، قال الله تعالى : ﴿ ونفس وما سواها۞ فألهمها فجورها وتقواها ۞ قد أفلح من زكاها ﴾ (1).

أهل الملكوت :

والمريد المخلص الصادق إذا تجمل بمعاني ما وضحت، وصدق الله ورسوله والأسرار التي بينت، كان مؤهلا لشهود الأنوار التي لا تتجلى في الملك لمن وقفوا عنده، ولكنها تلوح لأهل الملكوت، وأهل الملكوت قليلون، قال الله تعالى : ﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين ﴾ (2) وقال تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ وقال تعالى : ﴿ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ (3) وقال تعالى ﴿ هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور ﴾ (4) فمن سبقت له الحسنى بفضل الله تعالى أخرجه الله سبحانه من كون الفساد أو الظلمة إلى فسيح الملكوت الأعلى، فشهد من عجائب القدرة وغرائب الحكمة ما ينجذب به قلبه إلى حضرة القدس الأعلى، ويفر إلى الله سبحانه، قال تعالى : ﴿ ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين ﴾ (5).

ومن قصر به العزم عن أن يذوق حلاوة العقيدة كما وضحت، وحجبت عنه الأسرار، ورأى غيره قد من الله سبحانه عليه بمشاهد تلك الأنوار حتى تبين له الحق، فعليه أن يجاهد نفسه في ذات الله تعالى حتى يكاشف بأسرار هذا الكون من أنوار المكون سبحانه، ولأهل هذا المشهد علامات جمعها الله في كتابه العزيز، قال تعالى : ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله﴾ (6) وقال تعالى : ﴿ إنما المؤمنون

(1) سورة الشمس آية 7- 9 .
(2) سورة الأنعام آية 75 .
(3) سورة العنكبوت آية 69 .
(4) سورة البقرة آية 257 .
(5) سورة الذاريات آية 50.
(6) سورة البقرة آية 115 .

الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون۞ الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم قينفون ۞أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ [1]. وقد بينت جملا في الطريقة المستقيمة ووضحت ما ينبغي أن يكون السالك عليه الراغب في نوال فضل الله الأكبر في كتاب : (معارج المقربين)، وألمعت فيه إلى تزكية النفوس ومعرفة أمراضها، وطريق إعادة الصحة لها وحفظها عليها، فمن مالت نفسه أن يكون من أهل هذا المشهد العلي فليتعلم، وليجاهد نفسه عاملا بسنة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، قال ﴿ ﷺ وآله﴾ (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم) [2] والله سبحانه أسأل أن يجعل لنا نورا نمشي به في الناس يستبين لنا به الحق إنه مجيب الدعاء.

صفات المعاني السبعة :

هي : القدرة، والحياة، والعلم، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام.

1. القـدرة :

هي صفة قديمة يوجد الله بها ما يشاء أن يوجده، ويعدم بها ما يشاء أن يعدمه وفق إرادته، قال تعالى في بيان آثار قدرته تعالى في مخلوقاته : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ۞ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ۞ تبصرة وذكرى لكل عبد منيب۞ ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ۞والنخل باسقات لها طلع نضيد۞ رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ﴾ [3] وقال جل وعلا في إثبات كمال قدرته تعالى وعجز ما سواه وأنه مستحق للعبادة دون سواه : ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب۞ ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز﴾ [4] وقال جلت قدرته في بيان كمال قدرته بما أودعه في عالم المخلوقات من أرض وسماوات وإحياء ونبات وفلك وأفلاك وليل ونهار ورياح وسحاب من العبر والآيات :﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل

---

(1) سورة الأنفال آية 2 - 4 .
(2) رواه أبو نعيم عن أنس ، ورواه الغزالي في الإحياء في باب آفات العلم ج 1 ص 71 .
(3) سورة ق آية 6 - 11.
(4) سورة الحج آية 73 - 74 .

والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دآبة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾[1] وقال تعالى في بيان كمال قدرته وتمام عظمته: ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون ﴾ [2].

وقال جل شأنه في بيان كمال قدرته وعجز من سواه وفيه الرد على منكري البعث :﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير﴾ [3] وقال تعالى : ﴿ ألم نجعل الأرض مهادا ۞والجبال أوتادا۞ وخلقناكم أزواجا ۞وجعلنا نومكم سباتا۞ وجعلنا الليل لباسا۞ وجعلنا النهار معاشا۞ وبنينا فوقكم سبعا شداد ۞ وجعلنا سراجا وهاجا ۞وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ۞ لنخرج به حبا ونباتا۞ وجنات ألفافا ﴾ [4] وقال تعالى في بيان كمال قدرته وخلقه الإنسان من الماء : ﴿ وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا ﴾[5]وقال تعالى في بيان قدرته وأنه إذا أراد فعل أي شيء لا يمكن غيره أن يعارضه أو يمانعه : ﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير۞ وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير﴾ [6].

هذه الآيات نور مشرق على قلوب جملها الله بعيون البصيرة شهدت عجائب القدرة وغرائب تصريفها في الكائنات، فاستبان به للبصائر غيب القدرة، فانجذب العبد المتجمل بعيون البصيرة إلى جناب القدس الأعلى فارا من جانبه، وتحقق كمال اضراره واحتياجه إلى القادر سبحانه وتعالى، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، تحققا جعله عدما في عين نفسه، موجودا بقادر حكيم، وأن الكون وما فيه سر من أسرار قدرة الله تعالى، وفيض عميم من فضل قدرته تنزه وتعالى.

---

(1) سورة البقرة آية164 .
(2) سورة الأنعام آية 65 .
(3) سورة الأحقاف آية 33 .
(4) سورة النبأ آية 6 ـ 16 .
(5) سورة الفرقان آية 54.
(6) سورة الأنعام آية 17-18.

شهد المؤمن من تلك الآيات العلية التي رفعت له الستارة عما انطوى في هذا الكون الفسيح من أسرار الرب الفريد، فتحقق كمال التحقيق بوحدانية الله ذاتا وصفة وفعلا، وقد تشرق عليه من وراء حجب الكائنات أنوار سريان القدرة، حتى قد يقوى هذا النور فيجعله لا يشهد شيئا من الموجودات إلا ويذوق حلاوة الإيمان بوحدانية الله ذاتا وصفة وفعلا، وقد يقوى هذا النور فتنبعث أشعته على الكائنات فتحجب الكون وما فيه عن عين المشاهد، فلا يرى إلا قدرة قادر مريد، فيغيب عن نفسه وحسه وعن كونه، وهو المجذوب إلى حضرة القدس بسابقية الحسنى، وهو الناقص في عين العارف لغيبته عن شهود الحكمة وتدبيرها، حتى إذا أشرقت عليه أنوار الحكمة أثبت ما أثبت الحق فشهد المرتبتين بنور اليقين، رتبة ممكن الوجود من الكون وما فيه، ورتبة واجب الوجود سبحانه، فيكمل كمالا يجعله عبدا صرفا لا يغيب عن معية الله تعالى، ولا يغيب الله سبحانه عنه، فلا تقوى أنوار القدس عليه فتحجب الخلق عن عين رأسه، ولا الكائنات المحسوسة فتحجب أنوار الحق عن عين بصيرته، وهو الفرد الكامل المشاهد للحضرتين بالحضرتين.

فوق الأنوار أسرار :

ووراء تلك الأنوار أنوار، وفوق تلك الأنوار أسرار لا ينبغي للعارف أن يسطرها في الأوراق، وفيما أشرنا إليه كفاية لأولى الألباب، وإنما هي غوامض أسرار القدرة، وخفي غرائب الحكمة لا تشهد بعين البصيرة، ولا تكاشف بعيون السريرة، وإنما هي أنوار تواجه الروح التي هي نفخة الرحمن، قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (كن مع الله تر الله معك). وقال الله تعالى : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾[1] وليست تلك الأسرار . وإن خفيت . والأنوار . وإن غمضت . بشيء يذكر في جانب ما وراء ذلك من أنوار الكمالات الذاتية، وغيب غوامض مجلى الذات الأحدية ﴿ والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ [2] ومن حرم العيون التي تشهد آيات القدرة في الكائنات فهو بهيم وأضل، يتمنى يوم القيامة أن يكون ترابا، أعوذ بالله من العمى في هذه الدار الدنيا، وقال تعالى : ﴿ ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا﴾ [3] أسأله سبحانه أن يجعل لنا نورا نمشي به في الناس إنه مجيب الدعاء، وأن يهدينا الله وإياك يأخي صراطه المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

---

(1) سورة النحل آية 128 .
(2) سورة البقرة آية 105 .
(3) سورة الإسراء آية 72 .

2. الحياة :

الحياة هي صفة قديمة ذاتية لله عز وجل، قال تعالى في إثبات صفة الحياة له عزوجل : ﴿ هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين﴾ [1] وقال تعالى في إثبات أنه حي لا يموت : ﴿ وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا﴾ [2].

تفصيل ذلك أنه تعالى حي قادر، جبار قاهر، لا يعتريه قصور ولا عجز، ولا تأخذه سنة ولا نوم، ولا يعارضه فناء ولا موت، وأنه ذو الملك والملكوت، والعزة والجبروت، له القدرة والسلطان والقهر، والخلق والأمر، والسموات مطويات بيمينه، والخلائق مقهورون في قبضته، وأنه المنفرد بالخلق والاختراع، المتوحد بالإيجاد والإبداع، خلق الخلق وأعمالهم، وقدر أرزاقهم وآجالهم، لا يشذ عن قبضته مقدور ،ولا يعزب عن قدرته تصاريف الأمور، لا تحصى مقدراته، ولا تنتهي معلوماته..أنوار تلك الآيات جلية لأن مفيض الحياة على هذا الكون يفيضها فضلا منه سبحانه وكرما، لا لحاجة إليها لغناه المطلق سبحانه عن كل من سواه، وافتقار كل من عداه إليه سبحانه، برهان حق على أن مفيض الحياة هو الحي القيوم، وممد هذا الوجود الممكن بالحياة حي أبدي أزلي، إذ حياة كل رتبة من المراتب بقدرها، فالحياة الممكنة مقيدة بالنسبة لما قامت به ومن قامت به، ومفيض الحياة وممد الكائنات حياته ليس كمثلها شيء، وإنما جعلت الكائنات لتشرق أنوار الحي القيوم على القلوب، فتشهد عيون السر أن ممد الكون بالحياة حي حياة لا تتصورها الخيالات، ولا تدركها عيون البصائر ،ولا تحيط بكنهها الأرواح الطاهرة الملكية.

وصفات الله سبحانه وتعالى تعلم لنا بقدر ما نشهد من معناها المتجلي لا بقدر ما هي عليه في نفس الأمر، إذ ذلك لا يعلمه إلا الله تعالى، وما على المؤمن الكامل إلا أن يقول : آمنت بمعاني الصفات كما وردت.

وإذا كان كلام الله الذي نتلوه ليلا ونهارا لا يعلم تأويله إلا الله سبحانه وقد تعبدنا به سبحانه وتعالى، فكيف يمكن لعيون السريرة ـ وإن أشرقت بكمال التوحيد ـ أو لعيون الروح ـ وإن واجهت وجه

---

(1) سورة غافر آية 65 .
(2) سورة الفرقان آية 58 .

العلي الكريم . أن تدرك معنى من الصفات و قد قال تعالى : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله﴾ [1] وهو كلام متلو مقروء، وقال تعالى مخبرا عن أحبابه المقربين : ﴿ والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ [2] فاللهم أشهد أني بحول منك وقوة عقدت قلبي على أنك حي أبدي بما أشهدتني من فيض الحياة التي تفضلت بها علي وعلى كل موجود، وأني أعتقد حق الاعتقاد أن صفاتك سبحانك لا يعلمها علما حقيقيا على ما هي عليه في نفس الأمر إلا أنت سبحانك، وأعوذ بك اللهم من غفلة تجعلني أبحث بقوة فكري أو بعيون سري عن دليل يثبت صفة من صفاتك، بعد أن أثبت ذلك بكلامك المقدس، وأظهرت لعيون السر من آثار قدرتك ومعاني تجليات صفاتك، فأعني اللهم على العمل بما علمتني لينكشف لي علم ما لم أعلم، أنك مجيب الدعاء.

3. العلم :

هو صفة توجب تمييزا لا يحتمل النقيض، قال تعالى في إثبات العلم له سبحانه و لو بأخفى الخفيات حتى بما يهجس على خاطر الإنسان وتوسوس به نفسه : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ [3] وقال تعالى في بيان كمال علمه بدلالة الخلق عليه: ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور۞ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ [4] وقال تعالى في بيان أنه سبحانه عالم بكل شيء في السماء والأرض حتى الحديث الذي يسره المرء لأخيه: ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ﴾ [5] وقال تعالى في ذكر أنه سبحانه عالم بالإنسان في حال كونه جنينا في بطن أمه وفى حال نشئه: ﴿ هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ [6].

(1) سورة آل عمران آية 7 .
(2) سورة آل عمران آية 7 .
(3) سورة ق آية 16.
(4) سورة الملك آية 13 - 14 .
(5) سورة المجادلة آية 7 .
(6) سورة النجم آية 32 .

تفصيل ذلك أن الله سبحانه وتعالى عالم بجميع المعلومات، محيط بما يجري في تخوم الأرضين إلى أعلى السماوات، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ،بل يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ويدرك حركة الذر في جو الهواء، ويعلم السر وأخفى، ويطلع على هواجس الضمائر وحركات الخواطر وخفيات السرائر، بعلم قديم أزلي لم يزل موصوفا به في أزل الآزال، لا بعلم متجدد حاصل في ذاته بالتحول والانتقال.

أنوار صفة العلم :

إذا لاحظت عين العناية الإلهية عبدا فوقعت به عين اليقين على معنى صفة العلم الإلهي ؛ وتمثل تلك الصفة المنزهة بمعنى ما من معانيها التي تليق بكمالاتها ؛كان العبد المشاهد تلك المعاني في معية ربه حاضرا لا يغيب، متجملا بجمال أهل المراقبة، وكيف لا ؟! والمؤمن الذي يعتقد أن الله يعلم السر وأخفى يسارع إلى أن يعمل ما يرضي ربه عنه الذي يعلمه في كل حال من أحواله، ويتباعد عن معاصيه وعن مواطن سخطه ومقته لأنه يعلم أنه يعلمه ويراه، ويكره أن يراه ربه سبحانه حيث يكره أن يراه في مواطن مخالفة أمره ومعصيته كما يكره أن يقذف به في نار جهنم، وإن جهنم أخف على المؤمن المتمكن من معصية الله تعالى، وكيف لا؟! وهو عند المعصية إذا تحقق بأن الله يراه فيها ويعلم به فيها يشعر بأنه استهان بربه فخالف أمره، وهو يعلم قدر عظمة ربه وقدر موجبات غضبه وسخطه، فالمؤمن يتمنى أن يكون في نار جهنم ولا يقع في معصية الله ومخالفة أمره، لأن غضب الله وسخطه أشد عليه من عذاب جهنم، والجاهل بهذا المقام لا يخاف مقام ربه ولكن يخاف عذاب ربه، فقد يقع في المخالفة لنسيان يوم الحساب، قال تعالى : ﴿ إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾ [1] وقال تعالى : ﴿ وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾ [2].

فمن كان خوفه من المنتقم القهار الكبير المتعال، كان في حصون الأمن من الوقوع في المخالفة، ومن كان خوفه من عذاب النار والحرمان من الملاذ والشهوات قد ينسى . لما ينال من ملاذ الدنيا وزهرتها الفانية . نعيم الآخرة، فيقع في المخالفات وينسى العقوبات حتى يلقى في هوة النار، نعوذ بالله من جهل مقام ربنا ومن نسيان يوم الحساب.

---

(1) سورة ص آية 26 .

(2) سورة الجاثية آية 34 .

نتج من هذا أن الموقن بصفة العلم لله القادر، المتحقق بأن الله يعلم سره ونجواه ،ويعلم ما توسوس به نفسه، ويعلم أنه معه حيث كان وكيف كان، لا يتعدى حدود الله، ولا يعمل ما يخالف سنن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، واللص لا يسرق المتاع إلا إذا غاب صاحبه، والرجل لا يأتي زوجته أمام ابنها حياء منه، فكيف يعمل المؤمن المعصية مع علمه بأن الله معه ويعلم سره ونجواه ولا يخاف جلاله ولا يخشى عظمته وكبرياءه ؟!. فالمرتكب المعصية نسى يوم الحساب، وجهل معنى صفة العلم لله، أعوذ بالله من جهل يوقع في معصية الله، ومن نسيان يلقي صاحبه في هوة النار يوم القيامة، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يشهدني أنوار صفة العلم حتى لا تحجب عين بصيرتي عن شهوده معي سبحانه، فأكون مراقبا لجلاله، حاضرا معه سبحانه، حييا منه سبحانه، راهبا عظمته، راغبا في فضله العظيم.

4. الإرادة :

هي صفة قديمة تخصص الممكن بالوجود أو بالعدم، وبالطول أو القصر، وبالحسن أو القبيح، وبالعلم أو الجهل، إلى غير ذلك من الشؤون والأحوال، قال جل ذكره سبحانه في بيان أنه تعالى مالك الملك يتصرف في ملكه كيف يشاء وفق ما أراد وقدر : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ۞ تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب ﴾[1].

وقال تعالى في بيان أنه فاعل مختار يتصرف بقدرته البالغة حد النهاية ما شاء و كيف شاء : ﴿ لقد كفر الذين قآلوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير ﴾ [2].

وقال تعالى في بيان أنه حكيم في صنعه يفعل بحكمته واختياره ما تقتضيه إرادته ومشيئته حسبما تقضي به المصلحة : ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير ﴾ [3].

وقال جل ثناؤه في بيان كمال إرادته وعظيم قدرته : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون۞ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون﴾[4]. وقال تعالى في بيان أنه فاعل مختار يفعل ما يشاء أن يفعله بمقتضى إرادته ومشيئته : ﴿ لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور ۞أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه

---

(1) سورة آل عمران آية 26 - 27 .

(2) سورة المائدة آية 17 .

(3) سورة الشورى آية 27 .

(4) سورة يس آية 82 - 83 .

عليم قدير﴾ [1] وقال سبحانه وتعالى في بيان أنه فاعل مختار : ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون ﴾ [2] وقال جلت قدرته في بيان أن خلقة الإنسان وتصويره في الرحم على صورة متنوعة و أشكال متباينة إنما هو بمحض إرادته ومشيئته : ﴿ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾[3].

وقال سبحانه في كمال تنزيهه عن الولد، وكمال اختياره: ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار﴾ [4].

وقال جل شأنه في بيان أن الهداية والضلال إنما هما بمحض إرادته ومشيئته: ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ۞ وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون﴾ [5].

وقال تبارك اسمه في بيان أنه إذا تعلقت إرادته تعالى بإهلاك قوم سلط عليهم أنفسهم بالفسق ومخالفته تعالى فيما أمر به ونهى عنه : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ﴾ [6].

تفصيل ذلك أن الله تعالى مريد للكائنات، مدبر للحادثات، فلا يجري في الملك والملكوت قليل ولا كثير، ولا صغير ولا كبير، خير أو شر، نفع أو ضر، إيمان أو كفر، عرفان أو نكر، فوز أو

(1) سورة الشورى آية 49 - 50 .

(2) سورة القصص آية 68 .

(3) سورة آل عمران آية 6 .

(4) سورة الزمر آية 4 .

(5) سورة الأنعام آية 125 - 126 .

(6) سورة الإسراء آية 16 .

خسر، زيادة أو نقصان، طاعة أو عصيان إلا بقضائه وقدره، وحكمه ومشيئته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا يخرج عن مشيئته لفتة ناظر ولا فلتة خاطر، بل هو المبديء المعيد، الفعال لما يريد، لا راد لحكمه، ولا معقب لقضائه، ولا مهرب لعبد عن معصيته إلا بتوفيقه ورحمته، ولا قوة له على طاعته إلا بمعونته وإرادته، لو اجتمع الإنس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا في العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته ومشيئته عجزوا عن ذلك، وأن إرادته قائمة بذاته في جملة صفاته، لم يزل كذلك موصوفا بها، مريدا في أزله لوجود الأشياء في أوقاتها التي قدرها، فوجدت في أوقاتها كما أراد في أزله من غير تقدم ولا تأخر، بل وقعت على وفق علمه وإرادته من غير تبدل ولا تغير، دبر الأمور بلا ترتيب أفكار، وتربص زمان، فلذلك لا يشغله شأن عن شأن.

كمال اليقين بمعاني إرادة الله :

المؤمن المتحقق بأنوار صفة إرادة الله تعالى متجمل بحلة الرضا عن الله سبحانه لاعتقاده أن كل الأمور والشؤون والأحوال بإرادته سبحانه وبتقديره أزلا، فيكون منشرح الصدر بمواقع القضاء، راضيا عن الله في كل شأن من شؤونه، مقبلا على الله بكليته وبذلك يفوز برضوان الله الأكبر، فإن رضا العبد عن الله فضل من الله عظيم ينبيء عن رضاء الله عن العبد، قال تعالى : ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ [1]. وليس المراد من اليقين بإثبات الإرادة لله أن يكون المؤمن عالما بالأشكال المنتجة، ولكن ليكون المؤمن مطمئنا بقضاء الله وقدره، راضيا عن الله في كل شؤونه، راغبا فيما عند الله من الفضل العظيم، خائفا مما قدر أزلا مما لم يكاشف به، فيكون ممن أثنى الله سبحانه عليهم في كتابه العزيز بقوله تعالى : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ [2].

وليس العلم الذي يجعل الألسنة زلقة بإقامة الحجة، ويجعل القلوب مفعمة بحب الجدل والمناظرة والعناد علما عند العلماء بالله تعالى، ولكنه جهل، لأن العلم عندهم هو الذي يوجب الخشية من الله تعالى، والمراقبة لجنابه عز و جل، والحضور معه سبحانه.

---

(1) سورة البينة آية 8 .

(2) سورة فاطر آية 28 .

ومن يتناول عن طهور العلم بالإرادة حقا لا يشهد في الوجود فاعلا مختارا غير الله تعالى، وتمنعه الخشية من الله سبحانه أن يسيء الظن به سبحانه، أو يعترض عليه في قضائه وقدره، ولا يكون عدم الرضا إلا من الجهلاء الذين يظنون أنهم علماء وليسوا علماء، فإن الله حصر العلم في خشيته لا في شقشقة اللسان والجدل والمناظرة، دليل ذلك قوله تعالى : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ فعالم عند الناس لا يخشى الله هو جاهل عند الله، ولو أنه كان عالما حقيقة لما احتجب عن معاني الصفات المخوفة للعلماء العارفين، ولما غاب عن مشاهدة عظمة وكبرياء وجلال الله، غيبة تجعله يعصى الله تعالى بعلمه وقد وصف الله العلماء في كتابه العزيز، وأثنى عليهم، وجعلهم هم الأحياء وغيرهم أمواتا، قال تعالى : ﴿ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ [1] وقال تعالى : ﴿ ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمرمنهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾ [2] فبين سبحانه وتعالى أن أولى الأمر فينا هم العلماء الذين يستنبطون من كتاب الله عز وجل، وهم أهل الخشية الذين أمرنا الله بطاعته والاقتداء بهديهم.

وأنت يأأخي إذا تحققت أن مولاك الذي خلقك مريد فاعل مختار، لا يكون شيء إلا بإرادته وتدبيره، كيف تغضب أو تعترض عليه سبحانه ؟ أسأل الله تعالى أن يجملنا بكمال اليقين بمعاني إرادته وجميع صفاته التي وردت عنه سبحانه، إنه مجيب الدعاء

5، 6 . السمع والبصر :

السمع هو صفة قديمة تنكشف بها المسموعات، ولكن لا بأذن وصماخ، تعالى الله عن صفة الحوادث علوا كبيرا.

كما أن البصر هو صفة قديمة تنكشف بها المبصرات، ولكن لا بعين ولا حدقة ولا جارحة ولا غير ذلك فإن ذلك من صفات الحوادث المنزه عنها الله تعالى.

---

(1) سورة الزمر آية 9 .

(2) سورة النساء آية 83 .

قالى تعالى في صفة السمع لنفسه : ﴿ اذهبا إلى فرعون إنه طغى۞ فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى۞ قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ۞ قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى﴾[1] وقال تعالى : ﴿ أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون﴾[2] وقال تعالى في ثبوت صفة البصر لنفسه تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ [3] وقال تعالى : ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾[4] تفصيل ذلك أن الله سبحانه وتعالى سميع بصير، يسمع ويرى، لا يعزب عن سمعه مسموع وإن خفى، ولا يغيب عن رؤيته مرئي وإن دق، ولا يحجب سمعه بعد، ولايدفع رؤيته ظلام، يرى من غير حدقة ولا أجفان، ويسمع من غير أصمخة ولا آذان، كما يعلم من غير قلب، ويبطش بغير جارحة، ويخلق بغير آلة ،إذ لاتشبه صفاته صفات الخلق، كما تشبه ذاته ذات الخلق.

من ذاق حلاوة الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى سميع بصير، وتصور معنى السمع والبصر بالتنزيه الذي يليق بالجناب العلي، وتحقق العجز عن إدراكهما لعلو صفات الحق سبحانه وتعالى عن أن يكون لها مثيل تمثل به، أو نظير تشبه به، أو كيف تكيف به، تعالى الله علوا كبيرا ؛ من تحقق بكل تلك الحقائق امتلأ قلبه خشية من السميع لكلام نفسه في نفسه، البصير بجولان الهم والخواطر بقلبه، فكان كأنه على صراط أدق من الشعرة وأحد من السيف، لو مال قدر الشعرة هوى في مكان سحيق، وراقب السميع البصير مراقبة من يعلم قدر عقوبة الجبار المنتقم شديد البطش ممن خالف أمره أو فعل ما نهاه عنه، فيكون تصديقه بإثبات الصفات لجنابه العلي كما علم، يوجب الخشية من الجلال الإلهي، ويجمل العالم بمراقبة الله تعالى ومحاسبة نفسه على الخاطر الذي يخطر على القلوب، واللمة التي تلم بها بل وعلى النفس الواحد وطرفة العين.

---

(1) سورة طه آية 43 - 46 .

(2) سورة الزخرف آية 80 .

(3) سورة الشورى آية 11 .

(4) سورة الأنعام آية 103 .

وكلما قرب العبد من الله كلما اشتد خوفه من عظمته وجلاله، وكلما انكشفت له أسرار معاني الصفات كلها كانت خشيته أشد ورهبته أقوى، وتمثلت له الجحيم بما فيها من أنواع العذاب وآلام العقوبات، فيكون وهو مع الناس يمشي على الأرض مشاهدا للملكوت الأعلى، ناظرا إلى نعيم الجنة وأنواع الملاذ التي لا توصف فيها، وإلى جحيم النار وآلام العذاب الذي لا يطاق، فيكون كما قال الله تعالى : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ۞والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما ﴾إلى قوله : ﴿ وكان الله غفوررحيما ﴾ [1] وقوله تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون ۞ الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ إلى قوله : ﴿ هم فيها خالدون ﴾ [2].. وهذه الصفات التي أثنى الله بها على المؤمنين هي ولا شك صفات من كمل علمه بكمال الصفات، فاطمأن قلبه بذكر الله تعالى، قال تعالى : ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ [3].

أسأل الله أن يمنحني وأهلي وأولادي وإخواني مشاهد أهل مقام الإحسان، ويمنحنا درجات القرب ومشاهد الحب، قال الله تعالى : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ [4] إنه مجيب الدعاء.

7 . الكلام :

كلام الله تعالى القائم بذاته هو صفة أزلية ليس بحرف ولا صوت، ولا يقبل العدم وما في معناه من السكوت، ولا التبغيض ولا التقديم ولا التأخير، ثم هو مع وحدته دال أزلا وأبدا على جميع معلوماته التي لا نهاية لها، وهو الذي عبر عنه بالنظم المعجز المسمى أيضا بكلام الله تعالى، وهو معجزة رسول الله القائمة الدائمة.

---

(1) سورة الفرقان آية 63 ـ 70 .

(2) سورة المؤمنون آية 1 ـ 11 .

(3) سورة الرعد آية 28 .

(4) سورة المجادلة آية 11 .

والقرآن هو الدعوى والحجة، وكل نبي دعوته غير حجته، فكانت المعجزة في كل زمان تناسب أهله، فسيدنا موسى عليه السلام لما اشتهر في زمنه السحر وكثر، جعل الله معجزته انقلاب العصا ثعبانا يأكل غيره، وسيدنا عيسى عليه السلام لما كان في زمن كثر فيه الأطباء جعل الله معجزته إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، الأمر المعجز، وسيدنا مُحَمَّد ﷺ لما كثر في زمنه الفصحاء والبلغاء كانت معجزته القرآن المعجز لهم عن معارضته بالإتيان ولو بمثل أقصر سورة منه، قال تعالى في ثبوت تلك الصفة لنفسه سبحانه : ﴿ وكلم الله موسى تكليما ﴾ [1] وقال تعالى : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم﴾ [2].

وتفصيل ذلك أن الله ﷻ متكلم آمر، ناه، واعد، متوعد، بكلام أزلي قديم قائم بذاته، لا يشبه كلام الخلق كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق، فليس بصوت يحدث من تموج الهواء واصطكاك الأجرام، ولا حرف ينقطع بإطباق شفة أو تحريك لسان وأن القرآن والتوراة والإنجيل والزبور كتبه المنزلة على رسله عليهم الصلاة والسلام، وأن القرآن مقروء بالألسنة، مكتوب في المصاحف، محفوظ في القلوب، وأنه مع ذلك قديم قائم بذات الله تعالى، لا يقبل الانفصال والافتراق بالانتقال إلى القلوب والأوراق، وأن موسى عليه السلام سمع كلام الله بغير صوت ولا حرف، كما نرى ربنا سبحانه وتعالى إن شاء الله يوم القيام من غير جوهر ولا شكل ولا لون ولا عرض، وإذا كانت له هذه الصفات كان حيا عالما قادرا مريدا سميعا بصيرا متكلما, بالحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام، لا بمجرد الذات.

مزيد بيان في صفة الكلام لله سبحانه وتعالى :

الإيقان بإثبات صفة الكلام لله سبحانه متعين على كل مسلم لما بينا من الأدلة القرآنية، ولأمر آخر لا يتم إيمان المؤمن إلا به، وهو التصديق بكتب الله التي أنزلها على رسله التي جعلها الله تبيانا لكل شيء، وهدى ونورا وذكرى، بين بها سبحانه ما يجب أن تنعقد عليه القلوب، وما يجب أن يقوم به المسلم لله من العبادات وما يجب عليه لوالديه وأولاده وإخوانه المؤمنين ولأهل ذمة الله ورسوله

(1) سورة النساء آية 164 .

(2) سورة الشورى آية 51 .

﴿ ﷺ وآله﴾ وذمة المسلمين، وما يجب أن يكون عليه المسلم من الأخلاق، فإن إثبات صفة الكلام تجعل المسلم يتقبل أحكام كتاب الله بكمال الإيقان، ويسارع إلى العمل بما أمره الله وترك ما نهاه الله عنه، وليس على المسلم أن ينظر إلى صفة من صفات المعانى بعيون عقله التي تحكم نفسه ونظرائه وأشباهه، ولكن عليه أن يؤمن إيمانا لا يشوبه شك لشهوده حسا دلائل إثبات الصفات، وينزه صفات الله تعالى عن حد يحدها أو كيف يكيفها، تعالى الله عما يصفه الواصفون.

حتى إذا انعقد قلبه على اليقين الحق كاشفه الله بأنوار صفة الكلام، فيقرأ القرآن سامعا له من رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بخشوع وهيبة من الله تعالى، فيكون بين وجل من آيات الإنذار، ومزيد إيمان من الآيات الدالة على معاني صفات الله تعالى، ويتجمل بالتوكل على الله تعالى من الآيات الدالة على أنه الفاعل المختار الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فيكون التالي للقرآن مع المراقبة كأنه يسمع الكلام عن الله تعالى، بعد أن يستحضر أنه يسمعه عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾.

المبحث الثالث
من علوم القرآن[1]
تلاوة القرآن حق تلاوته :

ولما كان لابد لنا أن نبين ما لابد منه لمن يتلو القرآن حق تلاوته من الأصول التي تجعله ملاحظا لمعاني كلام الله تعالى حال التلاوة، فاهما ما لابد من فهمه للتالى المتأمل، حتى يكون أخي ممن يتلو كتاب الله حق تلاوته، فإن التالي إذا فهم معنى ما يتلوه من كتاب الله سارع إلى العمل بما فهمه مما مدحه الله ورغب فيه، وتباعد عما نهى عنه القرآن مما ذمه الله وكرهه، وبذلك يمكنه أن يفهم ما يتلوه ويفسر لغيره ويبين وجوه التأويل.

قال الإمام أبو طالب المكي ﷺ : فأما ظاهر الكلام فعلى معنيين عجيبين : وهو مجمل مختصر ومفصل مكرر، فإجماله واختصاره للبلاغة والإيجاز قال الله تعالى : ﴿ إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين ﴾ [2] ومكرره وتفصيله للإفهام والتذكار قال الله تعالى : ﴿ ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون﴾ [3]. وقال عز وجل في المبهم المجمل والتوحيد المفصل : ﴿الر﴾فهذه ثلاثة أسماء، الله لطيف رحيم، وقيل : هي حروف من اسم الرحمن، ثم أظهر السبب فقال : ﴿كتاب أحكمت آياته ﴾يعنى بالتوحيد ﴿ ثم فصلت ﴾أى : بالوعد والوعيد، ثم قال : ﴿ من لدن حكيم﴾ أى : للأحكام ﴿ خبير ﴾ أى : بالأحكام، خبير بالتفصيل للحلال والحرام ﴿ ألا تعبدوا إلا الله ﴾ هذا هو التوحيد الذي أحكمه ﴿ إنني لكم منه نذير وبشير ﴾ [4] هذا هو الوعد والوعيد الذي أعلمه.

---

(1) راجع كتاب : (قوت القلوب) للإمام أبي طالب المكي رضي الله عنه .

(2) سورة الأنبياء آية 106 .

(3) سورة القصص آية 51.

(4) سورة هود آية 1 - 2 .

المختصر للإيجاز :

فمن المختصر للإيجاز قوله تعالى : ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموابها ﴾ [1] ففى هذا مختصر ومحذوفان فالمضمر قوله : ﴿ مبصرة ﴾ المعنى : آية مبصرة فأضمر ومحذوفاه قوله : ﴿ فظلموا بها ﴾ المعنى : ظلموا أنفسهم بالتكذيب بها، فاختصرت كلمتان من كلمتين للإيجاز. ومثله قوله : ﴿ وهي خاوية على عروشها﴾ [2] الخواء : الخلاء، والعروش : السقوف وهي جمع عرش، فكيف تكون خاوية من العروش والعروش موجودة فيها ؟ فهذا من المختصر المحذوف، ومعناه : وهي خاوية من ثمرها أو من أهلها، واقعة على عروشها. ومثله قوله تعالى : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ [3] حذف الفعل وأقيم الاسم مقامه، فالمعنى فيه : ولكن البر من آمن بالله وبمثل هذا المعنى.

قوله عز وجل ﴿ وأشربوا في قلوبهم العجل ﴾ [4] أى : حب العجل، ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ أقتلت نفسا زكية بغير نفس ﴾ [5] ولم يذكر قتله، والمعنى : بغير نفس قتلها فحذف الفعل. ومثله : ﴿ أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض ﴾ [6] ضمر قوله :﴿ بغير نفس ﴾ قتلها أو بغير فساد في الأرض فاكتفى عنه بذكر غير الأولى. وكذلك قوله : ﴿ من في السماوات والأرض﴾ [7] معناه : ومن في الأرض. وكذلك قوله : ﴿ فما يكذبك بعد بالدين﴾ [8] متصل بقوله سبحانه :

(1) سورة الإسراء آية 59 .

(2) سورة الكهف آية 42 .

(3) سورة البقرة آية 177 .

(4) سورة البقرة آية 93 .

(5) سورة الكهف آية 74 .

(6) سورة المائدة آية 32 .

(7) سورة آل عمران آية 83 وسورة الأنبياء آية 19 .

(8) سورة التين آية 7 .

﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ [1] وفصل بينهما النعت والاستثناء، والمعنى : فما يكذبك بعد هذا البيان أيها الإنسان بالديانة، فأى شيء يحملك على التكذيب بأن تدين لله تعالى وهو أحكم الحاكمين.

المبدل المضمر :

ومن المبدل المضمر : ﴿ إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ﴾ [2] المعنى : ضعف عذاب الأحياء وضعف عذاب الموتى، فأضمر ذكر العذاب وأبدل الأحياء والموتى بذكر الحياة والممات، فأقام الوصف مقام الاسم، ويصلح أيضا أن يترك الوصف على لفظه ويضمر : أهل، فيكون ضعف عذاب أهل الحياة وضعف عذاب أهل الممات، كما أضمر : أهل، في ذكر القرية وذكر العير فقال : ﴿ واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها ﴾ [3] والمعنى : واسأل أهل القرية وأسأل أهل العير.

ومن هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ ثقلت في السموات والأرض ﴾ هو من المبدل المضمر، مبدله : ثقلت، ومعناه : خفيت، أبدل بدلالة المعنى عليه لأن الشيء إذا خفى علمه ثقل. وكذلك قوله : ﴿ في السموات ﴾ معناه : على، ومضمر : أهل، والمعنى : خفيت على أهل السموات وأهل الأرض ﴿ لا تأتيكم إلا بغتة ﴾ [4] يعنى فجأة.

ومنه قوله عز وجل : ﴿ تفتأ تذكر يوسف ﴾ [5] فيه مضمر ومحذوف، فمحذوفه : تزال، ومضمره : لا، التي هي جواب القسم، والمعنى : قالوا تالله لا تزال تفتؤ تذكر يوسف، فأضمرت لا وأبدلت تزال لقوله : ﴿ تفتؤ ﴾ وهي من مختصر الكلام وفصيحه وبليغه وهي لغة لبعض العرب، وفى

---

(1) سورة التين آية 4 .

(2) سورة الإسراء آية 75 .

(3) سورة يوسف آية 82 .

(4) سورة الأعراف آية 187 .

(5) سورة يوسف آية 85 .

القرآن من كل لغة. ومن هذا قوله عز وجل : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾ [1] وقوله سبحانه : ﴿ بدلوا نعمة الله كفرا ﴾ [2] معناه تجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون، وكذلك بدلوا شكر نعمة الله كفرا بها. ومثله : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها ﴾ [3]، ﴿ وكأين من قرية أمليت لها ﴾ [4] معناه : أهل القرية، مثل قوله : ﴿ والعير ﴾ المعنى : أهل العير، والعير هي الإبل المجهولة، وهذا الذي يسميه النحويون المجاز وهكذا قوله ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ [5] معناه : للطريقة التي هي أقوم. ومثل قوله عز وجل : ﴿ وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن ﴾ [6] أى : يقولوا الكلمة التي هي أحسن. ومثل هذا قوله : ﴿ ادفع بالتي هي أحسن ﴾ [7] السيئة : أي : بالكلمة أو بالفعلة التي هي أحسن، أو مثل قوله : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ [8] أى : الكلمة الحسنى، والوجه الآخر أن الحسنى اسم لا نعت ومعناه الجنة، وهكذا قوله : ﴿ على ملك سليمان ﴾ [9] أى : على عهد ملك سليمان، فأضمر قوله : عهد. ومثل قوله : ﴿ وآتنا ما وعدتنا على رسلك ﴾ [10] أى : على ألسنة رسلك، فأضمر ألسنة.

---

(1) سورة الواقعة آية 82 .

(2) سورة إبراهيم آية 28 .

(3) سورة الحج آية 45 .

(4) سورة الحج آية 48 .

(5) سورة الإسراء آية 9 .

(6) سورة الإسراء آية 53 .

(7) سورة فصلت آية 34.

(8) سورة الأنبياء آية 101 .

(9) سورة البقرة آية 102 .

(10) سورة آل عمران آية 194 .

المكنى المضمر :

ومن المكنى المضمر قوله تعالى. ﴿ وما أنسانيه إلا الشيطان ﴾ [1] أضمر الحوت وذكره واسم موسى للاختصار، والمعنى : وما أنسانى ذكر الحوت لك إلا الشيطان. ومثل قوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾[2] فكنى عنه ولم يتقدم له ذكر، وكذلك قوله : ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ [3] يعنى توارت الشمس بحجاب الليل، فكنى عنها ولم يجر لها ذكر.

المبدل المختصر :

ومن المبدل المختصر قوله عز وجل : ﴿ وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم ﴾ [4] معناه حملته العزة على الإثم، أى : حمله التعزز والأنفة على الإثم ولم يبال، فأخذته بمعنى : حملته، وبالإثم بمعنى : على الإثم. ومن هذا قوله : ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾[5] أى : لا تحمله سنة ولا نوم، لأن السنة تحمل العبد، أى : تذهب به عن التيقظ.

المنقول المنقلب :

ومن المنقول المنقلب قوله عز وجل : ﴿ يدعو لمن ضره أقرب من نفعه ﴾ [6] اللام في ﴿ لمن ﴾ منقولة، والمعنى يدعو من لضره أقرب من نفعه. ومثله : ﴿ لتنوء بالعصبة ﴾ [7] معناه لتنوء العصبة بها، أى: لتثقل بحملها لثقلها عليهم..

---

(1) سورة الكهف آية 63 .

(2) سورة القدر آية 1 .

(3) سورة ص آية 32 .

(4) سورة البقرة آية 206 .

(5) سورة البقرة آية 205.

(6) سورة الحج آية 13.

(7) سورة القصص آية 76 .

المضمر المختصر :

ومن المضمر المختصر أيضا قوله عز وجل : ﴿ ألا إن عادا كفروا ربهم ﴾ [1] ضميره إحدى كلمتين : كفروا نعمة ربهم، كفروا توحيد ربهم، فأضمر للاختصار وانتصاب الاسم لسقوط الخافض. وفيها وجه غريب إلا أنه محمول على المعنى أى : غطوا ربهم، التغطية أى : غطوا آياته وما دعا إليه من الحق، والمعنى : كفرهم غطى عليهم بما غطوا، هكذا حقيقة في التوحيد إذا الأولية في كل فعل منه وهم ثوان فيما بعد، فهو بمعنى قوله تعالى : ﴿ وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾ [2] اللبس : التغطية.

ومن المضمر قوله تعالى : ﴿ ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون ﴾ [3] ليس أنه يجعل من البشر ملائكة، ولكن معناه لجعلنا بدلا منكم ملائكة، ويصلح : لجعلنا، فبدلكم بمعنى : منكم.

المبدل منه :

ومن المبدل منه قوله عز وجل : ﴿ وهم لها سابقون ﴾ [4] اللام بدل من الباء، المعنى وهم بها سابقون، لأنهم لو سبقوها لفاتتهم، ومثله : ﴿ ولأصلبنكم في جذوع النخل ﴾ [5] معناه على جذوع، وكذلك : ﴿ فلا تجعلني في القوم الظالمين ﴾ [6] معناه أى : مع القوم الظالمين، وبمعناه : ﴿ أم لهم سلم يستمعون فيه ﴾ [7] أى : عليه ويصلح به، وكذلك قوله : ﴿ مستكبرين به ﴾ [1] أى : عنه،

---

(1) سورة هود آية 60 .

(2) سورة الأنعام آية 9 .

(3) سورة الزخرف آية 60 .

(4) سورة المؤمنون آية 61 .

(5) سورة طه آية 71 .

(6) سورة المؤمنون آية 94 .

(7) سورة الطور آية 38 .

يعني عن القرآن فعلى هذا مجاز، قوله تعالى : ﴿ فاسأل به خبيرا ﴾ [2] أى : سل عنه فحروف العوامل يقوم بعضها مقام بعض، ومثله قوله : ﴿ السماء منفطر به ﴾ [3] أى : فيه، يعني في اليوم، وبمعناه قوله تعالى : ﴿ ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ﴾ [4] أى : مع أموالكم، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وأيديكم إلى المرافق﴾ [5] أى : مع المرافق لأنها داخلة في الغسل، والحروف العوامل ينوب بعضها عن بعض، ولو أظهر مثل هذا المضمر ووصل مثل هذا المحذوف لكانت القراءة ضعيفة.

الموصول المكرر :

ومن الموصول المكرر للبيان والتوكيد قوله عز وجل : ﴿ وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن﴾[6]، قوله : ﴿ إن يتبعون ﴾ مردود رده للتوكيد والإفهام، كأنه لما طال الكلام أعيد ليقرب من الفهم، والمعنى : ما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إلا الظن، أى : اتباعهم الشركاء ظن منهم غير يقين، ونحوه من المكرر المؤكد : ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم ﴾ [7] اختصاره الذين استكبروا لمن آمن من الذين استضعفوا، فلما قدم الذين استضعفوا وكان المراد بعضهم كرر المراد بإعادة ذكر من آمن منهم للبيان.

---

(1) سورة المؤمنون آية 67 .

(2) سورة الفرقان آية 59 .

(3) سورة المزمل آية 18 .

(4) سورة النساء آية 2 .

(5) سورة المائدة آية 6 .

(6) سورة يونس آية 66 .

(7) سورة الأعراف آية 75 .

المكرر المؤكد :

ومن المكرر المؤكد قوله عز وجل : ﴿ فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشدمنهم قوة﴾ [1] فقوله تعالى : ﴿ كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشدمنهم قوة﴾ فوصل بمن ووكد بكانوا أشد، وقراءتها في مصحف ابن مسعود : عاقبة من قبلهم كانوا أشد قوة، ليس فيها ﴿ كانوا ﴾ ولا قوله : ﴿ هم ﴾. وبمعناه . وإن قصرا . قوله تعالى : ﴿ لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ﴾ [2] وهذا مما طال للبيان، والمعنى : لجعلنا لبيوت من يكفر بالرحمن، فلما قدم (من) وهي أسماء من يكفر، أعيد ذكر البيوت مؤخرا.

المكنى المبهم المشتبه :

ومن المكنى المبهم المشتبه قوله عز وجل : ﴿ ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء﴾ [3] الشيء في هذا الوضع الإنفاق مما رزق الله، وقوله تعالى بعده : ﴿ وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء ﴾ [4] الشيء في هذا الموضع الأمر بالعدل والاستقامة على الهدى، وكذلك قوله : ﴿ فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء ﴾ [5] الشيء في هذا الوضع وصف مخصوص من وصف الربوبية من العلم الذي علمه الخضر عليه السلام من لدنه لا يصلح أن يسأل عنه حتى يبتدىء به فلذلك كنى عنه.

وكذلك العلم على ضربتين : ضرب لا يصلح أن يبتدىء به حتى يسأل عنه، وهو مما لا يضيق علمه، فلذلك وسع جهله وحسن كتمه. وعلم لا ينبغي أن يسأل عنه من معنى صفات التوحيد

---

(1) سورة غافر آية 21 .

(2) سورة الزخرف آية 33 .

(3) سورة النحل آية 75 .

(4) سورة النحل آية 76 .

(5) سورة الكهف آية 70 .

ونعوت الوحدانية، لا يوكل إلى العقول، بل يخص بها المراد المحمول، فعلم الخضر الذي شرط على موسى عليهما السلام أن لا يسأل عنه حتى يبادئه به من هذا النوع، والله غالب على أمره.

وقوله عز وجل : ﴿ أم خلقوا من غير شيء ﴾ [1] يعنى الله أى : كيف يكون خلق من غير خالق ؟ ففى وجودهم ثبوت خالق فهم دلالة عليه أنه خلقهم، وروينا ذلك عن ابن عباس وعن زيد بن على رضي الله عنهما قالا في قوله عز وجل : ﴿ من غير شيء ﴾ أى : من غير رب، كيف يكون خلق من غير خالق ؟ وقوله عز وجل : ﴿ والله فضل بعضكم على بعض في الرزق ﴾ [2] فالبعض الأول المفضل في الرزق هم الأحرار والبعض الآخر المفضول هم المماليك، ومثله قوله تعالى ﴿ وقال قرينه هذا ما لدي عتيد ﴾ [3]قرينه هذا هو الملك الموكل بعلمه أحضر ما عنده مما علمه من فعله، وقوله عز وجل : ﴿ قال قرينه ربنا ما أطغيته ﴾ [4] قرينه هذا هو شيطانه المقرون به. ومثله قوله تعالى : ﴿ وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون ﴾ [5] الهاء والميم المتصلة ب(إخوان) أسماء الشياطين، والهاء والميم المتصلة ب (يمدون) أسماء المشركين، أى : الشياطين إخوان المشركين يمدون المشركين في الغى ولا يقصرون عنهم في الإمداد. وبمعنى هذا قوله تعالى : ﴿ إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾ [6] الهاء الأولى المتصلة ب (يتولون) كناية عن إبليس، والهاء المتصلة بالباء من قوله : ﴿ هم به ﴾ هي اسم الله عز وجل، وقد قيل أيضا : إنها عائدة على إبليس أيضا فيكون المعنى : هم به قد أشركوا في التوحيد، أى : أشركوا بعبادة الله عز وجل.

---

(1) سورة الطور آية 35 .

(2) سورة النحل آية 71 .

(3) سورة ق آية 23 .

(4) سورة ق آية 27 .

(5) سورة الأعراف آية 202 .

(6) سورة النحل آية 100 .

ومثل هذا قوله عز وجل : ﴿ فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا﴾ [1] الهاء الأولى كناية عن الحوافر، وهن الموريات قدحا يعنى الخيل تقدح بحوافرها فتورى النار، فأثرن به أى : بالحوافر النقع، يعنى التراب، والهاء الثانية كناية عن الإغارة، فوسطن أى توسطن به أى : بالإغارة، وهن المغيرات صبحا وسطن جمع المشركين أغاروا عليهم بجمعهم والمشركون فارون.

وبهذا المعنى قوله عز وجل : ﴿ فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات ﴾ [2] الهاء الأولى عائدة على السحاب أى : أنزلنا بالسحاب الماء، وفى قوله : (به) مبدل ومكنى، فالمكنى هو ما ذكرناه من أسماء السحاب، والمبدل أن به بمعنى منه، ومثل هذا قوله : ﴿ يشرب بها عباد الله ﴾ [3] أى : منها، وهو صريح قوله في المفسر : ﴿ وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ﴾[4] يعنى السحاب، وهو قوله : ﴿ سقناه لبلد ميت ﴾[5] وقوله في الهاء الثانية : ﴿ فأخرجنا به من كل الثمرات ﴾ يعنى بالماء، فجمع بين اسم السحاب والماء بالهاء فأشكل.

ومن البيان الثانى والثالث للخطاب المجمل قوله تعالى : ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾ [6]فلم يفهم منه إلا أن القرآن أنزل في شهر رمضان ولم يدر أنهارا أنزل فيه أم ليلا ؟ فقال في

---

(1) سورة العاديات آية 4 - 5 .

(2) سورة الأعراف آية 57 .

(3) سورة الإنسان آية 6 .

(4) سورة النبأ آية 14 .

(5) سورة الأعراف آية 57 .

(6) سورة البقرة آية 185 .

البيان الثانى : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ [1] فلم يفهم إلا أنه أنزل ليلا في ليلة مباركة، ولم يدر أى ليلة هي ؟ فقال في البيان الثالث : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ [2] فهذا غاية البيان.

الموحد ومعناه الجمع :

ومن الموحد ومعناه الجمع قوله تعالى : ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر ﴾ [3] أى : إن الناس لفي خسران، لقوله : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ [4] ولا يستثنى جماعة من واحد، وإنما يستثنى جماعة من جماعة أكثر منهم، وإنما وحد الاسم للجنس.

الجمع المراد به الواحد :

ومن الجمع المراد به الواحد قوله عز وجل : ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين﴾ [5] يعني نوح وحده لأنه لم يرسل لقوم نوح غيره، ودل عليه قوله تعالى : ﴿ إذ قال لهم أخوهم نوح ﴾ [6] فوحد الجمع.

---

(1) سورة الدخان آية 3 .

(2) سورة القدر آية 1 .

(3) سورة العصر آية 1-2 .

(4) سورة العصر آية 3 .

(5) سورة الشعراء آية 105 .

(6) سورة الشعراء آية 106 .

الجمع المكني :

ومن الجمع المكني قوله عز وجل : ﴿ لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ [1]يعين في هذا الموضع الدجال، ونزل ذلك في ذكر الدجال واستعظامهم لوصفه، والعرب تجمع الواحد للجنس.

المقدم والمؤخر والمعطوف وما حمل على المعنى :

ومن المقدم والمؤخر لحسن تأليف الكلم ومزيد البيان والإظهار، قوله عز وجل : ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا ﴾ [2] اختصاره ومؤخره من كفر بالله بعد إيمانه وشرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان، ﴿ولكن﴾ وكد بقوله ﴿ولكن من شرح بالكفر صدرا﴾ لما استثنى المكره وقلبه مطمئن بإيمانه، ولم يجعل المكره آخر الكلام لئلا يليه قوله : ﴿ فعليهم غضب من الله ﴾ [3] فيتوهم أنه خبره وجعل آخر الكلام : ﴿ فعليهم غضب من الله ﴾ وهو في المعنى مقدم خبر الأول من قوله : ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه ﴾ فأخر ليليه قوله تعالى : ﴿ ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ﴾ [4] لأنه من وصفهم فيكون هذا أحسن في تأليف الكلام وسياق المعنى.

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وقيله يارب إن هؤلاء قوم ﴾ [5] هذا من المعطوف المضمر ومن المقدم والمؤخر، فعاطفه قوله : ﴿ وعنده علم الساعة ﴾ [6] وضميره قوله وعلم قيله، والمعنى : وعنده

---

(1) سورة غافر آية 57 .

(2) سورة النحل آية 106 .

(3) سورة النحل آية 106 .

(4) سورة النحل آية 107 .

(5) سورة الزخرف آية 88 .

(6) سورة الزخرف آية 85 .

علم الساعة وعلم قيله يا رب، هذا على حرف من كسر اللام، فأما من نصبها فإنه مقدم أيضا ومحمول على أن المعنى أى : وعنده علم الساعة ويعلم قيله يا رب، فأما من رفع اللام فقرأ : وقيله، فتكون مستأنفة على الخبر وجوابها الفاء من قوله : ﴿ فاصفح عنهم﴾[1] أى: قوله : إن هؤلاء لا يؤمنون فاصفح عنهم. وقد تكون الواو في قوله : (وقيله) للجمع مضمومة إلى علم الساعة، والمعنى وعنده علم الساعة، وعنده قيله يارب جمع بينهما بـ (عند)، فهذا مجاز هذه المقاريء الثلاث في العربية.

ومما حمل على المعنى قوله عز وجل : ﴿ فالق الإصباح وجعل الليل سكنا ﴾ ثم قال : ﴿ والشمس والقمر حسبانا ﴾ [2] فلو لم يحمل على المعنى لكانت والشمس والقمر خفضا اتباعا للفظ قوله : (فالق) (وجاعل) ولكن معناه وجعل الشمس والقمر حسبانا وهي على قراءة من قرأ : ﴿ وجعل الليل سكنا ﴾ متبعة لـ (جعل) ظاهرا. وبمعناه قوله تعالى : ﴿ وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم ﴾ [3] في قراءة من نصب اللام محمولا على معنى الغسل من قوله عز وجل : ﴿ فاغسلوا وجوهكم ﴾ [4] وأرجلكم أيضا، ومن قرأ ﴿ وأرجلكم ﴾ خفضا حمله على اتباع الإعراب من قوله عز وجل : ﴿ برؤوسكم وأرجلكم ﴾ فأتبع الإعراب بالإعراب قبله، لأن مذهبه المسح لا الغسل.

واختيارنا نصب اللام في المقروء على نصب الغسل واتباع الوجه واليدين، إلا أنه روي عن ابن عباس وأنس بن مالك : نزل القرآن بغسلين ومسحين وسن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ غسل الأقدام، فنحن نفعل كما فعل.

وقوله عز وجل : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى ﴾ [5] من المقدم والمؤخر، فالمعنى فيه : ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما، وبه ارتفاع الأجل، ولولا

---

(1) سورة الزخرف آية 89 .

(2) سورة الأنعام آية 96 .

(3) سورة المائدة آية 6.

(4) سورة المائدة آية 6.

(5) سورة طه آية 129 .

ذلك لكان نصبا كاللزام، فأخر لتحسين اللفظ. وبمعناه قوله عز وجل : ﴿ يسألونك كأنك حفي عنها﴾ [1] المعنى يسئلونك عنها كأنك حفي بها أي : ضنين بعلمها، ومثله قوله تعالى : ﴿ أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾ [2] أي : نأت منها بخير، فقدم (بخير) وأخر (منها) فأشكل.. ومن المؤخر بعد توسط الكلام قوله عز وجل : ﴿ لتركبن طبقا عن طبق﴾ [3] في قراءة من وحد الفعل، هو متصل بقوله عز وجل : ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا﴾ [4] ﴿ لتركبن طبقا عن طبق﴾ أي : حالا بعد حال في البرزخ، فأخر الأحوال للقرار في الدار، وكذلك هو في قراءة من جمع فقال : لتركبن أيها الناس، فيكون الإنسان في معنى الناس كما ذكرناه آنفا،ويكون الجمع عطفا على المعنى، وإنما وحد للجنس فكأنه قال : يا أيها الناس لتركبن طبقا عن طبق، فأخر هذا الخبر لما توسطه من الكلام المتصل بالقصة ومعناه التقديم.

ومثل هذا قوله عز وجل : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان ﴾ وقوله : ﴿ إلا قليلا﴾[5] هو متصل بقوله : ﴿ لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾[6] إلا قليلا، وآخر الكلام ﴿ لاتبعتم الشيطان ﴾ وقد قيل : إن قوله : ﴿ إلا قليلا﴾مستثنى من الأول في قوله : ﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ﴾[7] إلا قليلا منهم، وفى هذا بعد، والأول أحب إلي. وعلى هذا المعنى قرأ ابن عباس في رواية عنه : ﴿ لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم﴾ [8]جعله

---

(1) سورة الأعراف آية 187 .

(2) سورة البقرة آية 106 .

(3) سورة الانشقاق آية 19 .

(4) سورة الانشقاق آية 6 .

(5) سورة النساء آية 83 .

(6) سورة النساء آية 83 .

(7) سورة النساء آية 83 .

(8) سورة النساء آية 148 .

متصلا بقوله تعالى : ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنت﴾[1] إلا من ظلم، وصار آخر الكلام : ﴿ لا يحب الله الجهر بالسوء من القول ﴾ فاصلا.

ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض﴾[2]وكذلك قوله في أول السورة : ﴿ لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم۞ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق﴾[3] ليس هذا من صلة الكلام، وإنما هو مقدم ومتصل في المعنى بقوله : ﴿ قل الأنفال لله والرسول ﴾ [4]، ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ﴾ أي: فصارت أنفال الغنائم لك إذ أنت راض بإخراجك وهم كارهون، فاعترض بينهما الأمر بالتقوى والإصلاح والوصف بحقيقة الإيمان والصلاح فأشكل فهمه. وعلى هذا قوله عز وجل : ﴿ حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ﴾ [5] إنما هو موصول بقوله تعالى : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه ﴾ [6]، ﴿ إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ﴾ لأنها نزلت في قولهم : فقد استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك عند قوله لأستغفرن لك ربي، فقالوا : فهلا نستغفر لآبائنا المشركين، فنزلت هذه الآية ليستثنى القدوة في إبراهيم في هذا، ثم نزلت الآية الأخرى معذرة له : ﴿ وعدها إياه ﴾ إلى أن علم موته على الكفر فقال : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأمنه ﴾ [7] وكذلك قوله عز وجل : ﴿ ورضيت لكم الإسلام دينا فمن اضطر في

(1) سورة النساء آية 147 .

(2) سورة الأنفال آية 73 .

(3) سورة الأنفال آية 4 - 5 .

(4) سورة الأنفال آية 1 .

(5) سورة الممتحنة آية 4.

(6) سورة الممتحنة آية 4.

(7) سورة الممتحنة آية 4.

مخمصة غير متجانف لإثم ﴾ [1] وهذا متصل بقوله : ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ﴾ [2] إلى آخر المحرمات، ثم قال : ﴿ فمن اضطر في مخمصة ﴾ يعني : في مجاعة.

نبهنا بيسير على كثير :

ومثل ما ذكرناه من علم القرآن كثير، وإنما نبهنا بيسير على كثير، ودللنا بنكت على جم غفير، ليستدل بما ذكرناه على نحوه، ويتطرق به إلى مثله، وهذا كله على ضروب كلام العرب، ومعاني استعمالهم، ووجوه استحسانهم أنه في كلامهم، المطول للبيان، والمختصر للحفظ، والمقدم والمؤخر للتحسين، وكله فصيح بليغ ، لأن وصف البلاغة عندهم رد الكثير المنثور إلى القليل المجمل، إلى المبثوث المفسر.

فالمقصر من الكلام عندهم مع الحاجة إلى المعاني المتفرقة عجز، والمطول منه مع الاكتفاء بالمعنى الجامع عنه عي، فلما خاطبهم بكلامهم أفهمهم بعقولهم ومستعملاتهم، ليحسن ذلك عندهم، فيكون حجة عليهم من حيث يعقلون، لأنه أمرهم بما يعملون وما يستحسنون حكمة منه ولطفا.

هذا مشهد العموم من أهل العلم بمحاسن كلام العرب، وعلى هذه المعاني يفهم الخصوص من مكانهم ومشهدهم على علو مقامهم في مكان ما أظهر لهم من العلم به، ونصيب ما قسم لهم من العقل عنه، فهم متفاوتون في الإشهاد والفهوم، حسب تفاوتهم في الأنصبة من العقول والعلوم، إذ القرآن عموم وخصوص ومحكم ومتشابه وظاهر وباطن، فعمومه لعموم الخلق، وخصوصه لخصوصهم، وظاهره لأهل الظاهر، وباطنه لأهل الباطن، والله واسع عليم ﴿ فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ﴾ [3].

---

(1) سورة التوبة آية 114 .

(2) سورة المائدة آية 3 .

(3) سورة البقرة آية 213 .

أهل الله وخاصته :

فإذا صفا القلب بنور اليقين، وأيد العقل بالتوفيق والتمكين، وتجرد الهم من التعلق بالخلق، وتأله السر بالعكوف على الخالق، وخلت النفس من الهوى، سرت الروح فجالت في الملكوت الأعلى، وكشف للقلب بنور اليقين الثاقب ملكوت العرش عن معاني صفات موصوف، وأحكام خلاق مألوف، وباطن أسماء معروف، وغرائب علم رحيم رءوف، فشهد عن الكشف أوصاف ما عرف، فقام حينئذ بشهادة ما عرف، فكان ممن قال فيهم سبحانه : ﴿ يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به﴾[1] فحق التلاوة للمؤمنين لأنه إذا أعطاه حقيقة من الإيمان أعطاه مثلها من معناه ومعدنها حقيقة من مشاهده، فكانت تلاوته عن مشاهدة، وكان مزيده عن معنى تلاوته، وكان ذلك على معيار حقيقة من إيمانه كما قال تعالى : ﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ﴾ [2] فيكون العبد بوصف من نعت بالحضور والإنذار، وخص بالمزيد والاستبشار في قوله عز وجل : ﴿ فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين ﴾ [3] وفى قوله عز وجل : ﴿ فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون ﴾ [4] ويكون من نعت من مدحه بالعلم وأثنى عليه بالرجاء ووصفه بالخوف في قوله تعالى : ﴿ يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ [5] وقال عز وجل : ﴿ يدعون ربهم

---

(1) سورة البقرة آية 121 .

(2) سورة الأنفال آية 2 .

(3) سورة الأحقاف آية 29 .

(4) سورة التوبة آية 124 .

(5) سورة الزمر آية 9 .

خوفا وطمعا ﴾ [1] فكان هذا من أهل الله وخاصته، ومن محبيه وخالصته، كما روينا عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (أهل ٱلقرآن أهل ٱلله وخاصته من خلقه) [2].

وقال ابن مسعود ﷺ : لا على أحدكم أن يسأل عن نفسه إلا القرآن فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله، وإن لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله وهذا كما قال، لأنك إذا أحببت متكلما أحببت كلامه، وإذا كرهته كرهت مقاله، وقال مُحَّد أبو سهل رحمه الله : من علامة الإيمان حب الله عز وجل، ومن علامة حب الله حب القرآن، ومن علامة حب القرآن حب النبي عليه الصلاة والسلام، وعلامة حب النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ اتباعه وعلامة اتباعه الزهد في الدنيا. وعن بعض العارفين : لا يكون المريد مريدا حتى يجد في القرآن ما يريد، ويعرف منه النقصان والمزيد، ويستغني بالمولى عن العبيد.

وأقل ما قيل في العلوم التي يحويها القرآن من ظواهر المعاني المجموعة فيه أربعة وعشرون ألف علم وثمانمائة علم، إذ لكل آية علوم أربعة : ظاهر وباطن وحد ومطلع، وقد يقال : يحوي سبعة وسبعين ألف علم ومائتين من العلوم، إذ لكل كلمة علم، وكل علم عن وصف، فكل كلمة تقتضي صفة، وكل صفة موجبة أفعالا حسنة وغيرها على معانيها، فسبحان الفتاح العليم.. وتماما للموضوع المتعلق بصفة الكلام أبين طرق الأئمة في تلاوة كلام الله المقدس.

معاملة العبد في التلاوة :

قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (أفضل عبادة أمتي قراءة ٱلقرآن) [3] وقال عليه الصلاة والسلام : (لو كان ٱلقرآن في إهاب ما مسته النار) [4] وقال عليه الصلاة والسلام : (ما من شافع

---

(1) سورة السجدة آية 16 .

(2) هذا جزء حديث أورده صاحب كشف الخفاء وتمامه : " إن لله أهلين من الناس، قالوا : يا رسول الله من هم ؟ قال : هم أهل القرآن أهل الله وخاصته " ورواه النسائي وابن ماجه وأحمد والدارمي عن أنس مرفوعا، وصححه الحاكم وقال : إنه روي من ثلاثة أوجه عن أنس كلها وهذا أمثلها .

(3) هذا الحديث أخرجه أبو نعيم في فضائل القرآن من حديث النعمان بن بشير وأنس .

(4) أخرجه الطبراني وابن حبان من حديث سهل بن سعد ، ورواه ابن عدي والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث عصمة بن مالك .

أفضل منزلة عند ٱلله يوم القيامة من ٱلقرآن لا نبي ولا ملك ولا غيره) [1] وقال عليه الصلاة والسلام : (يقول الله سبحانه وتعالى : من شغله قراءة القرآن عن دعائى ومسألتي أعطيته أفضل ثواب الشاكرين) [2] وعن ابن مسعود ﷺ : إن لهذا القرآن منارا كمنار الطريق فما عرفتم منه فاعملوا به، وما لم تعلموا فكلوه إلى عالمه.

أستحب للمريد أن يختم القرآن في كل أسبوع مرتين ختمة بالنهار وختمة بالليل، ويجعل ختمة النهار يوم الاثنين في ركعتي الفجر أو بعدهما، ويختم ختمة الليل ليلة الجمعة في ركعتى المغرب أو بعدهما، ليستقبل بختمته أول النهار وأول الليل فإن الملائكة تصلي عليه إن كانت ختمته ليلا حتى يصبح، وتصلى عليه إن كان ختمه نهارا حتى يمسى، فهذان الوقتان يستوعبان الليل والنهار. وفى الخبر : (لم يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث) وأمر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عبد الله بن عمر أن يقرأ القرآن في كل أسبوع، وكذلك جماعة من الصحابة يختمون القرآن في كل جمعة. وروينا عن يحي بن الحارث الأنصاري [3] عن القاسم بن عبد الرحمن [4] قال : كان سيدنا عثمان بن عفان ﷺ يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة، وليلة السبت بالأنعام إلى هود، وليلة الأحد بيوسف إلى مريم، وليلة الاثنين بطه إلى طسم موسى وفرعون، وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى ص، وليلة الأربعاء بتنزيل إلى الرحمن، ويختم ليلة الخميس، وكذلك كان زيد بن ثابت [5] وأبي [6] يختمان القرآن في كل سبع. وروينا عن ابن

---

(1) هذا الحديث رواه عبد المالك بن حبيب من رواية سعيد بن سليم مرسلا .

(2) هذا الحديث أخرجه الترمذي وقال : حسن غريب .

(3) هو التابعي الجليل : أبو سعيد يحي بن سعيد بن قيس الأنصاري المدني ، قاضي المدينة ، أجمعوا على توثيقه وجلالته ، وقال ابن سعد توفى سنة 143 هـ .

(4) هو أبو عبد الرحمن القاسم بن عبد الرحمن الشامي الدمشقي مولى خالد بن يزيد بن معاوية ، كان من فقهاء دمشق ، توفى سنة 112 هـ.

(5) هو الصحابى الجليل أبو سعيد زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصاري النجاري المدني، كاتب وحى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وكاتب المصحف، كان أحد الثلاثة الذين جمعوا المصحف، توفى سنة 54 هـ بالمدينة.

(6) هو أبي بن كعب بن قيس الأنصارى الخزرجي ، صحابي جليل ، توفى سنة 30 هـ بالمدينة .

مسعود أنه سبع القرآن في سبع ليال فكان يقرأ في كل ليلة سبعه. وجماعة يذكر عنهم ختم القرآن في كل يوم وليلة، وقد كره ختمه في أقل من ثلاث ليال طائفة، والتوسط من ذلك ما ذكرناه وهو أن يختم في كل سبعة أيام لمن يحتاج في فهمه إلى تفكير، وثلاث لمن كوشف بأسراره بلا تفكير، وإلا فالأولى أن يختم في كل عشر ليال.

وصف التالين للقرآن :

هذه الأصول التي ذكرت، بمراعاتها يحصل للتالى مزيد فضل من الله تعالى بفهم ما يتلوه، وبعد الفهم يبلغ التالي مبلغا حتى يعقل عن الله ما يشاء الله أن يحيطه به علما، قال الله تعالى : (ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والأرض ﴾ [1] ومن أحاطه الله علما بشيء من أسرار القرآن كان من أهل الله لأنه يكون تاليا للقرآن عاملا به في سره وعلنه فيما أحبه أو كرهه، وتالى القرآن العامل به من أهل القرآن، وأهل القرآن أهل الله، ومن وفقه الله وجعله من أهله كان ممن وصفهم الله تعالى في آخر الفتح وأثنى عليهم وبشرهم، والمريد المخلص يعرض أحواله على القرآن فما أقره القرآن داوم عليه، وما لم يقره القرآن تركه جملة واحدة، ومتى كثر أهل الله في الوجود الذين ينصرون الله تعالى بمجاهدة أنفسهم وقهرها على العمل بالقرآن نصرهم الله ومكن لهم في الأرض وأعزهم، قال الله تعالى : ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ [2] وقال سبحانه وتعالى : ﴿أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ [3] وقال تعالى : ﴿ ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ﴾ [4] أسأل الله سبحانه وتعالى أن يفهمنا أسرار القرآن، وأن يوفقنا للعمل بالقرآن، إنه مجيب الدعاء.

---

(1) سورة البقرة آية 255.

(2) سورة محمد آية 7 .

(3) سورة المجادلة آية 22 .

(4) سورة النساء آية 141 .

المبحث الرابع
في النبوات

تقدم الكلام على قسم النبوات في كتاب : (معارج المقربين) وبينا اختلاف المذاهب فيه، وعرفنا النبي والرسول والولي والملك وأنواع النفوس، وأقمنا الحجة على حقيقة مذاهب أهل السنة والجماعة ووجه احتياج الإنسان إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والحكمة المقتضية لبعثتهم عليهم الصلاة والسلام، بما أغنى عن تقرير هذا الموضوع في هذا المختصر، ومريد الله وطالب النجاة من الهول يوم الفزع الأكبر يجب عليه أن يحقق هذا الموضوع، حتى يأمن من استطراق الشكوك والريب إلى عقيدة التوحيد، وسهل عليه أن يراجعه في موضعه في كتاب : (معارج المقربين) ولما كان لابد من مزيد فائدة في مختصرنا هذا والتوضيح لأهل طريقنا أحببت أن لا أخلي مختصري هذا من فوائد، تكون جمالا للواصل، وعلما للسالك.

الإنسان إجمالا :

معلوم أن حكمة الحكيم القادر اقتضت أن يكون الإنسان عالما وسطا بين عوالم الملك والملكوت، فأبرزته القدرة كأنه صورة لجميع العوالم مع صغر حجمه، فالإنسان كون صغير، والكون كله إنسان كبير، فأودع الله سبحانه وتعالى فيه كل معاني الأنواع، فالإنسان جماد من حيث أنه من طينة ويميل إلى السكون والراحة، ونبات من حيث أنه يتغذى وينمو، وحيوان من حيث أنه يحس ويتحرك، وملك من حيث أنه يشهد الغيب بدلائل المشهود ولا يعصى الله ما أمره ويفعل ما أمره الله سبحانه به إذا صفا وتكمل، وإبليس إذا نزع إلى هواه ورأيه وحظه ونسى الحساب، وخليفة عن ربه إذا تجمل بأخلاق الربوبية.

الإنسان هو الكل في الكل – فسبحان القادر الحكيم – يبلغ بكمالاته النفسانية إلى أن يكون في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وينحط باتباع حظه وهواه إلى أن يكون في هاوية السخط والمقت ولظى الجحيم، وبينهما دركات أو درجات، قال الله تعالى في التنبيه بقدر الإنسان : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون۞ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا

له ساجدين﴾ [1]. وقال سبحانه وتعالى في بيان منزلة الإنسان العلية وما انحط إليه من البلية : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين ﴾[2] وقال الله تعالى في بيان أن الإنسان قد يكون شيطانا : ﴿ شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ﴾ [3].

فالإنسان وهو الهيكل الصغير الضعيف كما قال الله تعالى : ﴿ وخلق الإنسان ضعيفا ﴾ [4] وقال الله تعالى : ﴿ لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [5] جامع لكل حقائق الكائنات، يبلغ من المقامات في القرب من الله تعالى ما به يطيعه الله ويحببه، وينحط بالمعصية والمخالفة إلى أسفل الدركات حتى يتمنى أن يكون ترابا، هذا هو الإنسان إجمالا، وقد فصلنا طرفا من هذا الموضوع في كتاب : (النور المبين لعلوم اليقين) فليراجعه الراغب في العلم.

حكمة بالغة :

لما كان الإنسان هو صورة الكون أجمع، وهو المقصود بالذات من كل الكائنات، كان لابد له أن يعرف الله بقدر ما أهله الله لمعرفته لا بقدر الجناب المقدس، تنزه الله ذاتا وصفة واسما عن أن يدركه مخلوق، أو يعلمه حق العلم مربوب مقهور، وقد اقتضت الحكمة لكمال تنزيه الله ذاتا وصفة واسما عن الإدراك والتحديد والكيف والتشبيه، أن يجعل لكل رتبة من مراتب الوجود العاليات معلما مخلوقا مشهودا، يظهر سبحانه بهذا المخلوق ما لابد لأهل تلك الرتبة من العلم به سبحانه ومشاهدة آياته وأسمائه، فجعل سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام معلما للملائكة، وآية أشهدهم بها غرائب حكمة الحكيم، وعجائب قدرة القادر البديع، فسجد الملائكة كلهم أجمعون عندما علموا بسيدنا آدم عليه السلام، وشهدوا في آدم من بديع الحكمة وعجيب القدرة، فكان الملائكة الروحانيون – مع

---

(1) سورة الحجر آية 28 - 29 .

(2) سورة التين آية 4 - 5 .

(3) سورة الأنعام آية 112 .

(4) سورة النساء آية 28 .

(5) سورة غافر آية 57 .

طهارتهم من الشهوات والحظوظ والأهواء وعلوهم عن التدنس برذائل الشهوات – في حاجة إلى معلم يعلمهم ما يجب أن يعلموه، ونور يبين لهم ما لابد لهم أن يشهدوه.

حكمة بالغة، سرها مقتضى تنزيه الذات الأحدية وكمال تقديسها عن الإدراك والتحديد وكمال التشبيه، فكان سيدنا آدم عليه السلام وهو روحاني جسماني تخفى أنوار روحانيته بقيود جسمانيته، إظهارا لقدرة القادر الحكيم، ودلائل حق على كمال القدرة وجمال الحكمة، فلما كسفت ظلمات الجسم أنوار الروح هبط من درجات العلو إلى السفل، حتى أناب إلى الله تعالى بالتوبة التي تلقاها من ربه عز وجل، قال الله تعالى : ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾[1] ولما كانت طرق العلم : الخبر الصادق والحس الصحيح والعقل الكامل، معنى قوله تعالى : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾[2] فجعل سبحانه وتعالى الأسماع للخبر الصادق، والأبصار لشهود الأكوان الدالة على مكونها سبحانه، والقلوب لفقه الآيات الدالة على القادر الحكيم المصور البديع المنعم المتفضل المعطي الوهاب، ولمقتضى تلك الحكمة كان من فضل الله تعالى على الإنسان أن يدله عليه سبحانه، ويبين له سبله سبحانه، ويرشده لما فيه خيره وصلاحه في الدنيا والآخرة، وكانت سنة الله في خلقه أن يعلمهم ما لابد لهم منه من العلوم بمعلم مخلوق كما قدمنا.

الرسل أنوار تضيء لمن هداهم الله :

بعث الرسل عليهم الصلاة السلام معلمين لعباده مرشدين لخلقه، مبينين لسبله سبحانه بأعمالهم وأقوالهم وأحوالهم.

ولما كان تعليم الخلق لابد أن يكون بالقول والعمل والحال، اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون الرسول إنسانا مثلنا يعلمنا كيف نأكل ونشرب وننام ونبيع ونشتري ونعامل الناس، ويعمل أمامنا أنواع العبادات التي تقربنا لربنا سبحانه وتبعدنا عن كل ما يغضب ربنا، ويبين لنا وجوه الحكمة في كل مأمور

(1) سورة البقرة آية 37 .

(2) سورة النحل آية 78 .

به أو منهي عنه، وهي سنة الله الماضية وحكمته الدالة على فضله وإحسانه وكرمه، فكانت الرسل عليهم الصلاة والسلام أنوارا تضيء لمن هداهم الله سبحانه، ويقيمون الحجة على من أضلهم الله حتى تكون الحجة البالغة لله ﷻ، ويتجلى الحكم العدل بالحجة على الخلق، والمنعم الوهاب ذو الفضل العظيم بالإحسان والحنان لمن سبقت له الحسنى من عباده الذين هداهم الله واختارهم. حكمة عجزت الأرواح الطاهرة عن إدراك غوامضها، وسر سجدت العقول على أعتابه، لا يسأل عما يفعل سبحانه وتعالى وهم يسألون، وهو الحكم العدل، وهو ذو الفضل العظيم، وهو القهار المنتقم، وهو الغفور الرحيم، وهو القوي المتين، وهو اللطيف الخبير، سبحان من لا يعلم قدره غيره، ولا يبلغ الواصفون صفته، نحمده ونشكره على أن جعلنا من أمة حبيبه ومصطفاه ﴿ ﷺ وآله﴾، وأكرمنا سبحانه وتعالى بأن جعلنا خير أمة أخرجت للناس وجعلنا أمة وسطا، نسأله سبحانه وتعالى أن يمن علينا بأجمل مواهبه في الدنيا والآخرة، وأن يجعلني وأهلي وأولادي وإخواني المسلمين ممن يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

معرفة خاتم الأنبياء :

لما كان هذا المختصر إنما وضعته لأبين فيه أن الإسلام دين، وكان الواجب على المسلم أن يكون على بينة من معرفته خاتم الأنبياء وخاتم رسل الله عليهم الصلاة والسلام، والشفيع الأعظم يوم الهول الأعظم، والوسيلة العظمى لكل مخلوق من الملائكة والإنس والجن سيدنا ومولانا مُحَّد ﴿ ﷺ وآله﴾، اختصرت على أن أبين للمسلم ما يجب أن يعتقده بالنسبة لسيدنا ومولانا مُحَّد ﴿ ﷺ وآله﴾، وما يحسن أن يعلمه، وبذلك يكون قد آمن بكل رسل الله سبحانه، وصدق بكل كتب الله سبحانه، فأبتديء بنسبه الشريف ﴿ ﷺ وآله﴾.

نسبه الشريف ونشأته ﴿ ﷺ وآله﴾ :

هو سيدنا مُحَّد ﴿ ﷺ وآله﴾ بن عبد الله، بن عبد المطلب، بن هاشم، بن عبد مناف، بن قصى، بن حكيم (المشهور بكلاب) بن مرة، بن لؤي، بن غالب، بن فهر، بن مالك، بن النضر، بن كنانة، بن خزيمة، بن مدركه، بن إلياس، بن مضر، بن نزار، بن معد، بن عدنان.

ولد ﴿ ﷺ وآله﴾ بمكة يوم الاثنين (لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول عام الفيل) في عهد كسرى أنو شروان في 20 أبريل سنة 571 من ميلاد المسيح عليه السلام، فنشأ ﴿ ﷺ وآله﴾ يتيما فقيرا فآواه الله وأغناه بمصداق قوله تعالى : ﴿ ألم يجدك يتيما فآوى ۞ ووجدك ضالا فهدى ۞ ووجدك عائلا فأغنى ﴾ [1] وتولى سبحانه تربيته وتأديبه ﴿ ﷺ وآله﴾ بمصداق قوله ﴿ ﷺ وآله﴾ : ﴿ أدبني ربي فأحسن تأديبي ﴾ [2] فنشأ ﴿ ﷺ وآله﴾ على الأخلاق الفاضلة، والصفات الكاملة من العفة والمروءة والكرم والسخاء والشجاعة وحسن الخلق وصدق الحديث وحفظ الأمانة، والبعد عن الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال، إلى غير ذلك من سائر الكمالات والمزايا والفضائل، حتى صح أن يخاطبه الله تعالى بقوله سبحانك : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم﴾ [3] ولما بلغ ﴿ ﷺ وآله﴾ أربعين سنة أرسله الله تعالى للناس كافة بشيرا ونذيرا، قال الله تعالى له : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾ [4] وقال تعالى : ﴿ لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ﴾ [5]

دعوته ﷺ :

قام ﴿ ﷺ وآله﴾ يصدع بأمر ربه سبحانه وتعالى، ويدعو جميع الخلق إلى توحيد الله سبحانه وتعالى وتنزيهه جل وعلا، وتفريده سبحانه وحده بالعبادة لا شريك له، ويأمرهم ﴿ ﷺ وآله﴾ بما فيه خيرهم وصلاحهم، والفوز بالسعادة الدنيوية والأخروية، فمن ذلك اتحاد الكلمة وعدم التفرق، ونبذ التنازع والتباغض والتحاسد، وذلك في قوله تعالى : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا

---

(1) سورة الضحى آية 6 - 8 .

(2) هذا الحديث روي عن علي بن أبي طالب عليه السلام، وجزم به ابن الأثير في مقدمة النهاية، وقال ابن حجر : إنه غريب ولكن معناه صحيح .

(3) سورة القلم آية 4 .

(4) سورة النحل آية 125 .

(5) سورة يس آية 6 .

نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ﴾ [1] وقوله تعالى : ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ [2]

ومن ذلك بر الوالدين ومعاملتهما بالملاطفة والمجاملة والإحسان إليها وذلك في قوله تعالى : ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا﴾ [3] وصلة الرحم بالإحسان إليهما إن كانت من ذوى الفاقة، وإلا فبالتودد بالكلام، أو الزيارة، أو البدء بالسلام، أو بغير ذلك مما يجلب المودة ويزيد في المحبة، وذلك في قوله تعالى : ﴿ واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ﴾ [4] والتعاون على الخير وجلب المنفعة لأخيه المسلم ودفع الضرر عنه، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ [5]

وأداء الأمانة، وذلك في قوله جل وعلا : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾ [6] وإنجاز الوعد والوفاء بالعهد وذلك في قوله تعالى : ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا ﴾[7] وقوله تعالى : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم﴾ [8] والعفو وترك المجازاة على الذنب مع القدرة عليها، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة

---

(1) سورة آل عمران آية 103 .

(2) سورة الأنفال آية 46 .

(3) سورة النساء آية 36 .

(4) سورة النساء آية 1 .

(5) سورة المائدة آية 2 .

(6) سورة النساء آية 58 .

(7) سورة الإسراء آية 34 .

(8) سورة النحل آية 91 .

عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين۞ الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾ [1]

ومواساة الفقير والإحسان إليه ومساعدته بقدر الطاقة، وذلك في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد﴾ [2]

والسعي في الصلح بين الناس وإزالة البغضاء والشحناء فيما بينهم وذلك في قوله تعالى : ﴿ لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما ﴾ [3]

والعدل والإحسان، وذلك في قوله تعالى : ﴿ اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ [4]

والاقتصاد والتوسط في الأمور وعدم الإسراف فيها، وذلك في قوله جل شأنه : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾ [5].. والمسارعة إلى فعل الخيرات والمبادرة إلى انتهاز الفرصة قبل فواتها، وذلك بقوله تعالى : ﴿ فاستبقوا الخيرات﴾ [6] إلى غير ذلك من كل خصلة حميدة وصفة جميلة وينهاهم عن الكفر واتخاذ الشريك لله تعالى، وذلك في قوله تعالى : ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ﴾ [7] وقوله تعالى : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا

---

(1) سورة آل عمران آية 133 - 134 .

(2) سورة البقرة آية 267 .

(3) سورة النساء آية 114 .

(4) سورة المائدة آية 8 .

(5) سورة الفرقان آية 67 .

(6) سورة المائدة آية 148 .

(7) سورة النساء آية 36 .

﴾ [1] وعن الفسق وعصيان الله تعالى فيما أمر به أو نهى عنه، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وذروا ظاهر الإثم وباطنه إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون ﴾ [2] وقوله تعالى : ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ [3] وعن الرياء وهو العمل الذي يعمله الإنسان لأجل أن الناس يمدحونه ويثنون عليه خيرا وذلك في قوله تعالى : ﴿ ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ [4] أي : لا يرائي في عمله، وقوله تعالى : ﴿ فويل للمصلين۞الذين هم عن صلاتهم ساهون ۞الذين هم يراؤون﴾[5] وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ﴾ [6]وعن قتل النفس بغير حق وذلك في قوله تعالى : ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ﴾ [7] وعن الزنا بقوله تعالى : ﴿ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾[8]. وعن الكبر بقوله تعالى :﴿ ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا﴾ [9] وعن الربا وذلك في قوله تعالى : ﴿ وأحل الله البيع وحرم الربا ﴾ [10]. وعن شرب الخمر والقمار وذلك في قوله تعالى : ﴿ إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾ [11] وعن

---

(1) سورة الأنعام آية 151 .

(2) سورة الأنعام آية 120

(3) سورة الأنعام آية 151 .

(4) سورة الكهف آية 110

(5) سورة الماعون آية 4-6

(6) سورة البقرة آية 264

(7) سورة الأنعام آية 151

(8) سورة الإسراء 32

(9) سورة الإسراء آية 37 .

(10) سورة البقرة آية 275 .

(11) سورة المائدة90 .

السخرية بالناس والاستخفاف بهم واستحقارهم وعن عيب المرء أخاه ودعوته بغير ما سمي به وذلك في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب﴾ [1] وعن التجسس والغيبة وذلك في قوله تعالى : ﴿ ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ﴾ [2]وعن الكلام فيما لا يعني وذلك في قوله تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾ [3]

وعن المن بالصدقة بقوله تعالى : ﴿ لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى﴾ [4] وعن الخيانة بقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾[5].

إلى غير ذلك مما يضر بالهيئة الاجتماعية أو النفس أو المال أو العرض أو العقل. فلما دعاهم ﷺ إلى ما دعاهم إليه، وأمرهم بما أمرهم به، ونهاهم عما نهاهم عنه، نفروا من قبول دعواه ﷺ، وعادوه أشد المعاداة، وهجره منهم الأهل والخلان، وكذبه الشيوخ والشبان، وتحول له ﷺ الأوداء أعداء، والرفقاء خصوما الداء فقام ﷺ دونهم يسفه أحلامهم، ويقبح أعمالهم، ويدحض أقوالهم، كل ذلك براهين قاطعة، وأدلة ساطعة، وآيات بينات، ومعجزات باهرات على صدق دعوته عليه الصلاة والسلام.

دلائل نبوته ﴿ ﷺ وآله﴾ :

من دلائل نبوته وعلامات رسالته ﴿ ﷺ وآله﴾، ما ترادفت به الأخبار عن الرهبان والأحبار وعلماء أهل الكتاب من صفته وصفة أمته، واسمه وعلاماته، وذكر الخاتم الذي كان بين كتفيه ﴿ ﷺ

---

(1) سورة الحجرات آية 11 .

(2) سورة الحجرات آية 12 .

(3) سورة المائدة 101.

(4) سورة البقرة آية 264 .

(5) سورة الأنفال آية 27 .

وآله ﷺ، وما وجد من ذلك في أسفار الموحدين المتقدمين من شعر تبع [1]، والأوس بن حارثة، وشبهه، وكعب بن لؤي، وسفيان بن مجاشع، وقس بن ساعدة [2] وما ذكر عن سيف بن ذي يزن [3] وغيرهم، وما عرف به من أمره زيد بن عمرو بن نفيل [4]، وورقة بن نوفل [5] وعثكلان الحميري، وعلماء يهود، وشامول عالمهم صاحب تبع من صفته وخبره، وما ألفى من ذلك في التوراة والإنجيل مما قد جمعه العلماء وبينوه ونقله عنهم الثقات ممن أسلم منهم ابن سلام [6]، وبني سعية، وابن يامين، ومخيريق، وكعب، وأشباههم ممن أسلم من علماء يهود وبحيراء، ونسطور، وصاحب بصرى، وأساقف الشام، والجارود، وسلمان، والنجاشي، ونصارى الحبشة، وراهب بصرى، وأساقف نجران، وغيرهم ممن أسلم من علماء النصارى، وقد اعترف بذلك هرقل وصاحب رومة عالما النصارى ورئيساهما، والمقوقس صاحب مصر، والشيخ صاحبه، وابن صوريا، وابن أخطب وأخوه، وكعب بن أسد، والزبير بن باطياء، وغيرهم من علماء اليهود، وممن حملهم الحسد والنفاسة على البقاء على الشقاء.

---

(1) هو تبع الحميري الذي سار بالجيوش وبنى سمرقند ، كان مؤمنا وقومه كافرين ، وكان يكتب في عنوان كتابه : بسم الله الذي ملك بحرا وبحرا ، أي بحارا كثيرة . وقيل : لملوك اليمن التبابعة نسبة إليه . انظر تفسير أبي السعود ، ج5 ، ص55 .

(2) هو قس بن ساعدة الإيادي ، كان خطيب العرب وشاعرهم وحكيمهم في الجاهلية ، يقال : إنه أول من آمن بالبعث في الجاهلية واعتنق النصرانية ، أدركه النبي ﷺ وسمعه يخطب بعكاظ فأعجب بكلامه ، وكان يعتمد في خطبه على الفقرات القصيرة .

(3) هو سيف بن ذى يزن ، كان سليل بيت من ملوك حمير ، طرد الأحباش من جنوب البلاد العربية ، وأطاح بحكمهم على اليمن ، ولقد آمن سيف بن ذي يزن بالتوحيد .

(4) هو أبو سعيد زيد بن عمرو بن نفيل ، وهو ابن عم عمر بن الخطاب ، كان أحد من اعتزل عبادة الأوثان ، وامتنع عن أكل ما ذبح باسمها ، قال عنه رسول الله ﷺ : " يأتى يوم القيامة أمة وحده " .

(5) هو ابن عم السيدة خديجة أم المؤمنين ، تنصر وحفظ التوراة والإنجيل ، بشر بنبوة سيدنا محمد ﷺ ، وقال للسيدة خديجة حين أخبرته بقصة الوحي ونزوله على الرسول ﷺ : إن هذا هو الناموس الذي كان ينزل على موسى ، وإن محمدا لنبي هذه الأمة . توفى في السنة الثالثة للبعثة .

(6) هو عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي الأنصاري الخزرجي ، أسلم أول قدوم رسول الله ﷺ إلى المدينة ، توفى سنة 43 ه .

والأخبار في هذا كثيرة لا تنحصر، وقد قرع أسماع اليهود والنصارى بما ذكر أنه في كتبهم من صفته وصفة أصحابه، واحتج عليهم بما انطوت عليه من ذلك صحفهم وذمهم بتحريف ذلك وكتمانه، وليهم ألسنتهم ببيان أمره، ودعوتهم إلى المباهلة على الكاذب، فما منهم إلا من نفر عن معارضته، وأبدى ما ألزمهم من كتبهم إظهاره، ولو وجدوا خلاف قوله لكان إظهاره أهون عليهم من بذل النفوس والأموال، وتخريب الديار، ونبذ القتال، وقد قال لهم : ﴿ قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾ [1].

إلى ما أنذر به الكهان مثل شافع بن كليب، وشيق، وسطيح [2]، وسواد بن قارب، وخنافر، وأفعى نجران، وجدث بن جذل الكندي، وابن خلصة الدويسي، وسعيد بن بنت كرير، وفاطمة بنت النعمان، ومن لا يعد كثرة.. إلى غير ذلك مما أظهر على ألسنة الأصنام من نبوته، وحلول وقت رسالته، وسمع من هواتف الجان، ومن ذبائح النصب ، وأجواف الطيور، وما وجد من اسم النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ والشهادة له بالرسالة مكتوبا في الحجارة والقبور بالخط القديم، مما أكثره مشهور، وإسلام من أسلم بسبب ذلك معلوم مذكور.. فدلائل نبوته صلوات الله وسلامه عليه لا تحصى عدا، ولا تستقصى حدا، وكيف لا ؟ وهو رحمة الله التي عمت الملائكة والإنس والجن، ونعمته العظمى التي شملت كل مخلوق خلقه، ورسول الله الذي افتتح به الوجود، وختم به الرسالة صلوات الله عليه، أرسله عامة للناس إعلاما بقدر مقامه العلي عند ربه سبحانه، ولم يكن رسول قبله من أولي العزم إلا وهو مرسل لقومه خاصة، ينسخ شرعه عند انتقاله من الدنيا، وهذا السيد صلوات الله وسلامه عليه نسخ شرعه الشريف كل الشرائع، ومحت شمسه المضيئة كل أنجم ظهرت.

إمداده ﷺ بأنواع المعجزات :

لما كان هو المراد لذات الله تعالى ﴿ ﷺ وآله﴾، وكان الرسل قبله صلوات الله وسلامه عليه وعليهم نوابه ينتظرون ظهوره عليه الصلاة والسلام، وآيات الكتب السماوية– التي تأولها من أعمى الله بصائرها، وأصم أسماع قلوبهم، حتى صار أكثرهم لا يسمعون ولا يبصرون ولا يفقهون– صريحة بالبشائر

---

(1) سورة آل عمران آية 93هـ .

(2) وهو كاهن من غسان ، من المعمرين ، كان العرب يحتكمون إليه ، يروون عنه أنه كان يعرف الغيبيات ويتكهن بها ، مات في الجابية على مشارف الشام بعد مولد رسول الله ﷺ بقليل .

ببعثته ﴿ ﷺ وآله﴾، ناطقة بفضله صلوات الله وسلامه عليه، مبشرة بإشراق أنواره المحمدية، وهو جوهرة العقد المقصود بالذات، ولذلك أمده الله تعالى بأنواع المعجزات التي أمد بها رسله صلوات الله وسلامه عليهم، دليل ذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إنا أعطيناك الكوثر﴾[1] فإن بعض أهل العلم فسر الكوثر بالخير الكثير الشامل لنهر في الجنة، وللمعجزات ودلائل النبوة، ولنعم الله العظمى التي أفاضها الله به ﴿ ﷺ وآله﴾ على جميع خلقه.

مقابلة بين معجزاته ومعجزات الرسل السابقين :

لما كان القرآن المجيد معجزة المعجزات، وآية الآيات، ونور الله الذي بين به سبله، وهدى به من أحبهم من عباده، أحببت أن أفتتح به المعجزات التي وردت إما بطريق التواتر، أو بطريق صحيح أو حسن، مقابلا بين معجزاته ﴿ ﷺ وآله﴾ ومعجزات الرسل السابقين عليهم الصلاة والسلام أجمعين، فله ﴿ ﷺ وآله﴾ كل معجزة كانت لغيره من الأنبياء المشهورين :

1- فكتاب سيدنا آدم عليه السلام كان كلمات، كما قال تعالى : ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات ﴾ [2] وكتاب سيدنا إبراهيم وسيدنا موسى عليهما السلام كان كلمات وصحفا، كما قال تعالى : ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات ﴾ [3]وقال تعالى : ﴿ صحف إبراهيم وموسى﴾[4] وكتاب نبينا وسيدنا مُحَمَّد ﴿ ﷺ وآله﴾ مهيمنا على الكل كما قال تعالى : ﴿ ومهيمنا عليه ﴾[5]

---

(1) سورة الكوثر آية 1 .

(2) سورة البقرة آية 37 .

(3) سورة البقرة آية 124 .

(4) سورة الأعلى آية 19 .

(5) سورة المائدة آية 48 .

2 – وأن سيدنا آدم عليه السلام تحدى بالكلمات والأسماء، قال تعالى : ﴿ أنبئوني بأسماء هؤلاء ﴾ [1] وسيدنا ومولانا مُحَمَّد ﴿ ﷺ وآله﴾ إنما تحدى بالمنظوم، قال تعالى : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾[2]

3– وأما سيدنا نوح عليه السلام فإن الله أكرمه بأن أمسك سفينته على الماء، وفى حق سيدنا مُحَمَّد ﴿ﷺ وآله﴾ وقف الحجر على الماء، فقد روي أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ كان على شاطيء ماء ومعه عكرمة بن أبي جهل [3] فقال : إن كنت صادقا فادع ذلك الحجر الذي هو في الجانب فليسبح ولا يغرق، فأشار الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ إليه فانقلع الحجر من مكانه، وسبح حتى صار بين يديه ﴿ ﷺ وآله﴾ وشهد الحجر له عليه الصلاة والسلام بالرسالة، فقال له ﴿ ﷺ وآله﴾ : " يكفيك هذا " ؟ قال : حتى يرجع إلى مكانه، فأمره النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ فرجع إلى مكانه.

4 – وأكرم سيدنا إبراهيم عليه السلام فجعل النار بردا وسلاما عليه، وروى مُحَمَّد بن حاطب [4] قال: كنت طفلا فانصب القدر من على النار على فاحترق جلدى كله، فحملتني أمي إلى النبي ﴿ ﷺ وآله﴾، وقالت : هذا ابن حاطب احترق كما ترى، فتفل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ في جلدي ومسح بيده على المحترق، وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : ﴿ أذهب البأس رب ٱلناس﴾ [5] فصرت صحيحا لا بأس بي.

---

(1) سورة البقرة آية 31 .

(2) سورة الإسراء آية 88 .

(3) هو الصحابي ابن عدو الله أبي جهل، واسمه أبو عثمان عكرمة بن أبي جهل، كان من أشد الناس عداوة لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، هداه الله للإسلام فأسلم بعد الفتح بقليل، استشهد بأجنادين بين الرملة وفلسطين سنة 13 هـ .

(4) هو الصحابي ابن الصحابي والصحابية رضي الله عنهم ، هو أول من سمى في الإسلام محمدا ، ولد بأرض الحبشة في الهجرة ، توفى بمكة سنة 74 هـ ، شهد مع سيدنا علي كرم الله وجهه الجمل وصفين والنهروان .

(5) هذا الحديث رواه أحمد وأبوداود وابن ماجه عن ابن مسعود ، ورواه الشيخان عن عائشة بلفظ : " إن النبي ﷺ كان يعود بعض أهله يمسح بيده اليمنى ويقول : " اللهم رب الناس أذهب البأس واشف وأنت

5 – وأكرم سيدنا موسى عليه السلام بفلق البحر في الأرض، وأكرم سيدنا ومولانا مُحَّدا ﴿ ﷺ وآله﴾، ففلق له القمر فوق السماء.

6 – وفجر لسيدنا موسى عليه السلام عيون الماء من الحجر، وفجر لسيدنا مُحَّد ﴿ ﷺ وآله﴾ أصابعه عيونا.

7 – وأكرم سيدنا موسى عليه السلام بتظليل الغمام في زمن نبوته، وأكرم سيدنا مُحَّدا ﴿ ﷺ وآله﴾ بذلك قبل ظهور نبوته.

8 – وأكرم سيدنا موسى عليه السلام باليد البيضاء، وأكرم سيدنا ومولانا مُحَّدا ﴿ﷺ وآله﴾ بالقرآن العظيم، الذي هو نور من الله وبرهان.

9 – وقلب الله عصا سيدنا موسى ثعبانا، ولما أراد أبو جهل أن يرميه ﴿ ﷺ وآله﴾ بالحجر رأى على كتفيه ﴿ ﷺ وآله﴾ ثعبانين فانصرف مرعوبا.

10 – وسبحت الجبال مع سيدنا داود عليه السلام، وسبحت الأحجار في يده عليه الصلاة والسلام، ويد أصحابه رضوان الله عنهم.

11 – وكان سيدنا داود عليه السلام إذا مسح الحديد لان، وكان ﴿ ﷺ وآله﴾ حين مسح الشاة الجدباء درت.

12 – وأكرم سيدنا داود عليه السلام بالطير المحشورة، وأكرم سيدنا ومولانا مُحَّدا ﴿ ﷺ وآله﴾ بالبراق.

الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقما " وحديث محمد بن حاطب هذا الذي نحن بصدده رواه ابن أبي الدنيا عن سيدنا علي أيضا ولكن بلفظ يخالف هذا يسيرا ، وله طرق أخرى غير هذه .

13 – وأكرم سيدنا عيسى عليه السلام بإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وأكرمه عليه الصلاة والسلام بإحياء الشاة المسمومة وبتكلمها أنها مسمومة. روى جابر [1] أن يهودية [2] من أهل خيبر سمت ذراع شاة، ثم أهدتها إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، فأخذ رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ الذراع فأكل منها، وأكل رهط من أصحابه معه، فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : ﴿ ٱرفعوا أيديكم ﴾ وأرسل إلى اليهودية فدعاها، فقال : ﴿ سممت هذه الشاة ﴾ فقالت : من أخبرك ؟ قال : ﴿ أخبرتني هذه في يدي ﴾ يعني الذراع، قالت : نعم، قلت إن كان نبيا فلن تضره، وإن كان غير نبي استرحنا منه، فعفا عنها رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ولم يعاقبها.. وروي أن معاذ بن عفراء كانت له امرأي برصاء، فشكت ذلك إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، فمسح عليها بغصن فأذهب الله عنها البرص. وحين سقطت حدقة قتادة [3]، أي : عين قتادة، يوم أحد رفعها رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فردها إلى مكانها.

14– وكان سيدنا عيسى عليه السلام يخبر بما في بيوت الناس، والرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ عرف ما أخفته أم الفضل [4] فأسلم العباس [5] لذلك، روي أنه عليه الصلاة والسلام قال لسيدنا العباس رضي الله عنه حين أسر في أسارى بدر، وطلب النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ منه فداء نفسه وابن أخيه عقيل بن أبي

(1) هو جابر بن عبد الله الصحابي بن الصحابى رضي الله عنهما ، وهو أحد المكثرين عن رسول الله ﷺ ، استشهد أبوه يوم أحد ، توفى جابر بالمدينة سنة 73 هـ .

(2) قال النووي في تهذيب الأسماء : المرأة اليهودية التي أهدت لرسول الله ﷺ الشاة المسمومة اسمها : زينب بنت الحارث ، أخت مرحب اليهودي . ولمزيد الإيضاح ارجع إلى دلائل النبوة للبيهقى .

(3) هو قتادة بن النعمان الصحابى الجليل رضي الله عنه ، شهد قتادة مع النبي ﷺ العقبة وأحدا وبدرا والخندق وسائر المشاهد كلها ، قلعت عينه يوم أحد فردها رسول الله ﷺ فكانت أحسن عينيه ، توفى قتادة بالمدينة سنة 23 هـ وصلى عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(4) هي لبابة بنت الحارث الصحابية ، وتكنى أم الفضل ، أخت ميمونة أم المؤمنين ، وهي زوجة العباس بن عبد المطلب وأم أولاده ، ويقال : إنها أول امرأة أسلمت بعد السيدة خديجة رضي الله عنها.

(5) هو عم الرسول ﷺ ، ويكنى أبا الفضل الهاشمي ، كانت إليه عمارة المسجد الحرام والسقاية قبل الإسلام ، خرج مع المشركين إلى بدر مكرها فأسر ، وفدى نفسه وابن أخيه عقيلا ونوفلا بن الحارث ، توفى سنة 32 هـ بالمدينة المنورة ودفن بالبقيع .

طالب [1] فادعى العباس العجز عن الفداء، فقال له ﴿ ﷺ وآله﴾ : (أين المال الذي وضعت بمكة عند أم الفضل وليس معكما أحد، وقلت : إن أصبت فلعبد الله كذا، وللفضل كذا) فقال العباس : ما علم أحد غيري، والذي بعثك بالحق إنك رسول الله، وأسلم هو وعقيل رضي الله عنهما.

15- ورد لسيدنا سليمان الشمس مرة، والرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ كان نائما ورأسه في حجر علي عليه السلام، فانتبه وقد غربت الشمس فردها الله له حتى صلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾.

16- وعلم سيدنا سليمان منطق الطير، وفعل ذلك في حق سيدنا مُحَّد ﴿ ﷺ وآله﴾، روى أن طائرا فجع بولده، فجعل يرفرف على رأسه ويكلمه، فقال : (أيكم فجع هذه بولدها ؟ فقال رجل : أنا، فقال : اردد ولدها) وكلام الذئب والناقة معه ﴿ ﷺ وآله﴾ مشهور.

17- وأكرم سيدنا سليمان عليه السلام بمسير شهر في غدوه ورواحه، وأكرمه ﴿ ﷺ وآله﴾ بالإسراء إلى بيت المقدس في ساعة.

18- وكان له ﴿ ﷺ وآله﴾ يعفور (حمار) يرسله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى من يريد عليه الصلاة والسلام ليجيء عليه.

19- وأرسل معاذا إلى بعض النواحي، فلما وصل المفازة فإذا أسد جاث فهاله ذلك ولم يجرأ أن يرجع، فتقدم وقال : أني رسول رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، فبصبص السبع وانصرف.

20- وكما انقاد الجن لسيدنا سليمان عليه السلام، انقادوا لسيدنا ومولانا مُحَّد ﴿ ﷺ وآله﴾

21- وحين جاء الأعرابي بالضب [2] تكلم الضب معترفا برسالته، فقد روى أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ خرج ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما بمكة، وكان أبو لهب وأبو جهل وأبو سفيان

(1) هو ابن عم رسول الله ﷺ ، أسلم قبل الحديبية ، وجاء إلى المدينة مهاجرا .

(2) الضب : حيوان من جنس الزواحف ، غليظ الجسم خشنه ، وله ذنب عريض حرش أعقد ، يكثر في صحارى الأقطار العربية ، ويستعمل جلده بعد دبغه ليوضح فيه السمن .

يمشون خارج مكة، فأقبل أعرابى من البادية فقال له أحدهم : إن قتلت هذا __ يعنى محمدا ﴿ ﷺ وآله﴾ __ أعطيناك كذا من كذا.

والأعرابي جاء بضب يبيعه فقال : أني أتيت البادية جائعا، فأقبل على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فلما دنا منه كان تحت ثوبه ضب فألقاه على الأرض وقال : إن لم يشهد لك هذا الضب قتلتك يا محمد، فقال سيدنا عمر : دعني أقتله يا رسول الله، فقال : (دعه يا عمر، فقال : يا ضب من أنا ؟ فقال : أنت رسول الله) فأسلم الأعرابي وحسن إسلامه والجماعة ينتظرون رأس رسول الله على سيف الأعرابي، فرجع إليهم يرفع صوته بكلمة التوحيد، فقالوا : سحره محمد.

22- وحين كفل ﴿ ﷺ وآله﴾ الظبية [1] حتى أرسلها الأعرابي، رجعت تعدو حتى أخرجته من الكفالة، فإنه قد روي أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ مر بظبية مقيدة خارج خباء أعرابي، فلما قرب منها ﴿ ﷺ وآله﴾ التفتت إليه ﴿ ﷺ وآله﴾ ورفعت صوتها، فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (من الذي ربطها ؟) فخرج الأعرابي وقال : هي صيدي يامحمد، قال : (إن لها أولادا وإنها تتشفع بي أن تحلها لترضع أولادها وتعود إليك)، فقال : يامحمد أحلها وتخرج من قيدها وتعود علي ؟ فقال : (نعم، وأنا ضامن لك ذلك). وكان ثدياها ممتلئتين لبنا، فقام الأعرابي وحلها فانصرفت ومكثت زمنا طويلا فرجعت ولبنها فارغ، ووقفت بجوار الأعرابي كأنها تقول له : اربطني.

23- وحين لسعت الحية عقب الصديق في الغار قالت : كنت مشتاقة إليه مذ كذا سنين فلم حجبتني عنه ؟.

24- وأطعم الخلق الكثير من الطعام القليل.

---

(1) الظبية : مؤنث الظبي ، وهو حيوان ثديي مجتر ذو أظلاف ، من رتبة مشقوقة الظلف (الفصيلة البقرية) ومعروف عن الحيوان أنه إذا نفر من مكان لا يعود إليه ، ولذلك يقال في المثل : (لأتركنك ترك الظبي ظله) أى : لا أعود إليك .

ومعجزاته ﴿ ﷺ وآله﴾ أكثر من أن تحصى خصوصا في هذا المقام، فثبت صحة قوله تعالى : ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ [1].

جمعه للمعارف والعلوم :

من معجزاته ﴿ ﷺ وآله﴾ الباهرة ما جمعه الله له من المعارف والعلوم، وما خصه به من الاطلاع على جميع مصالح الدنيا والدين، ومعرفته ﴿ ﷺ وآله﴾ بأمور شرائعه وقوانين دينه ومصالح أمته، وما كان في الأمم قبله، وقصص الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، والجبابرة والقرون الماضية من لدن سيدنا آدم عليه السلام إلى زمنه ﴿ ﷺ وآله﴾، وحفظ شرائعهم وكتبهم ووعي سيرهم وسرد أنبائهم وأيام الله فيهم، وصفات أعيانهم واختلاف آرائهم، والمعرفة بمددهم وأعمارهم، وحكمة حكمائهم، وإقناع كل أمة من الكفرة، ومعارضة كل فرقة من الكتابيين بما في كتبهم، وإعلامهم بأسرارها، ومخبآت علومها، وإخبارهم بما كتموه من ذلك وغيروه مع البيان لكل قبيلة بلغاتها وغريب ألفاظ فرقها، والإحاطة بضروب فصاحتها، والحفظ لأيامها وأمثالها، ومعاني أشعارها وجوامع كلمها.

إلى المعرفة بضرب الأمثال الصحيحة لتقريب التفهيم للغامض، والتبيين للمشكل، إلى تمهيد قواعد الشرع الذي لا تناقض فيه ولا تخاذل، مع اشتمال شريعته ﴿ ﷺ وآله﴾ على محاسن الأخلاق، ومحامد الآداب، وكل شيء مستحسن مفضل، لم ينكر منه ملحد ذو عقل سليم شيئا إلا من جهة الخذلان، بل كل جاحد له وكافر من الجاهلية به إذا سمع ما يدعو إليه صوبه واستحسنه دون طلب إقامة برهان عليه، ثم ما أحل لهم من الطيبات، وحرم عليهم من الخبائث، وصان به أنفسهم وأعراضهم وأموالهم من المعاقبات والحدود عاجلا، والتخويف بالنار آجلا، مما لا يعلم ولا يقوم به ولا ببعضه إلا من مارس الدرس والعكوف على الكتب ومتابعة بعض هذا، إلى الاحتواء على ضروب العلوم وفنون المعارف كالطب، والعبادة والفرائض، والحساب ، والنسب. وغير ذلك من العلوم مما اتخذ أهل هذه المعارف كلامه عليه الصلاة والسلام فيها قدوة وأصولا في علمهم، كقوله عليه الصلاة والسلام : ﴿الرؤيا لأول عابر وهي علىٰ رجل طائر ﴾ [2]. وقوله : ﴿ ٱلرؤيا ثلاث : رؤيا حق، ورؤيا يحدث بها

---

(1) سورة الكوثر آية 1 .

(2) هذا الحديث رواه أبو داود والترمذي وصححه ، ورواه ابن ماجه عن أبي رزين ولكن برواية أخرى وهي: " الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر ، فإذا عبرت وقعت " .

ٱلرجل نفسه، ورؤيا تحزين من ٱلشيطان ﴾ [1] وقوله : ﴿ إذا تقارب ٱلزمان لم تكد رؤيا ٱلمؤمن تكذب ﴾ [2] وقوله : ﴿ أصل كل داء ٱلبردة ﴾ وقوله : ﴿ خير ما تداويتم به ٱلسعوط وٱللدود وٱلحجامة وٱلمشي، وخير ٱلحجامة يوم سبعة عشر وتسعة عشر وواحد وعشرين، وفي ٱلعود ٱلهندبي سبعة أشفية ﴾ وقوله : ﴿ ما ملاء ٱبن آدم وعاء شرا عليه من بطنه ﴾، إلى قوله : ﴿ فإن كان لابود فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس ﴾ [3] وقوله وقد سئل عن سبإ أرجل هو أم امرأة أم أرض ؟ فقال : ﴿ رجل ولد عشرة تيامن منهم ستة، وتشاءم أربعة ﴾ الحديث بطوله.

وكذلك جوابه في نسب قضاعة، وغير ذلك مما اضطرت العرب على شغلها بالنسب إلى سؤاله عما اختلفوا فيه، من ذلك قوله : ﴿ حمير رأس العرب ونابها، ومذحج هامتها وقلصتها، والأزد كاهلها وجمجمتها، وهمدان غاربها وذروتها ﴾ وقوله : ﴿ إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ﴾ [4] وقوله في الحوض : ﴿ زواياه سواء ﴾ وقوله في حديث الذكر : ﴿ وأن الحسنة بعشرفتلك مائة وخمسون على ٱللسان وألف وخمسمائة في ٱلميزان ﴾ وقوله : ﴿ ما بين ٱلمشرق وٱلمغرب قبلة ﴾ وقوله لعيينة أو الأقرع : ﴿ أنا أفرس بالخيل منك ﴾.

---

(1) هذا الحديث رواه البخاري عن أبي سعيد الخدرى ، ومسلم عن ابن عمر ، وعن أبي هريرة ولفظه : " الرؤيا ثلاثة :منها تهاويل من الشيطان ليحزن ابن آدم ، ومنها ما يهم به الرجل في يقظته فيراه في منامه ،ومنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة " .

(2) هذا الحديث متفق عليه ، وقد أورده البخاري في كتاب التعبير باب القيد في المنام ، ورواه عن أبي هريرة بلفظ : " إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب ، ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة".

(3) هذا الحديث رواه الترمذي قال : حديث حسن ، وقد خرجه العراقي في موضعين من الإحياء ورواه أحمد بن حنبل وابن ماجه والبيهقي عن المقدام بن معد يكرب بلفظ : " ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطن ، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه " .

(4) هذا الحديث رواه البخاري عن أبي بكرة عن النبي ﷺ قال : " الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا ، منها أربعة حرم ، ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان --- " الخ الحديث ، صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب وكان عرشه على الماء .

وقوله لكاتبه : ﴿ ضع ٱلقلم على أذنك فإنه أذكر للمملى ﴾ هذا مع أنه عليه الصلاة والسلام كان لا يكتب ولكنه أوتي علم كل شيء، حتى قد وردت آثار بمعرفته حروف الخط وحسن إتقان تصويرها، كقوله ﴿ ﷺ وآله﴾ : ﴿ لا تمدوا بسم ٱلله ٱلرحمٰن ٱلرحيم ﴾. وروي أنه قال لمن يكتب بين يديه عليه الصلاة والسلام : ﴿ ألق ٱلدواة وحرف ٱلقلم، وأقم ٱلباء، وفرق ٱلسين، ولا تعور ٱلميم، وحسن ٱلله، وأمد ٱلرحمٰن، وجود ٱلرحيم ﴾، وهذا وإن لم تصح الرواية أنه كتب عليه الصلاة والسلام، فلا يبعد أن يرزق علم هذا ويمنع الكتابة والقراءة.

وأما علمه عليه الصلاة والسلام بلغات العرب وحفظ معاني أشعارها فأمر مشهور، وكذلك حفظه عليه الصلاة والسلام لكثير من لغات الأمم كقوله في الحديث : (سنه) وهي حسنة بالحبشية، وقوله : (ويكثر الهرج) وهو القتل بها، وقوله : (اشكنب دردم أي : وجع البطن بالفارسية، إلى غير ذلك مما لا يعلم بعض هذا ولا يقوم به ولا ببعضه إلا من مارس الدرس والعكوف على الكتب ومثاقبة أهلها عمره، وهو رجل كما قال الله تعالى أمى لم يكتب ولم يقرأ، ولا عرف بصحبة من هذه صفته، ولا نشأ ﴿ ﷺ وآله﴾ بين قوم لهم علم ولا قراءة لشيء من هذه الأمور، ولا عرف هو قبل بشيء منها، قال الله تعالى : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ﴾ [1] الآية. إنما كانت غاية معارف العرب النسب، وأخبار أوائلها، والشعر، والبيان، وإنما حصل لهم ذلك بعد التفرغ لعلم ذلك، والاشتغال بطلبه، ومباحثة أهله عنه، وهذا الفن نقطة من بحر علمه ﴿ ﷺ وآله﴾، ولا سبيل إلى جحد الملحد لشيء مما ذكرناه، وما وجد الكفرة حيلة في دفع ما نصصناه إلا قولهم : أساطير الأولين، وإنما يعلمه بشر، فرد الله تعالى قولهم بقوله تعالى : ﴿ لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾ [2].

من خصائصه وكراماته وباهر آياته :

من خصائصه ﴿ ﷺ وآله﴾ وكراماته وباهر آياته أنباؤه مع الملائكة والجن، وإمداد الله له بالملائكة، وطاعة الجن له، ورؤية كثير من أصحابه لهم، قال الله تعالى : ﴿ وإن تظاهرا عليه فإن الله هو

(1) سورة العنكبوت آية 48 .

(2) سورة النحل آية 103 .

مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير ﴾ [1] وقال تعالى : ﴿ إذ يوحي ربك إلى الملآئكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفرواالرعب ﴾ [2] وقوله تعالى : ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملآئكة مردفين﴾ [3].

وقوله تعالى : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين ۞قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ۞ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين ﴾ [4]. فقد روى عن عبد الله [5] أنه قال : ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ [6] قال : رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح[7]،والخبر في محادثته مع جبريل وإسرافيل وغيرهما من الملائكة وما شاهده من كثرتهم وعظم صور بعضهم ليلة الإسراء مشهور وقد رآهم ﴿ ﷺ وآله﴾ بحضرة جماعة من أصحابه في مواطن مختلفة،فرأى أصحابه جبريل عليه السلام في صورة رجل يسأله عن

---

(1) سورة التحريم آية 4 .

(2) سورة الأنفال آية 12 .

(3) سورة الأنفال آية 9 .

(4) سورة الأحقاف آية 29 - 32 .

(5) هو عبد الله بن مسعود ابن الصحابي الجليل ، ابن الصحابية الجليلة ، أم عبد بنت عبد ود بن سواء ، وهو الذي أجهز على أبي جهل يوم بدر ، شهد له الرسول ﷺ بالجنة ، كان يعرف من بين الصحابة بصاحب السواد والسواك والنعل ، توفى سنة 32 هـ بالكوفة .

(6) سورة النجم آية 18.

(7) هذا الحديث أورده البخاري في كتاب بدء الخلق.

الإيمان والإسلام، ورأى سيدنا ابن عباس وأسامة [1] وغيرهما رضوان الله عليهم عنده ﴿ ﷺ وآله﴾ جبريل في صورة دحية [2].

وذكر ابن سعد أن مصعب بن عمير [3] قتل يوم أحد وأخذ الراية ملك على صورته فكان النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ يقول : ﴿ تقدم يا مصعب ﴾ فقال الملك : لست بمصعب، فعلم أنه ملك. ورأى سعد [4] على يمينه وعلى يساره جبريل وميكائيل في صورة رجلين عليهما ثياب بيض. ومثله عن غير واحد، وسمع بعضهم زجر الملائكة خيلها يوم بدر، وبعضهم رأى تطاير الرؤوس من الكفار ولم يروا الضارب.

ورأى سيدنا عبد الله بن مسعود ﷺ الجن ليلة الجن وسمع كلامهم، وقد ذكر غير واحد من العلماء عن سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال : بينما نحن جلوس مع النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ إذ أقبل شيخ بيده عصا، فسلم على النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ فرد عليه وقال : ﴿ نغمة ٱلجن، من أنت ﴾ قال : أنا هامة بن الهيمي ابن لاقس ابن إبليس، فذكر أنه لقى نوحا عليه السلام ومن بعده في حديث طويل، وأن النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ علمه سورا من القرآن، وقال عليه الصلاة والسلام : ﴿ إن شيطانا تفلت ٱلبارحة ليقطع علي صلاتي فأمكنني ٱلله منه فأخذته فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري ٱلمسجد

---

(1) هو أسامة بن زيد الصحابي ، وهو مولى رسول الله وابن مولاه وابن مولاته ، ولاه الرسول ﷺ إمارة الجيش وفيهم عمر بن الخطاب ، توفى بالمدينة سنة 54 هـ.

(2) هو دحية الكلب ، أسلم قديما ، كان من أجمل الناس شكلا .

(3) هو الصحابي الجليل مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف ، كان من السابقين إلى الإسلام ، بعثه الرسول ﷺ ليفقه أهل المدينة ويقرئهم القرآن ، أسلم على يديه سعد بن معاذ وأسيد بن حضير ، استشهد مصعب في غزوة أحد .

(4) هو سعد بن أبي وقاص ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة الذين جعل عمر بن الخطاب رضي الله عنهم أمر الخلافة شورى بينهم ، أسلم قديما ، وهو أول من رمى بسهم في سبيل الله ، يقال له : فارس الإسلام . كان أمير الجيش بالقادسية وجلولاء ، فتح مدائن كسرى ، توفى سنة 55 هـ ودفن بالبقيع .

حتىٰ تنظروا إليه كلكم، فذكرت دعوة أخي سليمان : ﴿ رب ٱغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب ﴾ [1]0

معجزات الرسل هي بعض ما أمد به خاتم الأنبياء :

ثبت أن كل ما أمد الله به رسله عليهم الصلاة والسلام من المعجزات إنما هو بعض ما أمد به سبحانه خاتم رسله عليه أكمل الصلاة وأتم التسليم، وكيف لا ؟ وكل معجزة أمد الله بها من سبق من رسله صلوات الله وسلامه عليهم كانت خاصة لقومه وأهل عصره لا تتجاوزهم إلى غيرهم، وذلك لأن تلك المعجزات كانت خوارق للعادات الكونية والعلوم الإنسانية، كعلم الطب، وعلم السحر، وعلم السير في البحار، وعدم تأثير العناصر النارية على الأجسام الإنسانية، وغير ذلك من الخوارق التي تدهش العقول وتحير الألباب، وتخرج قوة الفكر عن النمط الأوسط، حتى يتصور الناظر إلى تلك الحادثة أن الذي أحدثها من الآلهة لحيرة فكره، ثم إذا مرت عليها لحظات قليلة تناساها الناظر لها، وصارت في حيز كان، اللهم إلا ما يثبته التاريخ وتنقله الرواة بشرح تلك الحادثة، مشوبة بما يجعل السامع لروايتها بين منكر متعجب، أو مسلم معجب بمن ظهرت على يده، غير ملاحظ الحكمة التي أظهرها الله لأجلها.

ولذلك كانوا صلوات الله وسلامه عليهم كالأنجم التي تضيء ليلا، حتى إذا أشرقت شمس ذات الرسول الكريم العظيم ﴿ ﷺ وآله﴾ الفاتح لما أغلق من سر الإيجاد والإمداد، والخاتم لما سبق من أنوار الرسالة والهداية والبيان صلوات الله وسلامه عليه، حجبت تلك الأنجم بأنوارها التي عمت الروابي والبطاح، واهتدى بها الإنس والجن، فأكمل الله به ﴿ ﷺ وآله﴾ دينه الذي ارتضاه، قال تعالى : ﴿

(1) سورة ص آية 35 .

اليوم أكملتلكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ [1] وصار كل رسول من أولى العزم – نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام – لو أدركوا جنابه المحمدي عليه الصلاة والسلام ما وسعهم إلا أن يكونوا له أتباعا وأنصارا، لتلك الحكم الجلية، التي لا تخفى إلا على بصيرة أعماها الحظ والهوى، وقلب قطعه الحق عن مشاهد أنواره، ونفس خبيثة إبليسية.

جعل الله معجزة هذا السيد ﴿ ﷺ وآله﴾ باقية أبد الآبدين، غضة طريفة لا تفنى جدتها، ولا تزول بهجتها، كلما مر زمن الأزمان ظهرت أسرارها، وانبلجت غيوبها، وانكشفت أنوارها، وفتحت كنوزها، وأشرقت في الأفق المبين شموسها، فما ظهر للطب سر غامض إلا وقد صرح القرآن المجيد به، ولا انكشف سر من أسرار غوامض الماديات من الحكم العلية من الآلات والأدوات إلا وقد أخبر به القرآن المجيد، ولا جالت العقول الكاملة جولة في أقطار السموات والأرض إلا ونور القرآن المجيد شمس بيانها، وحقيقة دليلها، حتى أن المخترعات التي أدهشت عقول العقلاء قد أخبر عنها القرآن : ﴿ خلق السماوات والأرض بالحق تعالى عما يشركون ۞ خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين۞ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون۞ ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ۞وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم۞ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون﴾ [2] وقوله تعالى :﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز ﴾ [3] وقوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد۞ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف

---

(1) سورة المائدة آية 3 .

(2) سورة النحل آية 3 - 8 .

(3) سورة الحديد آية 25 .

بربك أنه على كل شيء شهيد﴾ (1) وقوله تعالى : ﴿ قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ (2) وآيات لا تحصى.

ما هذه المعجزة الباقية أبد الآبدين ودهر الداهرين ؟ وما تلك الآية المؤثرة التي لا تحجب صورتها الكاملة الجميلة عن الأبصار ؟ ولا حقيقتها الجليلة الجلية عن البصائر ؟

هي كتاب الله تعالى الذي أنزله على نبيه تفصيلا لكل شيء، حتى قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : ﴿ لو ضاع مني عقال بعير لرأيته في كتاب ٱلله تعالى ﴾ هذا هو المعجزة حقا، والرحمة العظمى صدقا، ونعمة الله الكبرى على جميع خلقه.

من أعظم معجزاته ﷺ القرآن المجيد :

لأن الله تعالى أنزله مشتملا على أخبار الأمم السالفة، وسير الأنبياء الماضية التي عرفها أهل الكتاب، وهو ﴿ ﷺ وآله﴾ أمي لا يقرأ ولا يكتب، لأنه ﴿ ﷺ وآله﴾ نشأ في بلد ليس بها عالم يعرف أخبار القرون الماضية، والأمم السالفة التي اشتمل عليها القرآن الكريم، ومن كان من العرب يقرأ ويكتب ويجالس الأحبار لم يدرك علم ما أخبر به القرآن، خصوصا عن المغيبات المستقبلة الدالة على صدقه لوقوعها على ما أخبر به عليه الصلاة والسلام.

وقد أعجز البلغاء لحسن تأليفه والتئام كلماته، بهرت العقول بلاغته، وظهرت على كل قول فصاحته، أحكمت آياته، وفصلت كلماته، فحارت فيه عقولهم، وتبلدت فيه أحلامهم،

وهم رجال النظم والنثر، وفرسان السجع والشعر، وقد جاء على وصف مباين لأوصاف كلامهم النثر، لأن نظمه لم يكن كنظم الرسائل والخطب، ولا أشعار وأسجاع الكهان، وقد تحداهم ودعاهم لمعارضته، والإتيان بأقصر سورة منه، وهو دليل قاطع على أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ لم يقل لهم ذلك إلا وهو واثق موقن أنهم لا يستطيعون ذلك لكونه من عند الله سبحانه، إذ يستحيل أن يقول ﴿ ﷺ وآله﴾ ذلك وهو

---

(1) سورة فصلت آية 52- 53 .

(2) سورة يونس آية 101 .

يعلم أنه هو الذي تولى نظمه، ولم ينزل عليه من عند الله ﷻ، إذ لا يأمن ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يكون في قومه من يعارضه وهم أهل فصاحة وخطابة، قد بلغوا الدرجة العليا في البلاغة، وهو من جنس كلامهم فيصير كذابا، ولو كان في استطاعة أحد منهم ذلك لما عدلوا عن ذلك إلى المحاربة، التي فيها قتل صناديدهم، ونهب أموالهم، وسبي ذراريهم، لأن النفوس إذا قرعت لمثل هذا استفرغت الوسع في المعارضة خلافا لمن قال : إنما لم تقع المعارضة منهم لأن الله تعالى صرفهم عنها مع وجود قدرتهم عليها، لأنه وإن كان صرفهم عنها فيه إعجاز لكن الإعجاز في الأول أكمل وأتم وهو اللائق بعظيم فضل القرآن.

وعلى مذهب من قال بالصرفة وأن المعارضة كانت في مقدور البشر فصرفوا عنها، أو أن الإتيان بمثله من جنس مقدورهم ولكنه لم يكن ذلك قبل ولا يكون بعد لأن الله تعالى لم يقدرهم ولا يقدرهم عليها، وبين المذهبين فرق بين، وعليهما جميعا، فترك العرب الإتيان بما في مقدورهم أو ما هو من جنس مقدورهم ورضاهم بالبلاء والجلاء والسباء والإذلال وتغيير الحال وسلب النفوس والأموال، والتقريع والتوبيخ والتعجيز والتهديد والوعيد، أبين آية للعجز عن الإتيان بمثله، والنكول عن معارضته، وأنهم منعوا من شيء هو من جنس مقدورهم، عندنا أبلغ في خرق العادة من كل معجزة أتى بها الرسل السابقون صلوات الله عليه وعليهم.

لأن كل معجزة يمكن للعقل أن يرى لها نظائر في الكون كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وخلق الطير من الطين، فإنا نرى في الكون من يعمى ثم يبصر، ومن يصاب بالمرض العضال ثم يشفيه الله بلا دواء أو على يد غير مؤمن، وترى أكثر الحيوانات يتولد من الطين فيكون قطعة طين ويصبح حيوانا كالجرذان (نوع من الفئران) ويكون كقطعة جلد بالية ويصبح حيوانا كالضفادع، وقد يقوم الميت بعد موته، وذلك شيء لا ينكره عاقل لكل معجزة من المعجزات التي أجراها الله على يد رسله صلوات الله وسلامه عليهم، يمكن للعقل الذي لم يرد الله أن يشهده أنوار الإيمان ولا دلائل النبوات أن يتأول كل معجزة منها، لأنها حادثة جزئية قد يحصل في الوجود العيني أمثالها عقلا.

ولكن عجز الأمة العربية بأجمعها عن الإتيان بأقصر سورة من القرآن مع أنهم فحول الفصاحة وشموس البيان، وأبطال السحر الحلال، حتى بلغ بهم العجز إلى أن بذلوا دماءهم وأموالهم وأعراضهم في عداوته ﴿ ﷺ وآله﴾، مع أنه كان يكفيهم لو استطاعوا أن يأتوا بمثل أقصر سورة وينالوا بذلك العز والشرف والمجد والسيادة. فأمة عجزت عن الإتيان بمثل ما هم أهله ورجاله وفحوله،

وعدلت عنه إلى الإلقاء بأنفسهم على ظبي السيوف لآية جلية على أن المعجزة بعجزهم عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه.

العجز عن الإتيان بمثل أقصر سورة :

دليل عجزهم أنه لما جاء الوليد بن المغيرة وكان يقال له : ريحانة قريش، وقال لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : اقرأ علي، فقرأ ﴿ ﷺ وآله﴾ قوله تعالى : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون﴾ [1] الآية، وقال له : أعده، فأعاد ذلك، فقال : والله إن له لحلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما هو بقول بشر، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه.

وفي رواية قرأ قوله تعالى : ﴿ حم ۞ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم۞ غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ﴾ [2] الآيات، فانطلق حتى أتى منزل أهله بني مخزوم فقال : والله كلام محمد ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، إلى آخر ما تقدم، ثم انصرف إلى منزل له.

فقالت قريش : قد صبأ الوليد، والله لتصبأن قريش كلها، فقال أبو جهل : إني أكفيكموه، فقعد على هيئة الحزين فمر به الوليد فقال له : مالي أراك كئيبا ؟ قال : وما يمنعني أن أحزن وهذه قريش قد جمعوا لك نفقة ليعينوك على أمرك، وزعموا أنك إنما زينت قول محمد لتصيب من فضل طعامه، فغضب الوليد وقال : أو ليس قد علمت قريش أني من أكثرهم مالا وولدا، وهل يشبع محمد وأصحابه من الطعام ؟ فانطلق مع أبي جهل حتى أتى مجلس بني مخزوم فقال : هل تزعمون أن محمدا كذاب فهل رأيتموه كذبكم قط ؟ قالوا : اللهم لا، قال : فتزعمون أنه مجنون فهل رأيتموه خرفكم ؟ – أي : أتى بالخرافات من القول – قالوا : لا، قال : تزعمون أنه كاهن فهل سمعتموه يخبر بما تخبر به الكهنة ؟ قالوا : لا، فعند ذلك قالت له قريش : فما هو يأبا المغيرة ؟ فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر.

---

(1) سورة النحل آية 90 .

(2) سورة غافر آية 1 .3 .

ولما أراد بعضهم معارضة بعض سوره – وقد أوتي من الفصاحة والبلاغة الحظ الأوفى – فسمع صبيا يقرأ في المكتب قوله تعالى : ﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر ﴾ [1] الآية، رجع عن المعارضة، ومحا ما كتبه وقال : والله ما هذا من كلام البشر.

هذا وكل جملة من القرآن معجزة، وقد حفظ من التبديل والتحريف على ممر الدهور، وقارئه لا يمله، وسامعه لا يمجه، بل لا يزال مع تكريره وترديده غضا طريا تتزايد حلاوته، وتتعاظم محبته، وغيره من الكلام – ولو بلغ الغاية – يمل مع التردد ويعادى إذا أعيد.

والقرآن العظيم يؤنس به في الخلوات، ويستريح بتلاوته من شدائد الأزمات، واشتمل على جميع ما اشتملت عليه جميع الكتب الإلهية وزيادة، وليس بين كل إنسان وبين أن يكاشف بأنوار القرآن الجلية إلا أن يتجرد من تشيعه لعادات قومه مما لصق بجوهر نفسه من كثائف ظلمات الأباطيل، ويرجع إلى إنسانيته الأولى قبل أن تلم بعقله ظلمات العقائد المضلة، ودخان العوائد المهلكة، ثم يتلوه بعد أن يكون قد علم مباديء ضوابط اللغة العربية، فإني على يقين أنه إذا قرأه بعد هذا لا يسعه إلا أن يسجد شكرا لله على ما أنعم به عليه من نور الهداية والبيان، مع يقيني أن هذا النور لا يمسه إلا المطهرون الذين سبقت لهم الحسنى من الله، ولا عبرة عند أهل العقل بمن انحطت هممهم الإنسانية حتى صاروا أقل من البهائم الراتعة، وأشر من الشياطين المردة : ﴿ ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾ [2] أسأل الله تعالى أن يزكي نفوسنا، إنه مجيب الدعاء.

القرآن الكريم دعوة وحجة :

ومن أعظم قدر القرآن أن الله تعالى خصه بأنه دعوة وحجة، ولم يكن هذا لنبي قط، إنما يكون لكل منهم عليهم الصلاة والسلام دعوة، ثم يكون له حجة غيرها، وقد جمعهما الله تعالى لرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ في القرآن فهو دعوة بمعانيه، حجة بألفاظه، وكفى الدعوة شرفا أن تكون حجتها معها، وكفى حجتها شرفا أن لا تنفصل عنها، وقد يسره الله سبحانه للحفظ.

([1]) سورة هود آية 44 .

([2]) سورة النور آية 40 .

والقرآن الكريم لا تنقضي عجائبه، ولا تشبع منه العلماء، ولا تزيغ به الأهواء، وقد تقدم لنا في كتاب : " شراب الأرواح " ما لفظه :

(القرآن الشريف النجاة من الهول في الدنيا والآخرة، والحظوة بالحسنى في الدنيا والآخرة، والقرب من الله سبحانه وتعالى ومن رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ في الدنيا والآخرة أن تحل حلال القرآن قولا وعملا، وأن تحرم حرامه قولا وعملا، فهو الإمام الحق، والنور الذي لا تشوبه ظلمة، وحبل الله تعالى الذي هو ممسوك بيمينه، من تمسك به وصله الله، بين رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بقوله وعمله وحاله أسرار القرآن, وكشف أنواره، ووضح مناهجه).

(القرآن القرآن، إخواني : موتوا به، واحيوا به, وناموا به، وتاجروا به ، واعملوا به، وأطيعوا ربكم سبحانه به، وكلوا به، واشربوا به، وازرعوا به، أي: لا تعملوا عملا حتى يظهر لكم من القرآن الشريف حكمه ، فإن أحل فاعملوا ، وإن حظر فامتنعوا. القرآن الشريف حجة الله تعالى وحجة خلقه، فمن كان القرآن حجة له ﷺ وأرضاه، ومن كان حجة عليه سخط الله عليه وأقصاه. القرآن اقرءوه بلسان الفكرة، وعين العبرة، وهمة الاتباع، وعزيمة العمل به، القرآن نجا به من فهمه عن الله تعالى وعن رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾، وهلك من فهمه بعلومه العقلية وأفكاره الدنيوية وحظوظه النفسانية. القرآن كلام الله تعالى ووصفه وأخلاقه وكمالاته وجمالاته وجلاله. القرآن ذات وأحكام، وأوصاف وأسماء،وعبرة وتنزل، ورموز وأسرار, ومحكم ومتشابه. إقرءوا القرآن لله تعالى : ﴿ الرحمن ۞ علم القرآن﴾ [1]،وصلى الله وسلم على من كان خلقه القرآن، وعلى آله وورثته والتابعين).

العصـمة :

هى ملكة نفسانية تمنع صاحبها من الفجور، وتتوقف على العلم بمثالب المعاصي، ومناقب الطاعات. إعلم أن الهيئة النفسانية إن لم تكن راسخة سميت : حالا، وإن كانت راسخة سميت : ملكة. والهيئة النفسانية التي تمنع صاحبها عن الفجور الذي هو ارتكاب المعاصي واجتناب الطاعات، إنما تصير ملكة بأن يعلم صاحبها مثالب المعاصي أي : معايبها، ومناقب الطاعات، لأن الهيئة المانعة من الفجور إذا تحققت في النفس وعلم صاحبها مايترتب على المعاصي من المضار وعلى الطاعات من

---

(1) سورة الرحمن آية 1، 2 .

المنافع تصير راسخة, لأنه إذا علم مثالب المعاصي ومناقب الطاعات يرغب في الطاعات، ويرغب عن المعاصي، فيطيع ولا يعصي فتصير هذه الهيئة راسخة.

وتتأكد هذه الملكة في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بتتابع الوحى على تذكر ذلك العلم. والاعتراض على ما يصدر عنهم سهوا، والعتاب على ترك الأولى، فإنه متى صدر عنهم شيء سهوا أو تركوا ما هو الأولى لم يترك مهملا، بل يعاتبون أو ينبهون عليه، ويضيق الأمر فيه عليهم بتأكيد تلك الملكة بعد الوحي وقبل الوحي، فالأكثرون من العلماء منعوا جواز الكفر وإفشاء الكذب والإصرار على الذنب لئلا يزول عن النبي الثقة بالكلية، وجوزوا صدور المعصية على سبيل الندور. وبعضهم أوجبوا العصمة مطلقا قبل البعثة وبعدها، خلافا للفضيلية (من الخوارج) فإنهم جوزوا على الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم المعاصي، واعتقدوا أن كل معصية كفر فجوزوا على الأنبياء الكفر. ومن الناس من لم يجوز الكفر ولكن جوز إظهار الكفر تقية، بل أوجبوه، لأن إظهار الإسلام إذا كان مفضيا إلى القتل كان الفناء للنفس في التهلكة وإلقاء النفس في التهلكة حرام لقوله تعالى : ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ [1].وإذا كان إظهار الإسلام حراما كان إظهار الكفر واجبا.

ومنع بأنه لو جاز إظهار الكفر تقية لكان أولى الأوقات به وقت ظهور الدعوة، لأن الناس في ذلك الوقت بالكلية منكرون له، وكان لا يجوز إظهار الدعوة لأحد من الأنبياء، فيؤدي إلى إخفاء الدين بالكلية. والحشوية لم يجوزوا الكفر ولا إظهاره وجوزوا الإقدام على الكبائر. وقوم منعوا أن تتعمد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الكبيرة، وجوزوا تعمد الصغائر.

العصمة للأنبياء بعد الوحي والعناية قبله :

العصمة واجبة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام بعد الوحي، وإن كانوا صلوات الله وسلامه عليهم تلاحظهم عين العناية قبل الوحي ملاحظة تجعلهم عليهم الصلاة والسلام مجملين بأكمل الأخلاق، خصوصا سيدنا ومولانا محمدا ﴿ ﷺ وآله﴾ الذي تولاه الله تعالى بولايته الخاصة الإلهية، فكان ﴿ ﷺ وآله﴾ من مولده الشريف عليه الصلاة والسلام وهو حقيقة الكمالات الأخلاقية الطاهرة، مجملا بأجمل معاني الجمالات الروحانية من الصدق والأمانة، والرحمة والصلة، والوفاء والكرم،

(1) سورة البقرة آية 195

والشجاعة والحلم، والإخلاص في عبادة الله سبحانه قبل النبوة، فكان ﴿ ﷺ وآله﴾ يتعبد في غار حراء.

فما من رسول من الرسل عليهم الصلاة والسلام إلا وكانت عصمته بعد النبوة، ولا يخلو قبل النبوة من حصول بعض المعاصي، أو حصول بعض الصغائر سهوا، ولكن سيدنا ومولانا مُحَمَّدا ﴿ ﷺ وآله﴾ حفظه الله بعنايته قبل النبوة، وعصمه بعدها عليه الصلاة والسلام. ومن قرأ سيرته ﴿ ﷺ وآله﴾ يعلم حق العلم أنه صلوات الله وسلامه عليه رحمة الله العامة، ونعمته العظمى، وسيد رسله على الإطلاق، وإمامهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ووجوب العصمة لهم صلوات الله وسلامه عليهم لأنهم لو صدر عنهم عليهم الصلاة والسلام ذنب لوجب اتباعهم فيه لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ (1) ولانقلبت المعصية طاعة. وكيف لا تجب لهم العصمة ؟ وقد قال الله تعالى : ﴿ يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين ﴾ (2) فإذا كانت زوجة النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ يضاعف لها العذاب من المعصية فكيف لا يكون النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ معصوما ؟ والذنب ظلم وقد قال الله تعالى : ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾ (3) والعهد : الأمانة، والنبوة أولى.

وأما قوله سبحانه وتعالى : ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم ﴾ (4) وقوله سبحانه: ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ (5) وما أشبهها، فذلك لأنه ﴿ ﷺ وآله﴾ رحمة الله العامة للناس، فكان صلوات الله وسلامه عليه لإشفاقه على الناس يحب صلوات الله وسلامه عليه أن يتألفهم

---

(1) سورة الأعراف آية 158 .

(2) سورة الأحزاب آية 30 .

(3) سورة البقرة آية 124 .

(4) سورة التوبة آية 43 .

(5) سورة الفتح آية 2 .

استجلابا لإقبالهم على الله تعالى والله هو الغني عن عباده، فكان هذا كعمل الحسن وترك الأحسن، وهو في الحقيقة بالنسبة لمقام رحمته الواسعة ونجاة عباد الله من غضب الله ومقته هو الأحسن، وقد أثنى الله سبحانه وتعالى عليه ﴿ ﷺ وآله﴾ بهذه المعاني الدالة على أنه رحمة الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بقوله سبحانه : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم﴾ [1] وقوله سبحانه : ﴿ ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ [2] فكل ما ورد من الآيات الدالات على العفو عنه والمغفرة له ﴿ ﷺ وآله﴾ إنما هو محمول على ما بينت لك، أما واقعة آدم عليه السلام فقبل النبوة، ولقوله تعالى : ﴿ ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾ [3] وهكذا كل ما حصل من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فمحمول على أنه قبل النبوة، أو على مقصد خاص يظهر سره لمن ذاق حلاوة الإيمان.

وإذا تقرر ذلك ثبت أن العصمة واجبة لرسل الله عليهم الصلاة والسلام، وإن خالفنا في ذلك من لا نأخذ بمذهبهم، فإن العصمة أساس الدين، وعليها تترتب كل معاني الرسالة، لأن الله تعالى قال : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ [4] وإجماع الأمة على أن مخالفة النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ بدعة مضلة، وأنه ﴿ ﷺ وآله﴾ واجب الاقتداء به، قال الله تعالى : ﴿ وما ينطق عن الهوى ۞إن هو إلا وحي يوحى۞ علمه شديد القوى ﴾ [5] فهو ﴿ ﷺ وآله﴾ معصوم في عمله كما هو معصوم في قوله، كيف لا ؟ وبعض أفراد أمته عليه الصلاة والسلام أخبر الله عنهم بقوله سبحانه : ﴿

([1]) سورة القلم آية 4 .

([2]) سورة آل عمران آية 159 .

([3]) سورة طه آية 122 .

([4]) سورة آل عمران آية 31 .

([5]) سورة النجم آية 3 ـ 5 .

أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ [1] وقوله تعالى :﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ [2] وقوله سبحانه : ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾[3].

ولما كان هذا المختصر إنما وضع لبيان أن الإسلام دين ووطن ونسب، وأن تلك المعاني قد ثبت بيانها مستوفاة في غير هذا المختصر من الكتب السالفة، اكتفيت بهذا النذر القليل، وقد بين الله تعالى أن المسلم قد يعتصم بالله تعالى فيكون معصوما به سبحانه لقوله تعالى : ﴿ ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم ﴾ [4] وأمر الله سبحانه وتعالى المسلمين أن يعتصموا بحبل الله جميعا فقال تعالى : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ﴾ [5] فإذا كان المسلم يعتصم بحبل الله، فالرسل صلوات الله عليهم أحق وأولى بالعصمة بالله، بل هي لهم فضلا من الله تعالى، ومن أنكرها هوى به الضلال إلى سحيق غضب الله تعالى، نعوذ بالله، فإن تصديق الله لهم بالمعجزة برهان على عصمتهم عليهم الصلاة والسلام.

الرسل عليهم الصلاة والسلام أفضل من الملائكة :

الرسل عليهم الصلاة والسلام أفضل من الملائكة، وإن خالفنا في ذلك الحكماء [6].

([1]) سورة الأنعام آية 82 .

([2]) سورة الحجر آية 42 .

([3]) سورة الحجر آية 40 .

([4]) سورة آل عمران آية 101 .

([5]) سورة آل عمران آية 103 .

([6]) هم فلاسفة الإسلام أمثال : الفارابى وابن سينا وابن رشد، وقد يطلق لفظ : الحكماء، على فلاسفة الإغريق أو متابعيهم في مذاهبهم، فأرسطو وأتباعه يسمون بالحكماء المشائين، وأما أفلاطون وأتباعه فيسمون بالحكماء الإشراقيين

والمعتزلة، وأفضليتهم عليهم بدلائل أربعة :

الدليل الأول : أنه سبحانه وتعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام، وهذا السجود سجود خدمة لا سجود عبادة، فلو لم يكن آدم عليه الصلاة والسلام أفضل من الملائكة لما أمرهم الله سبحانه وتعالى بالسجود له عليه الصلاة والسلام

الدليل الثاني : أن سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام أعلم من الملائكة بدليل الآية الكريمة وهي قوله تعالى : ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ۞ قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم۞ قال يا آدم أنبئهم بأسمآئهم فلما أنبأهم بأسمآئهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾ [1] فكان سيدنا آدم عليه السلام أفضل من الملائكة صلوات الله عليهم لقوله سبحانه : ﴿ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ [2].

الدليل الثالث : أن طاعة البشر أشق من طاعة الملائكة، لأن البشر مجبولون على صوارف عن الطاعات وموانع عنها من الشهوة والغضب والوسوسة الداخلة والخارجة، وعبادة الملك فطرية، ولقوله عليه الصلاة والسلام : (أفضل الطاعات أشقها).

الدليل الرابع : قوله تعالى :﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ﴾[3] فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام أفضل العالمين، والملائكة من العالمين.

---

(1) سورة البقرة آية 31 . 33 .

(2) سورة الزمر آية 9 .

(3) سورة آل عمران آية 33 .

الرد على من يقول بغير هذا :

1- واحتج مخالفنا بقوله تعالى : ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملآئكة المقربون ﴾ (1) فبلاغة القرآن تقتضي الترقي، فكأن الملائكة أفضل من المسيح عليه السلام، والحقيقة أن النصارى ادعوا أن المسيح ابن الله، ففي ذلك من الفرية على الله تعالى ما فيه، وكان المقام مقام الحجة عليهم وبطلان الدعوة، فأثبت أن الأرواح المجردة التي ليس لها أب ولا أم عبيد الله تعالى لا يستنكفون عن عبادته، وكذلك المسيح عليه السلام الذي هو مولود من أم أحق أن يكون عبدا لله مخلوقا له سبحانه كما خلق الأنبياء، وفى ذلك من قيام الحجة على بطلان دعواهم ما فيه لمن تدبر، لأنهم - أخزاهم الله تعالى - نسبوا المسيح إلى أنه ابن الله لأنه ولد من غير والد، فأضلهم الشيطان وسول لهم أن كل مولود لابد أن يكون له والد، وعلى هذا فإما أن يكون ابن زنا وذلك مستحيل عادة وعقلا لما أتى به من المعجزات الباهرة الدالة على أنه عليه السلام بار، لأن الله تعالى لا يستجيب للفاجر وقد استجاب الله له استجابته لأنبيائه عليهم الصلاة والسلام، ولم يبق في نظرهم لما زينه لهم الشيطان إلا أنه ابن الله تعالى جهلا بعجائب قدرة القادر، وغرائب حكمة الحكيم سبحانه، فأقام الله عليهم الحجة البالغة القاصمة الفاصمة بقوله تعالى : ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله﴾(2).

فكأنه سبحانه يقول لمن ادعى بنوة عيسى عليه السلام لله سبحانه لأنه لا والد له ، أني خلقت أرواحا مجردة بكلمة كن من لا شيء وهم عباد لى مقهورون بقهرى، مربوبون لى، بلا أب ولا أم لهم، ومن كان قادرا أن يخلق أرواحا نورانية مجردة من لا شيء ويكونون عبادا أذلاء لعزته لا ينتسبون لذاته العلية بالنبوة، تنزه وتعالى عن أن ينتسب إليه سبحانه إنسان مولود من إنسانة بالبنوة، وإذا كان المسيح لأنه لا أب له يدعي المبطلون أنه ابن الله، فكان من الأولى الأرواح المجردة، بل آدم أولى لأنه لا أم له ولا أب من الإنسان، بل وحواء فإنها خلقت بلا أم ولا أب بمعنى الزوجية.. فالآية الشريفة ليست حجة لمن يرى أفضلية الملائكة على الأنبياء، لأن سياقها تنزيه الجناب العلي عن نسبة الولد لذاته العلية تقدست وتعالت، فكأن المعنى والله أعلم : إن المسيح الذي له أم وتدعون أنه ابن الله لا يستكبر أن

---

(1) سورة النساء آية 172 .

(2) سورة النساء آية 172 .

يكون عبدا لله، بل ولا الأرواح المجردة الطاهرة النورانية الروحانية التي لم تخلق من أب وأم، لا يستكبرون أن يكونوا عبيدا لله سبحانه وتعالى أذلاء لعزته، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

2- وما يراه مخالفنا دليلا له من تقديم ذكر الملائكة قبل الأنبياء في القرآن الشريف فإنه ليس من الحجة البينة، إذ يجوز تقديمهم لسبق وجودهم.

3- وقوله تعالى : ﴿ إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون ﴾[1] لا يفيد تفضيلهم إلا على من يستكبرون عن عبادة الله من بني آدم، وأما الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم – بل والصديقون – أذلاء خاشعون لله.

([1]) سورة الأعراف آية 206 .

4- وأما قوله تعالى : ﴿ قل لا أقول لكم عندي خزآئن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون ﴾ [1] فهذه الآية الشريفة ليست نصا في تفضيل الملك على النبي ﴿ ﷺ وآله﴾، ولكنها دالة على أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ يتبع ما يوحى إليه من ربه، والملك لا يتبع الوحي بدليل قوله تعالى : ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلي ﴾ بل هي حجة على أن النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ أفضل من الملك.

5- وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين ﴾ [2] أي : إلا كراهة أن تكونا ملكين، فهي وإن دلت على أن الملك أفضل من آدم وحواء فإنها مقيدة بوقت مخاطبة إبليس لعنة الله عليه لهما، ثم بعد أن اجتباهما ربهما صار آدم عليه السلام أفضل من الملائكة.

6- وما أورده المخالف لنا من أن الملك معلم للنبي ورسول من قبل الله تعالى له فهو أفضل منه، كما أن النبي أفضل من أمته لأنه مرسل من قبل الله تعالى لهم ومعلم لهم، فهذا ليس مقياس، لأن النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ مع أمته لا يقاس عليه، وذلك لأن الملك إذا أرسل رجلا إلى جماعة ليتولاهم ويحكم فيهم يكون أفضلهم، ولكن إذا أرسل الملك واحدا إلى وليه على الجماعة ليبلغه رسالة الملك لا يكون ذلك الشخص الواحد أفضل من المرسل إليه، الذي أقامه الملك حاكما ومعلما. هذا وإن الملائكة أرواح طاهرة مطهرة من بواعث الشهوة والحظ ونجاسات الأهواء والآمال، كما قال الله تعالى : ﴿ لا

---

(1) سورة الأنعام آية 50 .

(2) سورة الأعراف آية 20 .

يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ [1] وفضل الله المجاهدين على القاعدين درجة، وكلا وعد الله الحسنى.

الإنسان الكامل كعبة الأرواح العالية :

هذا ما قرره العلماء، ومن شهد مشهد الأسماء والصفات بعد التزكية والتحلي بمشهد أهل الحكمة ثم التوحيد ثم التوفيق، يعلم أسرار الحكمة وأنوار القدرة المنبلجة في كل رتبة من رتب الوجود، ولديها يتحقق أن الإنسان الكامل كعبة الأرواح العالية، وسدرة منتهى علوم الخلائق من عالم الإنس والجن والملائكة الروحانيين أجمعين.

والأولى ترك الاعتراض على أهل كل مشرب، فإن لكل فرقة مشهد تجلت لهم حقيقته، ولا تقوم لهم به الحجة على غيره إلا إذا تزكت النفس التي أهلت لشهوده. ومن أراد أن يجمل إخوته المؤمنين بما جمله الله به من العلم والحكمة والمعرفة، فالأولى له ترك الجدل الذي ذمه الله تعالى وذم أهله، وعليه أن يهتم بتأليفهم وتزكية نفوسهم إن كان ممن منحهم الله البيان والعمل كما قال الله تعالى : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ [2] فإذا تزكت نفوسهم ضرب لهم الأمثال المشوقة إلى ما يريد أن يبين لهم من الحق، فإذا اطمأنت قلوبهم شرح لهم ما هم في حاجة إليه بقدرهم، وهي طريق الربانيين الراسخين في العلم، ولا يشوش على إخوانه المؤمنين ويدعوه جهله إلى تفرقتهم فيكون من الذين قال الله فيهم : ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء﴾ [3] والله سبحانه وتعالى يمنحنا التوفيق لما يحب، إنه مجيب الدعاء.

([1]) سورة التحريم آية 6 .

([2]) سورة آل عمران آية 104 .

([3]) سورة الأنعام آية 159 .

الكرامات الباهرة :

لا يختلف مسلم في اعتقاد أن الله يكرم من شاء بما شاء وهو الكريم سبحانه، ويتفضل على من شاء بما شاء وهو ذو الفضل العظيم، ولكن الخلاف بين من جوز الكرامة ومن أنكرها في إظهار الأمر الخارق للعادة بطلب الولي، وإلا فمن أنكر إكرام الله لأوليائه بدون طلبهم وتفضله عليهم من حيث لا يحتسبون، وإنزال الأمطار بدعائهم ودفع البلاء وشفاء المرضى، وبسط الرزق بابتهالهم إلى الله تعالى، فإن أصغر مسلم – فضلا عن أكمل المؤمنين – يستجيب الله له إذا سأله، وينتقم له ممن ظلمه. ولو قيل لك : إن وليا من أولياء الله تعالى دعا الله فأزال الأمراض وأنزل الأمطار أو انتقم من الظالمين، فصدق، قال الله تعالى : ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء﴾ [1] فلم يبق مسلم إلا وهو يعتقد أن الله يكرم عباده ويعطيهم ما يسألون.. ومنكر الكرامة لم ينكر إكرام الله لعباده، وإنما ينكر أن يكون الولي مثل النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ في إظهار الأمر الخارق للعادة عند طلبه، ولو أن المنكر زاده الله علما على علمه أنزل الولي في منزلته، والنبي صلوات الله وسلامه عليه في مقامه العلي، وفهم أن نور الولي إنما هو سراج مقتبس من شمس النبي ﴿ ﷺ وآله﴾، وأنه لا يكون وليا يكرمه الله بخوارق العادات إلا إذا استغرق في محبة الله ورسوله، وصار الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأقامه الله تعالى وارثا لرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ يبين حجج الله وبيناته، فانيا عن حظه وهواه، يبتغي فضل الله ورضاه، وعند ذلك تكون الكرامة منه معجزة لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾. وإليك آيات كتاب الله تعالى : ﴿ قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾ [2] والذي عنده علم من الكتاب هو آصف بن برخيا [3]، كان وليا من أولياء الله تعالى أظهر الأمر الخارق للعادة، فكانت الآية معجزة لسيدنا سليمان وكرامة من الولي. وقال الله تعالى : ﴿ ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا

([1]) سورة النمل آية 62 .

([2]) سورة النمل آية 40 .

([3]) آصف بن برخيا : كان وزيرا لسيدنا سليمان عليه السلام، وقد ذكر المفسرون أنه رجل آتاه الله الاسم الأعظم الذي إذا دعا به أجابه، وقيل غير ذلك . انظر تفصيل ذلك في تفسير الطبري جـ 19 ص 94، قصص الأنبياء للثعلبي ص 281، ودائرة المعارف الإسلامية حرف الألف .

﴾ [1] وأهل الكهف أولياء، وقد أكرمهم الله. وقال تعالى : ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أني لك هذا قالت هو من عند الله﴾ [2] و مريم صديقة، حتى انشرح صدر سيدنا زكريا أن يسأل الله غلاما زكيا بما شهده من إكرام الله للصديقة، فأجاب الله سبحانه سؤاله حقيقة أن الأنبياء يظهرون المعجزة لإثبات نبوتهم وتصديقهم لما جاءوا به من عند الله، أما الولي فإن الله يظهر الكرامة على يده لدفع ضرر أو جلب خير، وهو أمر لا يجعل الكرامة تلتبس بالمعجزة، وشتان بين من يقول : أني رسول الله إليكم وحجتي أن أشق القمر،أو أحيي الموتى، أو يشهد لى الضب ؛ وبين رجل يرى إخوته المؤمنين في بلاء فيسأل الله زواله، أو في حاجة فيسأل الله قضاءها.. ومن هنا يظهر أنه لا خلاف بين المسلمين، ومنكر الكرامة إنما نظر إلى علو مقام النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يساويه ولي وهو نظر أهل العقل، ومثبت الكرامة نظر إلى أن الولي سر من أسرار النبي ﴿ ﷺ وآله﴾، وأن الله إنما يكرم النبي في ذات كل ولي من المسلمين، وهو نظر بعيون الإيمان واليقين، وكلا وعد الله الحسنى.

عقيدة المؤمن :

هذا ما يمكن أن يرسم بالكتابة، ويبين بالعبارة، حتى إذا انعقدت القلوب عليه أشرقت عليها أنوار مكون الأكوان، فتتميز مراتب الوجود، ويحصل للنفس شوق إلى علم الآيات الظاهرة في الكائنات، فيجول الفكر جولة باحث بنظر سديد فيما خفى في تلك الآثار سر قوله تعالى :﴿ قل انظروا ماذا في السماوات﴾ [3] فتلوح عليه أنوار الأسرار الدالة على قدرة القادر البديع الحكيم، ويأنس بأنوار الملكوت الأعلى، وتجلى له العوالم في كل مرتبة من مراتب الوجود ؛ وكلما انكشفت له مرتبة من مراتب الوجود علم من نعم الله عليه سبحانه وتعالى وأياديه سبحانه الواصلة إليه علما لم يكن يعلمه من قبل، قال تعالى : ﴿ وقل رب زدني علما﴾ [4] ويترقى في تلك المقامات العلية حتى يبلغ من الكمالات

([1]) سورة الكهف آية 25 .

([2]) سورة آل عمران آية 37 .

([3]) سورة يونس آية 101 .

([4]) سورة طه آية 114 .

ما يصير به حاضرا مع الله سبحانه وتعالى، ويرى كل ما سواه سبحانه وتعالى مقهورا مربوبا لله عز وجل، وبقدر ما ينكشف له من تلك الأسرار يكون تعظيمه للجناب المقدس، وإجلاله لأحكامه، واقتداؤه برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، ويكون في مقام بين الرغبة والرهبة، لا يعظم غير الله، ولا يشتغل بغير ذكره، ولا يحب إلا من والاه سبحانه وتعالى.

فهذه العقيدة تجعل الإنسان عظيما في نفسه، لا يذل لغير مولاه الذي خلقه وأبدعه، لأنه يرى أن كل من سوى الله عبيد أمثاله، لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، يحب من أحب الله تعالى، ويعظم من عظمه الله تعالى، ويطيع من أمر الله بإطاعته فيكون حبه لله وتعظيمه لله وطاعته لله، يرى في كل شيء آية دالة على عظمة المبدع الحكيم القادر، ودليلا ساطعا على ذل هذا الشيء وقهره بقهر الكبير المتعال، فيكون كل شيء في عين من اعتقد تلك العقيدة – وإن عظم خلقا وكمل خلقا وعم النفع به – صغيرا في عين من تجمل بهذه العقيدة الإيمانية، لاعتقاده أن هذا الجمال والكمال مفاض من جناب القدس فضلا من الله تعالى ورحمة، فيشهد بعين رأسه هذا المخلوق، وبنور سره أنوار الخلاق العظيم، وأسرار ممد الكائنات بحقيقة الإيجاد والإمداد، فتكون قيومية الحق وأنوار قدرته وأسرار حكمته مشهد عيون سره، وتلك الآثار الدالة على الآيات مشهد عيون بصره، ومدرك حواسه، فلا يحصل له لبس لانبلاج أنوار العقيدة الحقة على عيون سره، ولا طيش لكمال يقينه بمقتضيات كمالات ربه، ويكون الكون وما فيه وسائل قرب، وأقداح طهور لحب، وشموسا ماحية لظلمات الأوهام و كثائف العقول، وإن المؤمن بهذه العقيدة – وإن تقلب جسمه في المعاصي – فقلبه مشرق بنور التوحيد، يطمئن بالمبديء المعيد.

كثائف الظلمات :

أما غيره ممن لم تشرق على قلبه أنوار العقيدة الإسلامية – وإن كان جسمه متقلبا في الطاعات – فقلبه منعقد على كثائف الظلمات، ولذلك ترى غيرنا – جماعة المسلمين – يرون مخلوقا مثلهم إلها يعيد وتحتار فيه عقولهم الكثيفة السخيفة، فمنهم من يقول : هو الله، ومنهم من يقول : هو ابن الله، ومنهم من يقول : حل فيه الإله. وهي عقيدة فطر عليها بنو الإنسان من الجهالات القديمة، وهاوية هوت فيها العقول التي تسلط عليها الوهم بنظر أعمال يحدثها الله على يد من يشاء، ومنافع يودعها الله ما شاء ومن شاء، وأسرار يظهرها الله سبحانه متى شاء بمن شاء، ليكشف للعقول غرائب قدرته ، وعجائب حكمته، فتنكسف أنوار العقول عن أن تخرق حجب الأوهام ، وتنعقد القلوب على

الشرك أو الجحود أو الكفر، نعوذ بالله تعالى من حال يشهد فيه الإنسان الجناب المقدس محيزا، أو مكيفا، أو مشبها، أو معدودا، أو محدودا، أو والدا، أو مولودا.

ظهر لك أن عقيدة الإيمان تجعل المؤمن عزيزا في نفسه، كبيرا على أن يزل لغير ربه، عليا على أن يشهد نافعا أو ضارا سوى مبدعه وخالقه، أشرق على قلبه نور التوحيد فجعله إنسانا كاملا.

وغير المسلم انحط عن مكانة الإنسانية، فجعل الله حجرا أو كوكبا أو إنسانا مثله، ويا ليته أخفى تلك الضلالات التي تقشعر لها جلود العقلاء، وتضطرب لها قلوب أهل القلوب، ولكنه قام يؤيد تلك الضلالات بما هو أضل منها، فمنهم من يقول : المسيح ابن الله، أو : هو الله، أو : حل فيه الإله.

ومن هو المسيح بن مريم ؟ إنسان كان يأكل ويشرب، ويبول وينام، ويخاف ويأمن ويفرح، وتنزه الجانب المقدس عن أن يحيط به العرش العظيم فضلا عن أن يحويه سبحانه جسم إنسان أو جسم إنسانه، وتعالى علوا كبيرا عن أن يحتاج إلى طعام يقوم به صلبه،.

أو ألم يؤلمه من حصر بول أو غائط، وهو سبحانه الغني عن كل من سواه، المفتقر إليه ﷻ كل من عداه، وما المسيح بن مريم إلا آية من آياته، مقهور بقهره، ذليل لعزته، قال الله تعالى : ﴿ تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا۝ أن دعوا للرحمن ولدا۝ وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا۝ إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا ﴾[1]

وأقبح من تلك العقيدة اعتقاد من يصنع حجرا بيديه ثم يقف له ذليلا خاشع القلب والجسم، ويعتقد أنه هو الإله الخالق القادر، سبحان الله، ما أعمى عيون البصائر !! ولله الحمد على الإسلام في تنزيه ذاته سبحانه عن الولد والوالد.

([1]) سورة مريم آية 90. 93 .

رفعة الإنسان بالإسلام :

هذا هو سر المقابلة بين عقيدة الإسلام التي تجعل الإنسان فوق الملائكة قدرا لا يخشى إلا الله، ولا يرجو إلا الله، ولا يعتمد على غير الله، ولا يبتغي الفضل والرضا إلا من الله، وبين العقائد الأخرى التي تجعل الإنسان في أسفل سافلين، ويتخذ إنسانا مثله إلها له، أو يصنع آلهة من الجمادات أو النباتات، أو يعبد الكواكب أو البهائم

نعم، رفع الإسلام الإنسان بما كشف له من أسرار الغيب عن حكمة إيجاده وسر إمداده، لأنه لؤلؤة العقد، وخليفة عن ربه، خلقه الله على صورته [1]، وسخر له جميع ما في سماواته وأرضه، حتى بلغ الإنسان منزلة بالإسلام يكون فيها مع الله سبحانه والله تبارك وتعالى معه، ومقاما من المقامات تكون فيها الملائكة في خدمته، فكيف يرضى الإنسان بالذل بعد العز ؟ وبالسفل بعد الرفعة ؟ وبغضب الله ومقته بعد محبته ورضوانه ؟ هذه نتائج عقائد الكفر، قال تعالى : ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة۞ ولو ألقى معاذيره ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا﴾[3].

الأصل الذي أسس عليه الدين :

من المقرر أن الأصل الذي أسس عليه الدين وتفرعت عليه فروعه، وتجمل منه السالكون بجمال المشاهد العلية، وأحوال مقامات أهل اليقين ؛ هو العقيدة الحقة التي مأخذها كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾، ومتى انعقد القلب على تلك العقيدة الحقة كوشف بأنوار ذي العزة والجلال فامتلأ خشية منه سبحانه، وشهد جمال الحكيم المنعم المتفضل فانجذب إلى حضرته بالمحبة الخالصة، فكانت الخشية عن اليقين نور قلبه، والمسارعة للقيام بما أوجبه الله سبحانه ورغب فيه جمال

(1) مصداقا للحديث الشريف : " خلق الله آدم على صورته " وهذا الحديث رواه الشيخان وأحمد عن أبي هريرة، انظر صحيح البخاري ج 1 ص 102، وفتح الباري ج 7 ص 175، شرح النووي لمسلم ج17 ص 178.

(2) سورة القيامة آية 14 . 15 .

(3) سورة الكهف آية 17 .

ظاهره، وذلك لأن أعمال الجوارح المجترحة عن مشهد القلب المعمور بالعقيدة الحقة، المشرف على العزة وقدس الجبروت الأعلى بعد مشاهدة الملكوت ومعاينة الآيات في الملك، ولديها يكون المسلم عبدا عابدا شاهدا مشهودا، مسارعا إلى مغفرة من ربه وجنات عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، لا يتنفس نفسا إلا سطعت أنوار أنفاسه على عالم الملكوت الأعلى، فيكون نور أنفاسه لأهل الملكوت كنور الشمس لأهل الأرض، تتزين بأنفاسه الجنات، وكيف لا ؟ وفي كل نفس من أنفاسه مغفرة من الله ورضوان، جمل الله قلوبنا بحقيقة اليقين ونور التمكين، وظاهرنا بحلل عباده المنعمين، وجمال أوليائه المقربين، إنه مجيب الدعاء.

الباب الثالث
العبادات
الفصل الأول
تعريف العبادة وأقسامها والغرض منها

تعريف العبادة :

هي فعل اختيارى، مناف للشهوات البدنية، يصدر عن نية يراد بها التقرب إلى الله تعالى إطاعة للشريعة. فقولنا : فعل اختياري، يخرج منه الفعل التسخيري والقهري، ويدخل فيه الترك الذي هو على سبيل الاختيار، فإن الترك ضربان :ضرب على سبيل الاختيار وهو فعل، وضرب هو العدم المطلق لا اختيار معه بل هو عدم الاختيار وليس بفعل، وبقولنا : مناف للشهوات البدنية، يخرج منه ما ليس بطاعة. وأما الأفعال المباحة كالأكل والشرب ومجامعة المرأة فليست بعبادة من حيث أنها شهوة، ولكنها قد تكون عبادة إذا تحرى بها حكم الشريعة. وإنما قيل : تصدر عن نية يراد بها التقرب إلى الله تعالى، لأنها إن خلت عن نية أو صدرت عن نية لم يقصد بها التقرب إلى الله تعالى بل أريد بها المراء لم تكن أيضا عبادة وإنما قيل : طاعة للشريعة، لأن من أنشأ من نفسه فعلا ليس بسائغ في الشريعة لم يكن عبادة وإن قصد به التقرب إلى الله تعالى

فالعبادة إذا هي فعل بجميع الأوصاف كلها، والعبادة تكون محمودة إذا تعاطاها الإنسان طوعا واختيارا لا اتفاقا واضطرارا، ودائما لا في زمان دون زمان، ولأجل أن ذاتها حسنة لا لأجل غيرها، فمن أتمها على الوجه الأكمل فهو الموصوف بقوله تعالى : ﴿ وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما﴾[1] وقال ﷺ : (أخلص يكفيك القليل من العمل) [2] ولا

([1]) سورة النساء آية 146 .

([2]) هذا الحديث أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ وقد أورده الغزالي بلفظ : " أخلص العمل يجزك منه قليلا " الإحياء ج 4 ص 176 .

يقبل تعالى إلا العمل الخالص لوجهه كما قال تعالى : ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ [1] فإن من فعل خيرا نحو أن يصلي لأنه اتفق اجتماعه مع المصلين فسايرهم، أو أكره أن يصلي، أو صلاها في شهر رمضان مثلا دون سائر الأوقات، أو لأجل أن ينال بها جاها أو مالا فليس ذلك ممن يستحق بها مَحْمَدة. وكذا من ترك قبيحا إما اتفاقا أو اضطرارا أو خوفا، أو في زمان دون زمان، أو لأن ينال بذلك أمرا دنيويا فليس بمحمود. ولهذا قال الله تعالى : ﴿ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ [2] تنبيها منه سبحانه على أن من لم ينفق ماله هكذا ويعلوه خوف من الفقر وحزن على الإنفاق فلا يحصل له بذلك فضيلة، ثم قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ [3].

أقسام العبادة :

1. العبادة علم وعمل :

العبادة ضربان :علم وعمل، وحقهما أن يتلازما لأن العلم كالأس والعمل كالبناء، وكما لا يغني أس ما لم يكن بناء ولا يثبت بناء ما لم يكن أس، كذلك لا يغني علم بغير عمل ولا عمل بغير علم، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ [4] والعلم أشرفهما لكن لا يغني بغير عمل، ولشرفه قال رجل للنبي ﷺ : أيما الأعمال أفضل يارسول الله ؟ فقال :

---

(1) سورة الزمر آية 3.

(2) سورة البقرة آية 262 .

(3) سورة البقرة آية 264 .

(4) سورة فاطر آية 10 .

(العلم)، فأعاد عليه السؤال، فقال : (العلم)، فقال الرجل في الثالثة : أسألك عن العمل لا عن العلم، فقال عليه الصلاة والسلام : (عمل قليل مع ٱلعلم خير من عمل كثير مع ٱلجهل) وقال عليه الصلاة والسلام : (طلب ٱلعلم فريضة علىٰ كل مسلم) [1].. فالعلم ضربان : نظري وعملي

فالنظري : ما إذا علم كفى ولم يحتج فيه بعده إلى عمل، كمعرفة وحدانية الله تعالى، ومعرفة ملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ومعرفة السموات والأرض وما أشبه ذلك.

والعملي : إذا علم لم يغن حتى يعمل به، كمعرفة الصلاة والزكاة والجهاد والصوم والحج وبر الوالدين.

والأعمال ثلاثة أضرب : عمل يختص بالقلب، وعمل يختص بالبدن، وعمل مشترك فيه البدن والقلب، وقد فصلت هذا الموضوع في كتاب : (النور المبين) [2] فراجعه إن شئت والعلم إذا نظر إليه من حيث تحصيله فاكتسابه عمل، وإذا نظر إليه وقد اكتسب وتصور في القلب خرج في تلك الحال عن أن يكون عملا، وللإنسان في استفادة العلم وإفادته ثلاثة أحوال : حال استفادة فقط، وحال استفادة ممن فوقه وإفادة لمن دونه، وحال إفادة فقط. وكل من يستحق أن يوجد مفيدا غير مستفيد ففوق كل ذي علم عليم إلى أن ينتهي الأمر إلى علام الغيوب. فقد نبه تعالى على الحاجة إلى الاستفادة بما حكاه من قول سيدنا موسى عليه السلام لصاحبه : ﴿هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا ﴾ [3] ونبه بما ذكر في قصة سيدنا سليمان عليه السلام عن الهدهد بقوله : ﴿ أحطت بما لم تحط به ﴾ [4] أن الكبير قد يفتقر إلى الصغير في بعض العلوم، فإذا الإنسان ما دام حيا يجب ألا

([1]) هذا الحديث رواه ابن ماجه من حديث أنس .

([2]) تطلب جميع تراث الإمام المجدد السيد مُحَّد ماضي أبو العزائم عليه السلام من مكتبه دار الكتاب الصوفي التابع لمشيخة الطريقة العزمية 114 شارع مجلس الشعب . القاهرة .

([3]) سورة الكهف آية 66 .

([4]) سورة النمل آية 22 .

يخرج عن كونه مستفيدا ومفيدا، كما قال عليه الصلاة والسلام : (الناس عالم ومتعلم وما سواهما همج)[1].

2 – الواجب والمندوب :

ومن وجه آخر ضربان : واجب ومندوب، فالواجب يقال له : العدل، والمندوب يقال له : الإحسان. وهما المذكوران في قوله تعالى : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والأحسان ﴾ [2] فالفرض أو العدل تحرى الإنسان ما إذا عمله أثيب وإذا تركه عوقب. والندوب أو الإحسان تحري الإنسان ما إذا عمله أثيب وإذا تركه لم يعاقب.. والإنصاف من العدل والتفضل من البر والإحسان، فالإنصاف هو مقابلة الخير من الخير والشر من الشر بما يوازيه، والتفضل والبر مقابلة الخير أكثر منه والشر بأقل منه، فالإحسان والتفضل احتياط في العدالة والإنصاف ليأمن به من وقوع خلل فيه، وذلك أنك إذا زدت في إعطاء ما عليك ونقصت في أخذ مالك فقد احتطت وأخذت بالعزم كدفع زيادة زكاة إلى الفقير، وترك ما أحل لك من مال اليتيم، فالعدالة إن كانت فالتفضل أحسن منها، وكذلك قال تعالى فيمن استوفى حقه فتحرى العدالة : ﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل﴾ [3] وقال سبحانه بعد : ﴿ وأن تعفوا أقرب للتقوى﴾ [4] وقال عز وجل : ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾ [5] إشارة إلى

([1]) روى الطبراني عن ابن مسعود : " الناس رجلان : عالم ومتعلم، ولا خير فيما سواهما " ورواه الديلمي عن ابن عباس بلفظ : " الناس عالم ومتعلم ولا خير فيما بينهما من الناس " وروى ابن ماجه عن أبي أمامه " العالم والمتعلم شريكان في الخير، ولا خير في سائر الناس " أي : بقيتهم بعدهم .

([2]) سورة النحل آية 90 .

([3]) سورة الشورى آية 41 .

([4]) سورة البقرة آية 237 .

([5]) سورة البقرة آية 237 .

أن الإحسان حسن والتفضل أحسن، وقال ﷻ : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ [1] فالإنسان إنما يكون محسنا متفضلا بعد أن يكون عادلا منصفا

فأما من ترك ما يلزمه ثم تحرى ما لا يلزمه، فإنه لا يقال له متفضل، ولا يجوز تعاطي التفضل إلا لمن كان مستوفيا وموفيا لنفسه، أما الحاكم المستوفي والموفي لغيره فليس له إلا تحري العدالة والنصفة.

3 – العلوم من حيث الكيفية :

والعلوم من حيث الكيفية ضربان : تصور وتصديق، فالتصور هو أن يعرف الإنسان معنى الشيء صح عنده ذلك بدلالة أم لم يصح، كمن عرف الصلاة وشرائطها وإن لم تثبت صحتها عنده بدلالة، والتصديق هو أن يتصور الشيء ويثبت عنده بدلالة تقتضي صحته.

والتصديق على ثلاثة أضرب :

1 – إما بغلبة الظن، وهو أن يكون عليها دلالة وقد يعترضها شبه توهنها أو تبطلها، قال تعالى : ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ [2].

2 – وإما بعلم اليقين، وهو أن يصير بحيث يعلم ويعلم أنه يعلم ولا تعترضه شبه توهنه، كالعلم مثلا أن 3 + 3 = 6 وأنه لا يصح أن يكون أكثر من ذلك أو أقل، قال الله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ﴾ [3].

3 – وإما بعين اليقين، وهو أن يرى بعقله الشيء ويعاينه ببصيرته في حال اليقظة والنوم، وقد نبه الله تعالى على هذه الوجوه بقوله سبحانه : ﴿كلا سوف تعلمون ۝ ثم كلا سوف تعلمون ۝ كلا لو تعلمون علم اليقين ۝ لترون الجحيم ۝ ثم لترونها عين اليقين ﴾ [1]

([1]) سورة يونس آية 26 .

([2]) سورة الأعراف آية 201 .

([3]) سورة الحجرات آية 15 .

أما التصورات المجردة فللعامة الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾ (2) وأما غلبة الظن فللعامة الذين مدحهم الله تعالى بقوله : ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم﴾ (3) وأما علم اليقين فللخاصة، وأما عين اليقين ففي الدنيا للأنبياء ولبعض الصديقين، وإلى نحوه أشار ﷺ بقوله : (تنام عيني ولا ينام قلبي) وبقوله ﷺ : (إني أرى من خلفي كما أرى من قدامي) وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجه : (لو كشف ٱلغطاء ما ٱزددت يقينا).

الغرض من العبادة :

للعبادة حكم كثيرة لا تحصى منها تطهير النفس وجلب صحتها. لم يكلف الله الناس عبادته لينتفع هو تعالى بها انتفاع المولى باستعباد عبيده واستخدام خدمه، فإن الله غني عن العالمين، ولا ليؤدبهم فقد قال تعالى : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ (4) بل كلفهم سبحانه ليزيل أنجاسهم وأمراضهم النفسية، لينالوا بفضله ورحمته حياة أبدية، وسلامة باقية سرمدية، فإن من ولد يكون ميتا بالإضافة إلى أصحاب الدار الآخرة، وفاقدا للعين التي بها يعرفهم، والسمع الذي به يسمع تحاورهم، واللسان الذي به يخاطبونه وبه يخاطبهم، والعقل الذي به يعقل عنهم.

فليس تلكم الحياة العين والسمع وما للإنسان في الحياة الدنيا، وكيف يكون ذلك وقد نفى الله ذلك عن الكفار وجعلهم أمواتا وصما وبكما وعميا ؟.

إن الإنسان له قوة على تحصيل تلك الأمور في ابتداء أمره، فإن أهمل نفسه في ابتداء أمره فلم يحصل لنفسه تلك الفضائل في وقت التحصيل ضعفت القوة عن التحصيل، وفاته الخير فلا يمكنه بعد الفوت قبول ذلك، كالفحم إذا صار رمادا فلا يصير بعد ذلك نارا، فمن استمر في كفره وفسقه وتمادى فيه

---

(1) سورة التكاثر آية 3 ـ 7 .

(2) سورة النساء آية 83 .

(3) سورة البقرة آية 46 .

(4) سورة البقرة آية 185 .

صار إما ميتا أو مريضا أو أصم لا يقبل الشفاء، ولذلك قال الله تعالى فيمن ثكل هذه القوة : ﴿ إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ۞ وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم ﴾ [1] ، وقال تعالى " صم بكم عمي فهم لا يعقلون "[2] ، وقال تعالى " ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت "[3] ، وقال تعالى " إنما المشركون نجس "[4] وقال تعالى في المؤمنين : ﴿ لينذر من كان حيا ﴾ [5] وقال فيهم : ﴿ أولي الأيدي والأبصار ﴾ [6].. فمن استفاد الحياة والصحة والطهارة قبل أن تبطل عنه هذه القوى – أعني قبول ذلك – فصار حيا سميعا بصيرا طاهرا وحصل التزود كما أمره الله تعالى بقوله : ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ﴾ [7] واهتدى بالدليل الموصوف بقوله تعالى : ﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ۞ صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾[8] وائتمر بقول الله تعالى : ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ﴾[9] واقتدى بالموصوفين بقوله سبحانه : ﴿ أولئك يسارعون

([1]) سورة النمل آية 80 ـ 81 .

([2]) سورة البقرة آية 171 .

([3]) سورة محمد آية 20 .

([4]) سورة التوبة آية 28 .

([5]) سورة يس آية 70 .

([6]) سورة ص آية 45 .

([7]) سورة البقرة آية 197.

([8]) سورة الشورى آية 52 ـ 53 .

([9]) سورة الحديد آية 21 .

في الخيرات وهم لها سابقون ﴾[1] فجدير أن يفلح فتحصل له هذه السعادة كما قال الله تعالى : ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ [2].

ومن حكم العبادات شكر المنعم سبحانه على ما أنعم، فإن النفس إذا تطهرت من نجاساتها وزالت عنها أمراضها أهلت لأن تكون مرآة مصقولة لنقش حقيقة العلم فيها، فتنكشف لها حقيقتها التي بانكشافها لها تنبلج أنوار الحق، فتعلم علما نسبيا بعض المواهب والنعم المفاضة فضلا من الله وهي لا تحصى عدا، ولا تستقصى حدا، ثم تكاشف بما أعده الله للإنسان من النعم التي لا تتصورها الخيالات، من شهود جمال إلهي، وتنعم بنعيم أبدي، ودوام بهجة لا تزول فتكون العبادة بعد تلك التزكية شكرا لمنعم متفضل، ومسارعة إلى نيل رضوانه الأكبر، وفضله العظيم، ونعمته الحقيقة، قال الله تعالى : ﴿ اعملوا آل داود شكرا ﴾ [3] وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين﴾ [4] فتكون العبادة جامعة لمعاني الكمالات كلها، فهي تزكية للنفوس، وشكر لمنعم متفضل وهاب، ومسارعة إلى نيل الخير الحقيقي والنعيم الأبدى والرضوان الأكبر، وهناك حكمة عالية أخرى، يشهدها أهل المعرفة بالله، لا يمكن أن يصرح بها إلا بالإشارة، العبادة عمل جليل جدا تبتهج به النفوس الفاضلة، ونسبة شريفة تفتخر بها الأرواح الطاهرة، ومشهد لا يوصف جماله ولا كماله تسارع إليه الأرواح الملكية، ومواجهة لملك عظيم كبير متعال، وتمثل بين يدى واحد أحد فرد صمد منعم متفضل رزاق كريم.

بيان الأمراض والأنجاس التي لا يمكن إزالتها إلا بالشرع :

---

(1) سورة المؤمنون آية 61 .

(2) سورة النور آية 31 .

(3) سورة سبأ آية 13 .

(4) سورة آل عمران آية 133 .

كما أن في بدن الإنسان عوارض وأمورا موجودة عند الولادة أو توجد حالا فحالا بحكمة تقتضي ذلك، وهي تعد نجاسات لابد من إماطتها كلها أو إماطة فضولاتها، وذلك كالسلى[1] الذي يكون فيه الولد، والسرة والقلفة والعقيقة [2] الموجودة في الصبي عند الولادة، وكالأوساخ والقمل والظفر وشعر الإبط. كذلك في نفس الإنسان عوارض هي نجاسات وأمراض نفسانية يلزم إماطتها كالجهل والشره والعجلة والشح والظلم، ويدل بقوله تعالى : ﴿ خلق الأنسان من عجل ﴾ [3]كون ذلك مخلوقا فيه وأنه تعالى أمره بإماطته وإماطة فضلاته بالمجاهدة القوية ليصير شبيها بالصديقين، فذكر أنه مخلوق فيه كما ترى، ثم أمره أن يميط العجلة عن نفسه فقال : ﴿ سأريكم آياتي فلا تستعجلون ﴾ [4] وقوله تعالى : ﴿ إنه كان ظلوما جهولا ﴾ [5] ثم أمره بالعلم والعدل في غير موضع من كتابه. وقوله تعالى : ﴿ وأحضرت الأنفس الشح ﴾[6] ثم قال تعالى : ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ [7] فأمره باتقاء الشح، وقوله تعالى : ﴿ إن الأنسان خلق هلوعا ۞ إذا مسه الشر جزوعا ۞ وإذا مسه الخير منوعا ﴾[8] ووصفه بالكفور والقتور في قوله تعالى : ﴿ وكان الأنسان كفورا ﴾[9] وقوله

([1]) السلا : غشاء رقيق يحيط بالجنين ويخرج معه من بطن أمه .

([2]) العقيقة : شعر كل مولود من الناس ينبت وهو في بطن أمه .

([3]) سورة الأنبياء آية 37 .

([4]) سورة الأنبياء آية 37 .

([5]) سورة الأحزاب آية 72 .

([6]) سورة النساء آية 128 .

([7]) سورة الحشر آية 9 .

([8]) سورة المعارج آية 19 ـ 21 .

([9]) سورة التغابن آية 16 .

تعالى : ﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكتم خشية الأنفاق وكان الأنسان قتورا ﴾[1] فأدخل عليه (كان) تنبيها على أن ذلك فيه غريزى موجود قبل وليس هو بشيء طاريء عليه ﴿ وكان الأنسان أكثر شيء جدلا ﴾ [2]

ثم نهى عن أكثر الجدل فالإنسان يحتاج أن يستعمل هذه القوى في الدنيا كما يجب، ووقت ما يجب، وبقدر ما يجب، وأن يميط عنه ما يضر ولا ينفع قبل خروجه من الدنيا حسب ما وردت به الشريعة، فإنه متى لم يتطهر من النجاسة ولم يزل أمراض نفسه لم يجد سبيلا إلى نعيم الآخرة ؛ بل ولا إلى طيب الحياة الدنيا، وذلك أن من تطهر تجلى عن قلبه الغشاوة فيعلم الحق حقا والباطل باطلا فلا يشغله إلا ما يعنيه، ولا يتناول إلا ما يعينه، فيحيا حياة طيبة كما قال تعالى : ﴿ فلنحيينه حياة طيبة ﴾[3] ولا تصير مقتنياته في الدنيا وبالا عليه وعذابا كما قال الله تعالى في الكفار : ﴿ ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾[4] ويصير قلبه – متى تطهر – محل السكينة والأرواح الطيبة كما وصف الله المؤمنين بقوله تعالى : ﴿ هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ﴾[5] ويعرف الطريق التي بها التوصل إلى جنة المأوى ومصاحبة الملأ الأعلى في مقعد صدق عند مليك مقتدر، فيسارع في الخير ويسابق إلى مغفرة من ربه وجنة عرضها السموات والأرض. ومتى بقيت نجاسته وتزايدت صار قلبه مقر الشبه والآثام كما قال تعالى : ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ۞ تنزل على كل أفاك أثيم ﴾[6] فلا يجد سبيلا إلى

([1]) سورة الإسراء آية 100 .

([2]) سورة الكهف آية 54

([3]) سورة النحل آية 97 .

([4]) سورة التوبة آية 85 .

([5]) سورة الفتح آية 4 .

([6]) سورة الشعراء آية 221 ـ 222 .

سعادة الدار الآخرة كما قال تعالى : ﴿ أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم ۞ كلا إنا خلقناهم مما يعلمون ﴾[1] فنبه على أنه لا يصلح لجنته ما لم تطهر ذاته عن أشياء هي مخلوقة فيها، وعلى هذا دل قوله تعالى : ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾[2]

فحق الإنسان أن يراعي هذه القوى فيصلحها ويستعملها على الوجه الذي يجب وكما يجب، ليكون كمن وصفه الله تعالى بقوله : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾[3] وقد يقع للإنسان شبهة في أمر هذه النجاسات فيقول : أترى أن ذلك من عند غير الله ؟ فإن كان من غيره فمن أين منبعه ؟ وإن كان منه فما المعنى في أن أوجده الإنسان ثم أمره بأن يزيله ؟ فيقال : ما من شيء أوجده الله أو أمكن من إيجاده إلا وفيه حكمة ومنفعة وإن لم يعرف ذلك الإنسان، لكن من الأشياء ما نفعه في وقت مخصوص، أو إذا كان على قدر مخصوص، ثم إذا استغنى عنه أو زاد على قدر ما يحتاج إليه يجب أن يزال وذلك ظاهر بالتأمل، إذ من المعلوم أن السلى والسرة يحتاج إليهما لصيانة الولد في وقت، ثم يستغنى عنهما فيكون إبقاؤها يعد نجاسة، والشعر والظفر يحتاج إليهما إذا كانا على حد، وإذا زاد يجب إماطتها.

النجاسات المخلوقة في ذات الإنسان وعلاجها :

وقد شرحت في قسم علوم النفس في كتاب : (معارج المقربين) الفضائل وأضدادها، وبينت أن الفضيلة وسط بين رذيلتين، ولتمام الفائدة لا أخلي هذا المختصر المبارك من بيان ما لا بد منه من ذكر النجاسات المخلوقة في ذات الإنسان التي يجب أن يعالجها بالأدوية الشرعية كما قال الله تعالى :

([1]) سورة المعارج آية 38. 39 .

([2]) سورة آل عمران آية 179 .

([3]) سورة النحل آية 32 .

﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ وشفاء لما في الصدور ﴾[2] فأقول وبالله التوفيق.

معلوم أن القوى قوة الشهوة وقوة الحمية وقوة الفكر، فبإصلاح قوة الشهوة تحصل العفة فيحترز بها من الشره وإماتة الشهوة، ويتحرى المصلحة في المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح وطلب الراحة وغير ذلك من اللذات الحسية، وبإصلاح قوة الحمية تحصل الشجاعة فيحترز من الجبن والتهور والحسد، ويتحرى الاقتصاد في الخوف والغضب والأنفة وغير ذلك، وبإصلاح قوة الفكر تحصل الحكمة حتى يحترز من البله والخبث ويتحرى الاقتصاد في تدبير الأمور الدنيوية، وبإصلاح هذه القوى تحصل في الإنسان قوة العدالة، فيقتدي برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ في تزكية نفسه وحسن معاملته لغيره، فنفس الإنسان معادية له كما قال تعالى : ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي﴾[3] وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (أعدىٰ عدوك نفسك ٱلتي بين جنبيك) [4] فمن أدبها أو قمعها أمن ظلمها، وإلى هذا أشار الله تعالى بقوله : ﴿ ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما ﴾ [5] أي : لا يخاف أن تظلمه نفسه الشهوية، فالأعمال الصالحة حصن منها لقوله تعالى : ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾[6].. فإذا أقام المسلم الصلاة إقامة تجعله عالما بمعنى ما يعمل، متيقنا نسبته في عمله وكمالاته الحقيقية عند مواجهته في الصلاة التي هي أضداد صفات الحق، شهد بعين سره نور مواجهة إله عظيم كبير معبود على موفق هاد، فينجذب بالكلية إلى التخلق بتلك الأخلاق الربانية،

---

(1) سورة الإسراء آية 82 .

(2) سورة يونس آية 57 .

(3) سورة يوسف آية 53 .

(4) هذا الحديث رواه البيهقي في الزهد وله روايات أخرى عن أنس .

(5) سورة طه آية 112 .

(6) سورة العنكبوت آية 45 .

والتجمل بالحظوة لتلك الجلوة العلية، ويقوى اشتياقه إلى دوام مواجهة هذا النور المشرق الذي هو قره عين العارفين، وسر قوله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (وجعلت قرة عيني في ٱلصلاة) [1] وقوله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (أول ٱلوقت رضوان) [2] وقوله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (أبردوا بٱلصلاة) [3] ومن لم تزك نفسه لا تصح له تلك المواجهة ؛ فيقف في الصلاة بجسمه وقلبه يتقلب في طمع أو شح أو هوى، لم يكن ذلك لأن الله تعالى محجوب عن سره، بل لأن سره محجوب عن مواجهة الحق ، ونفسه مسجونه في نجاساتها ولقسها ودنسها، والأولى للمسلم أن يسارع إلى أولياء الله الذين تزكو بصحبتهم نفسه، ويزول بحبهم لبسه، حتى تشرق عليه أنوار القربات، وتصح له أسرار المواجهات، وأكمل تلك المواجهات عند إقامة الصلاة.

الفصل الثانى
بيان في العبادات
1- الصلاة

الصلاة عماد الدين وأساسه، وشكر المنعم المتجدد على عميم نعماه المكرر في كل يوم جديد، قال تعالى : ﴿ وأقم الصلاة لذكري ﴾[4] وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ :

(1) هذا جزء حديث تمامه : " حبب إلى من دنياكم ثلاث : النساء، والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة " رواه الطبراني في الأوسط والصغير عن أنس رفعه، وقد اقتصر الخطيب البغدادي في تاريخه على جملة : " جعلت قرة عينى في الصلاة " وأخرجه ابن عدي عن أنس بلفظ : " حبب إلى من الدنيا النساء والطيب وجعل قرة عيني في الصلاة ".

(2) هذا جزء حديث وتمامه : " أول الوقت رضوان الله وآخره عفوه " وقد أورده الحكيم الترمذى في كتابه الصلاة ومقاصدها ص 110 طبعة المؤتمر الإسلامي، وأورده السيوطي في الجامع الصغير وقال رواه الدار قطني عن جرير .

(3) هذا الحديث رواه البخاري عن أبي هريرة ﷺ بلفظ : " إذا اشتد الحر فأبردوا بالصلاة، فإن شدة الحر من فيح جهنم ... " من كتابه مواقيت الصلاة وفضلها باب الإبراد في الظهر في شدة الحر.

(4) سورة طه آية 14 .

(لصلاة عماد ٰلدين) [1] وقال تعالى : ﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا﴾[2] وقد اختار الله تعالى الذين مع حبيبه محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ واختار لهم الصلاة فقال تعالى : ﴿ تراهم ركعا سجدا ﴾[3] وقد أخبر الله تعالى عن المؤمنين على التحقيق أنهم يقيمون الصلاة في قوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ۞ الذين يقيمون الصلاة ﴾[4] وعنه ﴿ ﷺ وآله﴾ قيل : أي الأعمال أحب إلى الله ؟ قال : (الصلاة لوقتها) [5] وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (بين ٱلعبد وبين ٱلكفر ترك الصلاة) [6] فمن ضيع الصلاة فهو لغيرها من الدين أضيع

واعلم أنك في صلاتك تناجي ربك فانظر كيف تصلي، وحافظ فيها على ثلاثة أمور لتكون من جملة المحافظين على الصلاة وإقامتها، فإن الله تعالى إنما يأمر بالإقامة ويقول سبحانه : ﴿ وأقم

([1]) رواه البيهقيعن ابن عمر في الجامع الصغير، وقد أورده الغزالي في الإحياء بلفظ : " الصلاة عماد الدين، فمن تركها فقد هدم الدين " ورواه الطبراني والديلمي عن على بلفظ : " الصلاة عماد الدين، والجهاد سنام العمل, والزكاة بين ذلك " .

([2]) سورة النساء آية 103 .

([3]) سورة الفتح آية 29.

([4]) سورة الأنفال آية 2-3 .

([5]) هذا الحديث متفق عليه ، من حديث ابن مسعود .

([6]) هذا الحديث رواه مسلم عن جابر بلفظ : سمعت عن النبي ﷺ يقول :(بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة) قال الترمذي حديث صحيح. ورواه الطبري عن ثوبان بإسناد صحيح ألا وبين العبد وبين الكفر والإيمان الصلاة، فإن تركها فقد أشرك) وله روايات أخرى عن أحمد وأبي داود والنسائي .

الصلاة ﴾ [1] ﴿وأقيموا الصلاة ﴾ [2] ولم يقل سبحانه صل أو صلوا، ويثني سبحانه على المحافظين على الصلاة فيقول:﴿والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون﴾ [3].

أولا : المحافظة على الطهارة

قال الله تعالى : ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ﴾ [4] وقال ﴿ ﷺ وآله﴾: (لا يقبل ٱلله صلاة بغير طهور) [5] وقال عليه الصلاة والسلام : (الطهور نصف ٱلإيمان) [6]. وقال ﴿ ﷺ وآله﴾: (مفتاح ٱلصلاة ٱلطهور) [7] فالمحافظة على الطهارة بأن يسبغ الوضوء قبل الصلاة, وإسباغه أن يأتي بجميع سننه وأذكاره المروية عند كل وظيفة منه ، يحتاج أيضا في طهارة ثيابه وطهارة بدنه وطهارة الماء الذي يتوضأ به احتياطا لا يفتح عليه باب الوسواس ، فإن الشيطان يوسوس في الطهارة فيضيع أكثر أوقات العبادة.

([1]) سورة العنكبوت آية 45.

([2]) سورة البقرة آية 43.

([3]) سورة الأنعام آية 92.

([4]) سورة التوبة آية 108.

([5]) رواه البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :(لا تقبل صلاة من أحدث حتى يتوضأ)كتاب الوضوء باب لا يقبل الله صلاة بغير طهور .

([6]) أخرجه الترمذي من حديث رجل من بني سليم ، وقال حسن ، وله رواية أخرى أوردها مسلم من حديث أبي مالك الأشعرى بلفظ : شطر : وذكره الغزالي في الإحياء ج 1 ص 125.

([7]) أخرجه أبو داود والترمذي من حديث علي ، وقال الترمذي هذا أصح شي في هذا الباب وأحسنه.

واعلم أن المقصود من طهارة الثوب وهو القشر الخارج ، ثم من طهارة البدن وهو القشر القريب ، ثم من طهارة القلب وهو اللب الباطن ، طهارة القلب من نجاسات الأخلاق المذمومة كما سنذكرها في القسم الثالث ، لكن لا يبعد أن يكون للطهارة الظاهرة أيضا تأثير في إشراق نورها على قلبك ، فإنك إذا أسبغت الوضوء واستشعرت نظافة ظاهرك صادفت في القلب انشراحا وصفاء ما كنت لتصادفه من قبل ، وذلك للعلاقة بين عالم الشهادة وعالم الملكوت ، فإن ظاهر البدن من عالم الشهادة ، والقلب من عالم الملكوت بأصل فطرته ، إنما هبوطه إلى عالم الشهادة كالغريب عن جبلته ، وكما تنحدر من معارف القلب آثار إلى الجوارح ، فكذلك يرتفع من أحوال الجوارح أنوار إلى القلب ، ولذلك أمرنا الله تعالى بالصلاة مع أنها حركات الجوارح التي هي من عالم الشهادة ، وجعلها رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ في الدنيا ومن الدنيا وقال : ((حبب إلي من دنياكم ثلاث : ٱلنساء ، وٱلطيب ، وجعلت قرة عيني في ٱلصلاة)) [1].

فلا يبعد أن يفاض من طهارة الظاهر أثر على الباطن ، ففي بدائع صنع الله أمور أعجب من هذا إذ قد عرفت بالتجربة أن المجامع في حال المباشرة لو أدمن النظر إلى بياض مشرق أو حمرة قانية حتى غلبت تلك الصورة على نفسه مال لون المولود إلى ذلك اللون الذي غلب عليه ،وأن الجنين أول ما يتحرك في البطن تميل صورته إلى الحسن إن كانت الأم مشاهدة في تلك الحالة لصورة حسنة بحيث غلبت تلك الصورة على نفسها ، ولذلك أمر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ المباشر عند مباشرته أن يحضر في قلبه إرادة إصلاح المولود ويدعو الله بذلك فيقول : ((ٱللهم جنبنا ٱلشيطان وجنب ٱلشيطان ما رزقتنا " [2] حتى يفيض الله سبحانه مبادئ الصلاح على الروح التي يخلقها عند إلقاء البذر في محل الحرث بواسطة الصلاح الغالب على قلب الحارث، كما يفيض الله النور بواسطة المرآة المحاذية للشمس على بعض الأجسام المحاذية للمرآة.

([1]) رواه الطبراني في الأوسط والصغير عن أنس رفعه, وأخرجه ابن عدي عن أنس بلفظ: " حبب إلى من الدنيا النساء والطيب وجعل قرة عيني الصلاة " .

([2]) هذا جزء حديث وتمامه: " لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: اللهم جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإن كان بينهما ولد لم يضره الشيطان " هذا الحديث متفق عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

وهنا الآن قرعنا بابا عظيما من معرفة عجائب صنع الله في الملك والملكوت، وقد أشممناك شيئا يسيرا من أسرار الطهارة الظاهرة، فإن كنت لا تصادف بعد الطهارة وإسباغ الوضوء شيئا من الصفا الذي وصفناه، فاعلم أن الدرن الذي عرض على قلبك من كدورات شهوات الدنيا وشواغلها أرمد عين القلب فصارت لا تشهد باللطائف والأشياء الخفية اللطيفة، ولم يبق في قوته إلا إدراك الجليات إن بقى, فاشتغل بجلاء قلبك وتصفيته فذلك أوجب عليك من كل ما أنت فيه.

ثانيا : المحافظة على سنن الصلاة وأعمالها

وهي أن تحافظ على سنن الصلاة وأعمالها الظاهرة وأذكارها وتسبيحاتها حتى تأتي فيها بجميع السنن والآداب والهيئات كما جمعناها ، فإن لكل واحد منها سرا وله تأثير في القلب كما نبهنا عليه في تأثير الطهارة، بل أشد وأبلغ،وشرح ذلك يطول،وأنت إذا أتيت بذلك انتفعت به وإن لم تعلم أسراره، كما ينتفع شارب الدواء بشربه وإن لم يعرف طبائع أخلاطه ووجوه مناسبته لمرضه.

واعلم أن الصلاة صورة صورها رب الأرباب –كما صور الحيوان مثلا – فروحها النية والإخلاص وحضور القلب، وبدنها الأعمال, وأعضاؤها الأصلية الأركان, وأعضاؤها الكمالية الأبعاض, فالإخلاص والنية فيها يجريان مجرى الروح، والقيام والقعود يجريان مجرى البدن، والركوع والسجود يجريان مجرى الرأس واليد والرجل، وإكمال الركوع والسجود والطمأنينة وتحسين الهيئة تجرى مجرى حسن الأعضاء وحسن أشكالها وألوانها، والأذكار والتسبيحات المودعة فيها تجري مجرى آلات الحس المودعة في الرأس والأعضاء كالعينين والأذنين وغيرهما، ومعرفة معاني الأذكار وحضور القلب عندها يجري مجرى الحس المودع في آلات الحس كقوة السمع وقوة البصرة والشم والذوق واللمس.

واعلم أن تقربك بالصلاة كتقرب بعض خدم السلطان بإهداء وصيفة إلى السلطان، واعلم أن فقد النية والإخلاص من الصلاة كفقد الروح من الوصيفة، والمهدي للجيفة الميتة مستهزيء بالسلطان فيستحق سفك الدم لغفلة قلبه عن عظمته, وفقد الركوع والسجود يجري مجري فقد الأعضاء، وفقد الأذكار يجري مجرى فقد العينين من الوصيفة وجدع الأنف والأذنين، وعدم حضور القلب في غفلته عن معرفة معاني القرآن والأذكار كفقد السمع والبصر مع بقاء جرم الحدقة الأذن، ولا يخفى عليك أن من أهدى وصيفة بهذه الصفات كيف يكون حاله عند السلطان ؟.

هذا مثال العبد لعبد مثله، فكيف بمن يتقرب إلى خالقه ومبدعه المواجه لجماله العلى وعزته وعظمته، كيف يقف أمامه ويغفل عن عظمته ؟ اللهم أعذنا من الغفلة – خصوصا عند القيام بعمل ما أمرت به – إنك مجيب الدعاء.

واعلم أن قول الفقيه في الصلاة الناقصة ألفاظها وسننها إنها صحيحة كقول الطبيب في الوصيفة المقطوعة أطرافها إنها حية وليست بميتة، فإن كان ذلك كافيا في التقرب بها إلى السلطان ونيل الكرامة منه فاعلم أن الصلاة الناقصة صالحة أيضا للتقرب بها إلى الله سبحانه ونيل الكرامة، وإن أوشك أن يرد ذلك على المهدي ويزجر، فلا يبعد مثل ذلك في الصلاة فإنها قد ترد على المصلي كالخرقة الخلقة [1] كما ورد في الخبر من قوله ﴿ ﷺ وآله﴾ : ((من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا " [2] واعلم أن أصل الصلاة التعظيم والاحترام، وإهمال آداب الصلاة يناقض التعظيم والاحترام.

([1]) فقد روى الحكيم الترمذي عن أبي سعيد الخدري أنه قال :" قال رسول الله ﷺ : الصلاة ثلاثة أثلاث ثلث وضوء ، وثلث ركوع وسجود ، وثلث قراءة ، فمن أتى بهن تامة قبلن منه وما سواهن من العمل ، ومن نقص واحدة منهن طويت صلاته طي الثوب الخلق ثم ضرب بها وجه صاحبها، فلا يرفع له عمل بعد ذلك حتى يتوب " انظر كتاب الصلاة للحكيم الترمذي ص41 . وقد أورد الغزالي في باب " فضيلة إتمام الأركان " هذا الحديث كاملا فقال : " من صلى صلاة لوقتها، وأسبغ وضوءها،وأتم ركوعا وسجودها وخشوعها، عرجت وهي بيضاء مسفرة ، تقول : حفظك الله كما حفظتني، ومن صلى لغير وقتها،ولم يسبغ وضوءها, ولم يتم ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها، عرجت وهي سوداء مظلمة تقول : ضيعك الله كما ضيعتني حتى إذا كانت حيث شاء الله، لفت كما يلف الثوب الخلق،فيضرب بها وجهه " وهذا الحديث أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أنس، وكذلك رواه الطيالسى ، والبيهقي في الشعب . انظر : إحياء علوم الدين جـ1 ص 148 .

([2]) هذا الحديث أورده الغزالي في الإحياء من حديث ابن عباس، ورواه الطبراني من قول ابن مسعود : " من لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر... " وإسناده صحيح.

ثالثا : المحافظة على روح الصلاة

أن تحافظ على روح الصلاة وهي الإخلاص وحضور القلب في جملة الصلاة، واتصاف القلب في الحال بمعانيها، فلا تسجد ولا تركع إلا وقلبك خاشع متواضع على موافقة ظاهرك، فإن المراد خضوع القلب لا خضوع البدن ، ولا تقول (الله أكبر) وفى قلبك شيء أكبر من الله تعالى، ولا تقول: " وجهت وجهي " إلا وقلبك متوجه بكل وجهه إلى الله معرض عن غيره سبحانه ، ولا تقول :" الحمد لله "إلا وقلبك طافح بشكر نعمه عليك فرح به مستبشر ، ولا تقول : " وإياك نستعين "إلا وأنت مستشعر ضعفك وعجزك وأنه ليس لك ولا لغيرك من الأمر شيء. وكذلك في جميع الأذكار والأعمال، وشرح ذلك يطول، وقد شرحناه فيما سبق لنا.

فجاهد نفسك في أن ترد قلبك إلى الصلاة حتى لا تغفل من أولها إلى آخرها إن استطعت، فإنه لا يكتب للرجل من صلاته إلا ما عقل منها، فإن تعذر عليك الإحضار – وما أراك إلا كذلك– فانظر، فإن كان على قدر الغفلة مقدار ركعتين فلا تعد الصلاة، ولكن افهم أن النوافل جوابر للفرائض، فتنفل بمقدار أن يحضر القلب فيها في مقدار ركعتين، فكلما زادت الغفلة فزد في النوافل حتى يحضر قلبك مثلا في عشر ركعات بمقدار أربع ركعات وهو قدر فرضك، فمن رحمة الله تعالى عليك أن قبل منك جبران الفرائض بالنوافل.

فهذه أصول المحافظة على الصلاة، وقد بينت ميزان الخواطر في الصلاة في كتاب : (أصول الوصول) فليرجع إليه مريد المحافظة على الصلوات، قال الله تعالى : ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ [1].

فرار المصلي إلى الله وهو في صلاته :

وما من عمل من أعمال القربات كلها إلا ومشاهده لا تخلو من شوب إلا الصلاة لأهل الخشوع والمعرفة، فإن مشاهدها العلية ترفع الحجاب عن المرتبتين، حتى تحصل المواجهة بالمكانتين، فيكون المصلي مجملا بأكمل حلل العبد الخاشع الخانع، والله سبحانه وتعالى مواجها له بمعاني الجمال الإلهي، حتى يكون في كل تكبيرة مشاهدا،وفي قراءة كل كلمة من كلمات الذكر الحكيم مكاشفا

(1) سورة المؤمنون آية 9 .

بمعناها، سامعا بالسمع الذي منحه الله كلام الله من الله، ويكون في كل ركوع وسجود فارا إلى الله من نفسه ومن كل كائن، وبقدر فراره إلى الله يكون قربه منه، قال الله تعالى : ﴿ واسجد واقترب﴾ [1] وإنما يقيم الصلاة من شهد معاني مكانته شهودا يجعله يذكر ربه، قال الله تعالى: " وأقم الصلاة لذكري "[2] وقد أثنى الله تعالى على المصلين ثناء جعل الأرواح الملكية تغبط المصلين الذين أثنى الله تعالى عليهم، قال الله تعالى : " رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب"[3].

ولما كانت التجارة والبيع لفظين عامين قد يراد بهما تجارة وبيع الدنيا أو تجارة وبيع الآخرة ؛ فالعابد الذي يعبد الله لنعيم الجنة تاجر، والمؤمن الخالص الذي يبيع نفسه لله وماله لله بائع، والرجل الذي يخرج في الأسواق بسلعته بائع، والذي يخرج بلا سلعة ليتوسط بين الناس وينتفع في الأسواق تاجر.

والمؤمن الكامل لا تلهيه تجارة الدنيا والآخرة ولا بيع نفسه لله أو بيع سلعته لغيره للربح عن ذكر الله بمعناه الحقيقي الذي به تقام الصلاة، وإقامة الصلاة التي تكون عن الذكر كشف الستار عن حقيقتك، ورفع الحجاب عن الجمال والجلال والكمال الإلهي، بقدر ما وهب الله للعبد من عيون الكشف اللائق بعبد ممنوح، لا بقدر الجناب المقدس تنزه وتعالى، قال تعالى : " وما قدروا الله حق قدره"[4]وإنما هو قبس من لوامع جمال الفيض الأقدس، وبوارق لوامع جلال الكمال المقدس، قال

([1]) سورة العلق آية 19

([2]) سورة طه آية 14

([3]) سورة النور آية 37-38

([4]) سورة الزمر آية 67

سبحانه : " وما منا إلا له مقام معلوم "[1] هذا نذر مما يواجه به العبد المؤمن في صلاته من مقامات القرب, ومشاهد الحب.

أسرار وأحوال وأنوار :

وأما ما يعطاه العبد المصلي من أسرار المراقبة بصلاته, فإنه شهود نعيم ملكوتي، أو عذاب ملكوتي، فتكون تلك المشاهد منتجة للفرار من المخالفات والبعد عن المعاصي, قال تعالى : " إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر"[2] فذكر الله تعالى في الصلاة الذي هو إقامتها أكبر، لأنه يحصل به الشهود الأكبر للمصلي، الذي ينتج عنه الرضوان الأكبر، وقد فصلت جملا من البيان في معاملة المصلين الذين يقيمون الصلاة في كتاب : (معارج المقربين) فمن أحب المزيد فليراجعه.

وهناك أسرار وأحوال وأنوار تمنح فضلا للقلوب، لا ترسم بالعبارة، ولا تبين بالكتابة، تجعل مقيم الصلاة على قلب رسل الله السابقين صلوات الله وسلامه عليهم، فينال كل مقيم للصلاة قسطا وافرا من مقام رسول من رسل الله صلوات الله عليهم ، فقد يكون على قلب سيدنا عيسى عليه السلام، أو قلب سيدنا موسى عليه السلام،أو على قلب سيدنا الخليل الأكبر ﴿ ﷺ وآله﴾، كل ذلك فضل الله يتفضل به على من وفقه وأقام بين يديه, لم يقمه سبحانه إلا لمحبوب مراده، فقد يجتمع في المسلمين عشرات من الملايين على قلوب الرسل صلوات الله عليهم، ويجمع الله لهم أسرار الرسل وأنوارهم وأحوالهم، فيقيمهم الله تعالى مقام رسله دعاة إليه، منهم من يمنحه لسان العبارة فيجذب القلوب بأنوار أقواله، ويسكر النفوس بسحر بيانه، ومنهم من يوده الله بالكرامات من مشكاة الأنوار التي هي سر معجزات من هو على قلبه.

كل ذلك لأن الإسلام هو دين الله حقا، وأن الله تعالى يهب للعاملين بوصاياه أنوار وأسرار الرسل السابقين جميعهم، وكم ترى في المسلمين في كل زمان كثيرين يكرمهم الله بشفاء المرضى، وإبراء الأبرص, وإحياء القلوب الميتة، وتنويع الأفكار بالحال أو بالمقال أو بالدعاء، وبعضهم يفنى عن مراده

([1]) سورة الصافات آية 164

([2]) سورة العنكبوت آية 45

بمراد الحق وعما سوى الحق, حتى يظهره الله به سبحانه نورا لخلقه، فقد يقهره حاله فيقول للشيء كن فيكون، أحياء للسنة وإقامة لحجة الله على خلقه، وهذا يستحيل أن يوجد لأهل الأديان الأخرى لأنهم ليسوا على الحق، ولو أراد الله هدايتهم لشرح صدورهم للإسلام، ولكن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء.

وقد اتضح الحق جليا، وقامت حجة الله على الخلق أجمعين، وليس لأحد من الخلق على الله حجة، والله تعالى أسأل أن يمنحني وإخوتي جميعا الإخلاص لذاته العلية، والصدق في المعاملة، والحب الخالص لجنابه العلى، والرضاء الكامل عنه سبحانه، والتوفيق لما يحب ويرضى، إنه على كل شيء قدير.

2- الزكاة والصدقة

قال الله سبحانه وتعالى : (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة والله يضاعف لمن يشاء "[1] وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : " حصنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة وأعدوا للبلاء الدعاء "[2] وقال ﴿ ﷺ وآله﴾: " هلك الأكثرون إلا من قال بالمال هكذا وهكذا " ومعلوم أن إنفاق المال في الخيرات أحد أركان الدين، والتكليف به بعد القيام بما يرتبط به من مصالح البلاد والعباد وبعد الخلات والفاقات، ومعلوم أن المال محبوب الخلق، وهم مأمورون بحب الله عز وجل،﴿ ويدعون الحب بنفس الإيمان﴾، فجعل بذل المال معيارا لحبهم، وامتحانا لصدقهم في دعواهم، فإن المحبوبات كلها تبذل لأجل المحبوب الأغلب حبه على القلب، فانقسم الخلق فيه على قدر مراتبهم:

([1]) سورة البقرة آية 261 .

([2]) هذا الحديث رواه الطبراني, وأبو نعيم والعسكري والقضاعي عن ابن مسعود مرفوعا، ورواه البيهقي في الشعب عن أبي أمامة مرفوعا هكذا : " حصنوا أموالكم بالزكاة، وداووا مرضاكم بالصدقة، واستقبلوا أمواج البلاء بالدعاء " وله روايات أخرى عن عبادة بن الصامت، وعن سمرة بن جندب.

1- فمنهم الأقوياء :

وهم الذين أنفقوا جميع ما ملكوا ولم يدخروا لأنفسهم شيئا، فهؤلاء صدقوا ما عاهدوا الله عليه من الحب، كما فعل سيدنا أبو بكر الصديق إذ جاء بماله كله فقال له ﴿ ﷺ وآله﴾:"ماذا أبقيت لنفسك؟فقال:الله ورسوله " وقال لسيدنا عمر ﷺ:" ماذا أبقيت لنفسك؟ قال : مثله " أي: مثل ما أتيت به, فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : " بينكما مثل ما بين كلمتيكما".

2- ومنهم المتوسطون:

وهم الذين لم يقدروا على إخلاء اليد عن المال دفعة واحدة، ولكن أمسكوه لا للتنعم بل للإنفاق عند ظهور محتاج إليه، فهم يقنعون في حق أنفسهم بما يقويهم على العبادة وإذا عرض محتاج بادروا إلى سد خلته وحاجته, ولم يقتصروا على قدر الواجب من الزكاة وإنما غرضهم الأظهر في الإمساك ترصد الحاجات.

3- ومنهم الضعفاء :

وهم المقتصرون على آداء الزكاة الواجبة، فلا يزيدون عنها ولا ينقصون منها.

فهذه درجاتهم، وبذل كل واحد منهم على مقدار حبه لله، ومن لا يقدر إلا على أداء الواجب فليجتهد حتى يزيد على الواجب ولو شيئا يسيرا، فإن مجرد الواجب حد البخلاء، قال الله سبحانه وتعالى : " إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا " [1] فجاهد نفسك يأأخي حتى لا ينقضي عليك وقت إلا تتصدق فيه بشئ وراء الواجب ولو بكسرة خبز لترفع بذلك عن درجة البخلاء، فإن لم تملك شيئا فليست الصدقة كلها في المال ؛ لكن ؛ كل كلمة طيبة، وشفاعة, ومعونة في حاجة، وعيادة مريض، وتشييع جنازة، وكل ما تقدر عليه من جاه ونفس وكلام لتطييب قلب مسلم ؛ يكتب لك صدقة.

([1]) سورة مُحَّد آية 37

المحافظة على الزكاة والصدقة :

وحافظ في زكاتك وصدقتك على خمسة أمور.

الأول : الإسرار، فإن في الخبر : " إن صدقة السر تطفيء غضب الرب " [1] والذي يتصدق بيمينه بحيث لا تعلم شماله هو أحد السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله، وقد قال الله تعالى :" وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم " [2] وبذلك تتخلص من الرياء فإنه غالب على النفس، وهو مهلك ينقلب في القلب إذا وضع الإنسان في قبره في صورة حية، أء يؤلم إيلام الحية، والبخل ينقلب في صورة عقرب، والمقصود في كل الإنفاق الخلاص من رذيلة البخل، فإذا امتزج به الرياء كان كأنه جعل العقرب غذاء الحية، فما تخلص من العقرب ولكن زاد في قوة الحية، إذا كل صفة من الصفات المهلكات في القلب إنما غذاؤها وقوتها في إجابتها إلى مقتضاها.

الثانيء : أن تحذر من المن، وحقيقته أن ترى نفسك محسنا إلى الفقير متفضلا عليه، وعلامته أن تتوقع منه شكرا، أو تستنكر تقصيره في حقك وممالأته عدوك استنكارا يزيد على ما كان قبل الصدقة، فذلك يدل على أنك رأيت لنفسك عليه فضلا، وعلاجه أن تعرف أنه المحسن إليك بقبول حق الله منك، فإن من أسرار الزكاة تطهير القلب وتزكيته عن رذيلة البخل وخبث الشح، ولذلك كانت الزكاة مطهرة، إذ بها حصلت الطهارة، فكأنها غسالة نجاسة، ولذلك ترفع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأهل بيته عن أخذ الزكاة،وقال عليه الصلاة والسلام : (إنها أوساخ أموال الناس) [3] وإذا أخذ الفقير منك ما هو طهرة لك فله الفضل عليك, أرأيت لو كان فصادا فصدك مجانا وأخرج من باطنك الدم

---

[1] هذا الحديث أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة، ورواه البيهقي في الشعب من حديث أبي سعيد، ورواه الترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة : " إن الصدقة لتطفئ غضب الرب " ورواه أيضا ابن حبان من حديث أنس.

[2] سورة البقرة آية 271 .

[3] هذا الحديث رواه مسلم عن ربيعة بن الحارث بلفظ : (الصدقة أوساخ الناس) وأيضا رواه مسلم عن حديث المطلب بن ربيعة بلفظ : (لا تحل الصدقة لآل مُحَّد، إنما هي أوساخ الناس) .

الذي تخشى ضرره في الحياة الدنيا كان الفضل لك أم له ؟ فالذي يخرج من باطنك رذيلة البخل وضررها في الحياة الدنيا والآخرة أولى بأن تراه متفضلا.

الثالث : أن تخرجه من أطيب أموالك وأجودها، قال الله تعالى : (ويجعلون لله ما يكرهون) [1]وقال تعالى : (ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد) [2] وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (إن الله طيب ولا يقبل إلا الطيب) يعني الحلال، فإن المقصود من هذا إظهار درجة الحب، والإنسان يؤثر الأحب إليه والأنفس دون الأخس.

الرابع : أن تعطي بوجه طلق مستبشر وأنت به فرحان غير مستكره, قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (سبق درهم مائة ألف) [3] وإنما أراد ما يعطيه عن بشاشة وطيب نفس من أنفس ماله وأجوده، فذلك أفضل من مائة ألف مع الكراهة.

الخامس: أن تتخير لصدقتك محلا تزكو به الصدقة، وهو المتقي العالم الذي يستعين بها على طاعة الله عز وجل وتقواه، أو الصالح الفقير ذا الرحم، فإن لم تجتمع هذه الأوصاف, فتزكو الصدقة بآحادها أيضا، ورعاية الصلاح أصل الأمور، فما الدنيا إلا البلغة للعباد وزاد لهم إلى المعاد، فليصرف إلى المسافرين إليه المتخذين هذه الدار منزلا من منازل الطريق، قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : لا تأكل إلا طعام تقي ولا يأكل طعامك إلا تقي).

هذا الركن الذي هو الزكاة هو العبادة المالية الصرفة، ولم تكن الزكاة بهذا التفصيل في أنواع الأموال والمستحقين فريضة– على ما أعلم – في غير ديننا، وذلك لأن الإسلام جعل كل فرد من المسلمين لكل فرد ككل عضو من الجسد لكل عضو، قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (مثل المؤمنين في تعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه اشتكى كله) وقال الله تعالى : (وما جعل عليكم

([1]) سورة النحل آية 62

([2]) سورة البقرة آية 267

([3]) هذا الحديث أخرجه النسائي وابن حبان وقال حديث صحيح – من حديث أبي هريرة .

في الدين من حرج) [1] فجعل لنا سبحانه الأرض مسجدا وترابها طهورا،وأحل لنا الغنائم، وجعل الزكاة من كل أنواع الأموال، وعمم النفع بها لأنواع من الناس حتى ظهر سر قول الله تعالى : (إنما المؤمنون إخوة) [2]وقوله سبحانه وتعالى:(الذين ينفقون في السراء والضراء) [3] من كلام الله سبحانه وكلام رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يظهر لنا مكانة كل مسلم في المجتمع الإسلامي، ومكانة كل فرد من المسلمين، ومن فتح الله قفل قلبه ففقه سر فرضية الزكاة يعلم حق العلم أن العمل في الدنيا عمل الله تعالى، وقيام بفرض عليه لإخوته المسلمين.

كشف شيء من رموز الزكاة :

وإليك كشف شيء من رموز الزكاة :

1- الله سبحانه وتعالى يبين لنا أن المجتمع الإسلامي عائلة واحدة، يدلى نسبهم إلى أب واحد هو رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وأزواجه ﷺ أمهاتهم، وكما تجب النفقة على الغني للفقير من والديه إذا عاقه عن العمل مرض ظاهر أو فساد في قوة العقل، فكذلك يجب على الغني أن ينفق على أخيه في النسب الإسلامي بقدر ما أمره الله سبحانه وتعالى، فيكون الغني يبر والده الأعظم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ في ابنه الذي هو أخوه المسلم، قال ﷺ : (أدخل الإسلام بلالا في نسبي وأخرج الكفر أبا لهب من نسبي) وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ (سلمان منا أهل البيت) [4] فالمسلمون أبناء رجل واحد هو رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، والغني من المسلمين هو أخ الفقير وكنزه وخزينته، فلا يرضى أن يجوع أخوه وهو شبعان لأن ذلك ليس من أخلاق المؤمنين، فإن الغنى عارية فلعله يأتي عليه يوم – وهو فقير – فيتمنى أن يعينه إخوانه، وما كان يتمنى الفقير منه المعونة.

([1]) سورة الحج آية 78 .

([2]) سورة الحجرات آية 10

([3]) سورة آل عمران آية 134

([4]) هذا الحديث رواه الطبراني والحاكم عن عمرو بن عوف .

2- إن تأدية الزكاة تلقي المحبة في قلوب الفقراء, فينال منه عواطف تلك القلوب المتوجهة إلى علام الغيوب، ومقبول دعاء تلك الألسنة المبتهلة إلى الله تعالى، وحب تلك النفوس التي ترى أنك يا أخي بإعطائك الزكاة إياهم نجيتهم من آلام الجوع والعري، فيكون الفقراء لك زينة في الرخاء، ودروعا وسيوفا في الشدة.

3- إنك يأخي إذا أخرجت الزكاة طيبة بها نفسك، وعلمت أن هذا العمل فرض عليك اعتقدت أن المال لله يتصرف فيه كيف يشاء, فتكون وفيت بالبيع الذي بعته لله بقوله تعالى : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) [1] وتكون بنص تلك الآية الشريفة ممن بشرهم الله تعالى بالجنة.

4- بإخراجك الزكاة طيبة بها نفسك تعيش مطمئن القلب من خوف مصيبة أو بلية، صحيح البدن من خوف ألم أو من مرض، وذلك لأنك بإخراجك الزكاة يحصل لك انشراح صدر لاعتقادك أنك طهرت مالك، وحصنت نفسك بتأدية الزكاة، ومن يؤدي الزكاة على الوجه الذي أمر الله شاعرا بالفقراء والعطف على المسكين، فلا شك أنه يكون رحمانيا لا يظلم الناس لا في بيع ولا في شراء، ولا يسيء جارا له، ولا يقطع ذا رحمه، ولا يعق والديه، ولا يسعى في سوء أو فساد بين الناس. وللزكاة أسرار غامضة يشهدها من أقامه الرب سبحانه خليفة عنه، حتى يكون المشاهد في إخراج الزكاة خليفة عن ربه في الإعطاء، عبدا مطيعا لمولاه، وعاملا مخلصا من عمال الله، وعبدا مسكينا فقيرا وهبه الله خير مواهبه, وواجهه بأجمل مواجهاته العلية، وتلك الأسرار لا تفي بها عبارة المعبرين، ولكنها نعمة من الله تعالى سر قوله تعالى : (واتقوا الله ويعلمكم الله) [2] وقوله ﴿ ﷺ وآله﴾: (من عمل بما علم

(1) سورة التوبة آية 111 .

(2) سورة البقرة آية 282 .

ورثة الله علم ما لم يعلم) [1] والعارف إذا أشار للمريد السالك كانت الإشارة أفصح من العبارة له، قال ﴿ ﷺ وآله﴾ (المؤمن يكفيه قليل الحكمة).

تزكية النفس :

وهناك نوع آخر من أنواع الزكاة وهي تزكية النفس : قال الله تعالى : (والذين هم للزكاة فاعلون) [2] وقال سبحانه : (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى) [3] وقال تعالى : (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها) [4] تزكية النفس في الحقيقة الأصل الذي يؤسس عليه الأصول وتقوم به الفروع، ومن جاهد نفسه وهواه في ذات الله بلغ غاية مناه، ومن أهمل تزكية نفسه كان كالحيوان الأعجم وإن عمل كل القربات، فهو إنما يقلد غيره كالقردة أو النسانيس ما دام لم يجتهد في صفاء جوهر نفسه وتطهيرها من نجاستها، ومن زكى نفسه عرفها، ومن عرف نفسه عرف ربه.

وقد فصلت طرق تزكية النفس وتصفية جوهرها وعلاجها من أمراضها لإعادة الصحة عليها، والمعدات التي تحفظ الصحة عليها في مختصرنا هذا في باب الغرض من العبادة، وفى كتاب: (معارج المقربين) في قسم علوم النفس، وفى كتاب : (شراب الأرواح)... إلى آخره، فأكتفي في هذا المختصر بتنبيه أخي إلى العناية بتزكية نفسه حتى يمكنه أن يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويحج البيت ويصوم رمضان، ويقوم لله في كل ما أوجبه عليه مشاهدا أسرار حكمة أحكامه, وغوامض ما تعبدنا سبحانه وتعالى به،

([1]) سبق تخريج هذا الحديث، وقد ذكره أبو نعيم في الحلية من حديث أنس بن مالك, ورواه الغزالي في الإحياء ج 1 ص 71

([2]) سورة المؤمنون آية 4 .

([3]) سورة الأعلى أية 14- 15 .

([4]) سورة الشمس آية 7 – 9 .

والله أسأل أن يمنحنا الفقه والحكمة والمعونة على طاعته وشكره وذكره إنه مجيب الدعاء, وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم.

3- الصيام

الصيام هو الفريضة التي هي ترك في الحقيقة، وهو العمل الروحاني الذي يصير الإنسان فيه كالملائكة الروحانيين لترك ضروريات الحياة الجسمانية ولوازم النفس الحيوانية، وهو رمز يشير إلى أن الإنسان حيوان وملك، فهو بقوته الحيوانية يعمل أعمال البهائم،وبقوته الملكية يعرف الله ويعبده ويتشبه بسكان ملكوته الأعلى، فيترك لوازم قواه الحيوانية بالصوم ليتذكر قوته الملكية,ولتطهر نفسه من كثافة التوسع في الأعمال الحيوانية، فإن النفس يقوى طمعها وميلها إلى الحرص والأمل والحماقة والخيانة ويغض بنى نوعه كلما توسعت في كل ما يقوي الحيوانية، ويكون بذلك بعيدا عن رتبة الإنسان قريبا من الأنعام لتشبهه بها، فإذا قلل من ضروريات حياته الحيوانية تشبه بحياته الملكية من الصوم والنفقة كان أشبه بالملائكة منه بالحيوان، وكان الصيام تزكية لنفسه وشفاء لها من أمراضها، وصفاء لجوهرها، حتى تتكمل بكمالها الحقيقي الذي تكون به في مقعد صدق عند مليك مقتدر تخدمها الملائكة.

الصوم عبادة وشفاء وتزكية :

فالصوم عبادة من حيث أنه فرض فرضه الله، وشفاء من حيث أنه يرد للنفس صحتها، وتزكية من حيث أنه جلاء للنفس من التطرف عن الحالة الوسطى التي هي الفضيلة، وبه تتجمل النفس بالرحمة والصلة والبر والإحسان والتواضع، فيكون الصائم عبدا عاملا لله بتركه ما نهاه الله عنه من الأكل والشرب وملامسة النساء مما أباحه الله له في غير رمضان، فيكون متجملا بجمال الروحانيين، ومتخلقا بأخلاق الله من الرحمة والعاطفة والإحسان والود والشفقة، ومجاهدا نفسه في ذات الله بحبسها عن شهواتها، فيكون له بإطاعة الأمر النعيم المقيم، وبالتشبه بالروحانيين مشاهدة ملكوت الله، وبالتخلق بأخلاق الله نعيم النظر إلى وجهه الكريم سبحانه. فما أيسر ما ترك وما أعظم ما نال.

وقد شرحت أركان الصوم وسننه وآداب الصائمين وتنزيه الصوم في كتاب : (أصول الوصول) و (معارج المقربين) ولكن رغبة في الخير لأخي – زودني الله وإياه بفضله العظيم ورحمته – أحببت أن أبين له مزيدا في مختصري هذا.

قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : يقول الله سبحانه : (كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة إلا ٱلصوم فإنه لي وأنا أجزي به) [1] وقال عليه الصلاة والسلام : (لكل شيء باب وباب ٱلعبادة ٱلصوم) [2] وإنما كان الصوم مخصوصا لأنه عملان عظيمان : أحدهما كف النفس، وهو عمل سرى لا يطلع عليه أحد غير الله تعالى، لا كالصلاة والزكاة وغيرهما. والثاني : أنه قهر لعدو الله، فإن الشيطان هو العدو، ولن يقوى العدو إلا بواسطة الشهوات، والجوع يكسر جميع الشهوات التي هي آلة الشيطان، فلذلك قال عليه الصلاة والسلام، " إن ٱلشيطان ليجري من ابن آدم مجرى ٱلدم فضيقوا مجاري ٱلشيطان بٱلجوع " [3] وهو سر قوله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (إذا دخل رمضان فتحت أبواب ٱلجنان وغلقت أبوابُ لنيران وصفدت ٱلشياطين, ونادىٰ مناد : ياباغي ٱلخير هلم، ويا باغي ٱلشر أقصر) [4].

مقدار الصوم وأسراره :

واعلم أن الصوم بالإضافة إلى مقداره على ثلاث درجات، وبالإضافة إلى أسراره على ثلاث درجات، أما درجات مقداره فأقلها : الاقتصار على شهر رمضان، وأعلاها : صوم داود عليه السلام ؛ وهو أن تصوم يوما وتفطر يوما، ففى الخبر الصحيح أن ذلك أفضل من صوم الدهر وأنه أفضل الصيام، وسره أن من صام الدهر صار الصوم له عادة فلا يحس بوقعه في نفسه بالانكسار، وفى قلبه بالصفاء، وفى شهواته بالضعف, فإن النفس تتأثر بما يرد عليها لا بما مرنت عليه – فلا يبعد هذا – وإن الأطباء أيضا ينهون عن اعتياد شرب الدواء وقالوا : من تعود هذا لم ينتفع به إذا مرض إذ يألفه

([1]) هذا الحديث رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة وهو متفق عليه .

([2]) هذا الحديث أخرجه ابن المبارك في الزهد، ومن طريقة أبو الشيخ في الثواب من حديث أبي الدرداء, وقد رواه الغزالي في الأحياء ج1 ص 231

([3]) هذا الحديث متفق عليه من حديث صفية ولكن بدون قوله " فضيقوا مجاري الشيطان بالجوع " وقد أورده الغزالي في الإحياء ج1 ص232 .

([4]) هذا الحديث أخرجه الترمذي وقال حديث غريب، وكذلك أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه على شرط الشيخين من حديث أبي هريرة .

مزاجه فلا يتأثر به، واعلم أن طب القلوب قريب من طب الأبدان، وهو سر قوله ﴿ ﷺ وآله﴾ لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما لما كان يسأله عن الصوم فقال عليه الصلاة والسلام : (صم يوما وأفطر يوما, فقال : أريد أفضل من ذلك، فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : لا أفضل من ذلك) [1] ولذلك لما قيل لرسول الله إن فلانا صام الدهر فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (لا صام ولا أفطر) [2]، كما قالت عائشة رضي الله عنها لرجل كان يقرأ القرآن بهذرمة [3] : إن هذا ما قرأ القرآن ولا سكت.

وأما الدرجة المتوسطة : فهو أن تصوم ثلث الدهر، وإن صمت الاثنين والخميس وأضفت إليهما رمضان، فقد صمت من السنة أربعة أشهر وأربعة أيام وهو زيادة على الثلث، لكن لا بد أن ينكسر يوم من أيام التشريق وترجع الزيادة إلى ثلاثة أيام ويتصور أن ينكسر في العيدين يومان فتكون ثلاثة أيام، فترجع الزيادة إلى يوم واحد، فتأمل حسابه تعرفه، فلا ينبغي أن ينقص عن هذا القدر صومك، فإنه خفيف على النفس وثوابه جزيل.

وأما درجات أسراره فثلاث : أدناها أن يقتصر على الكف عن المفطرات ولا يكف جوارحه عن المكاره، ذلك صوم العموم وهو قناعتهم بالاسم. الثانية : أن تضيف إليه كف الجوارح فتحفظ

---

(1) هذا الحديث ذكره البخاري ومسلم، ولفظ البخاري أن عبد الله بن عمرو قال : " أخبر رسول الله ﷺ أني أقول : والله لأصومن النهار ولأقو من الليل ما عشت، فقلت له : قد قلته بأبي أنت وأمي، قال : فإنك لا تستطيع ذلك، فصم وأفطر، وقم ونم، وصم من الشهر ثلاثة أيام، فإن الحسنة بعشر أمثالها، وذلك مثل صيام الدهر، قلت : أني أطيق أفضل من ذلك، قال : فصم يوما وأفطر يومين، قلت : أني أطيق أفضل من ذلك، قال: فصم يوما وأفطر يوما، فذلك صيام داود عليه السلام وهذا أفضل الصيام، فقلت : أني أطيق أفضل من ذلك، فقال النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ : لا أفضل من ذلك " انظر صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب صوم الدهر .

(2) هذا الحديث أخرجه مسلم من حديث أبي قتادة، قيل : يا رسول الله كيف بمن صام الدهر ؟ قال : " لا صام ولا أفطر " . وأخرجه النسائي ونحوه .

(3) الهذرمة : هي سرعة الكلام والقراءة، هذرم القرآن : أسرع في قراءته لا يتدبر معانيه .

اللسان عن الغيبة والعين عن النظر إلى الزينة وكذا سائر الأعضاء. الثالثة : أن تضيف إليه صيانة القلب عن الفكر والوسواس وتجعله مقصورا على ذكر الله عز وجل، وذلك صوم الخصوص، وهو الكمال.

ثم للصيام خاتمة بها يكمل، وهو أن يفطر على طعام حلال لا شبهة فيه، وألا يستكثر من أكل الحلال بحيث يتدارك ما فاته ضحوة فيكون قد جمع بين أكلتين دفعة واحدة، فتثقل معدته، وتقوى شهوته، ويبطل سر الصوم وفائدته، ويفضي إلى التكاسل عن التهجد، وربما يستيقظ قبل الصبح،وكل ذلك خسران، وربما لا توازيه فائدة الصوم.

هذا ما كان عليه السلف الصالح، وقد بينت أركان الصوم وفرائضه في الكتب السابقة[2] فأكتفي هنا بما ألمعت إليه، والله سبحانه يوفق إخوتي المؤمنين للقيام بأركان الشريعة على وجهها الأكمل، وأن يمنحني وإياهم مقام المراقبة في الأعمال حتى لا يحصل منا تقصير يفسد العمل، ولا غفلة تنقص فضله، ولا أغراض ولا علل تجعله لغير الله تعالى إنه مجيب الدعاء.

4- الحج

تقدم تعريفه وأركانه ووصف الحاجين بيت الله تعالى في كتاب : (أصول الوصول) و(معارج المقربين) [1] بما أغنى عن إعادته هنا، ولكن لا بد من الإلماع إلى مزيد من مشاهد الحج حتى يكون هذا المختصر وافيا بالغرض المطلوب بمشيئة الله تعالى.

لما كانت الأحكام الشرعية كلها لا يمكن أن يقوم بها العامل على وجهها الأكمل إلا إذا كان عاملا بقلبه وجسمه، ولما كان كل ركن من أركان الأحكام الشرعية للقلب فيه عمل خاص وملاحظات خاصة، لا يمكن أن يكون العمل كاملا شرعا إلا باستيفاء تلك المعاني، ولو أن المسلم حرك جسمه بتأدية الأحكام الشرعية مع غفلة قلبه عن الاستحضار الذي يتمثل فيه لمن العمل، ولم

(1) أفرد الإمام المجدد أبو العزائم عليه السلام للصوم كتاب : (صيام أهل المدينة المنورة) علاوة على ما ذكر في كتبه الأخرى.

العمل، ومن هو العامل، وما الغاية الباعثة عليه ؟ كان العمل ناقصا أو مردودا لعدم استيفاء شروطه شرعا. وهذا لغفلة القلب فإن الأعمال البدنية صور ميتة، وإنما حياتها وروحها بالإخلاص فيها.

والحج هو الركن المالي البدني الروحاني، أما كونه بدنيا فلانتقال الجسم من مكان إلى مكان، وأما كونه ماليا فلبذل الأموال في النفقة على نفسه في زاده وراحلته، وأما كونه روحانيا فلأن الحاج قاصد ربه بانتقاله، فهو لا يقطع مرحلة كونية إلا تقطع الروح مرحلة من مراحلها حتى تصل إلى جناب القدس الأعلى، ولهذه المعاني كلها أشار الله تعالى إلى أن من توفرت لديه معدات الحج وأهمله كان كأنه كفر، قال الله تعالى : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾[1] أي : ومن كفر بترك الحج بعد الاستطاعة فإن الله غني عنه وعن عمله، فالحج ظاهره انتقال إلى مكة المكرمة، وباطنه فرار من الدنيا إلى الملكوت الأعلى بالروح، إنما يشهد تلك المعاني من عمل بما علم عملا مطابقا لسنة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم) [2].

من مشاهد الحج :

ومن خرج من بيته مهاجرا إلى الله، موقنا أنه سيزول البين من البين، وتقع عين بصيرته على جمال مولاه العلي، كيف يكون حاله في سيره ؟، ولا أشك أنه يكون في أرفع درجات الشوق إلى مولاه، وأكمل أحوال الخشوع والرهبة من ربه الذي خلقه ودعاه إلى حضرته العلية فلباه، لا تخطر على قلبه الدنيا لاستغراقه في الشوق إلى الله، فلا ينتقل خطوة إلا ويشهد مشاهد تنمو بها صبوته، وتقوى حالته, وتجدد بها رهبته. يشهد من كل ركن من أركان الحج مشاهد ملكوتية، فيشهد في مقام الإحرام إخلاص القلب من كل حظ وهوى في التوجه إلى الله، وتطهير السر من كل علة وغرض لمواجهة الله، وقطع كل علاقة بينه وبين أهله وولده إقبالا على الله، ورغبة فيما عند الله،وحسن ثقة بولاية الله لهم،وهكذا لا ينتقل من ركن إلى ركن ولا مكان إلى مكان إلا أشهده الله ملكوت كل مكان، وأسرار

([1]) أفرد الإمام للحج كتاب : (هداية السالك إلى علم المناسك) وكتاب : (لبيك اللهم لبيك) وقد قامت مشيخة الطريقة العزمية بطبع هذه الكتب .

([2]) سورة آل عمران آية 97 .

كل عمل من الأعمال، حتى إذا وقف على عرفات نفسه، فعرف ربه ورجع إلى بيت الوجهة بيت ربه الحرام، منيبا إليه بعد المعرفة،ذاكرا جنابه العلي، لا يشغله عن ذكر الله ذكر والد ولا ولد، بل ولا دنيا ولا آخرة، وعند ذلك يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، ثم يتجلى الغفور التواب فيمنحه بدل كل سيئة حسنة، فيرجع وهو كيوم ولدته أمه مطهرا من الذنوب، وهو كمن عبد الله بأخلص نية طول عمره سر قوله تعالى ﴿فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ [1].

ولولا أن هذا المختصر وضعته لأبين للناس أجمعين _لا فرق بين المسلم وغيره _ أن الإسلام دين سمح، أكتفي بهذا النذر اليسير، وأذكر ما لا بد من ذكره في ركن الحج مما يحتاج إليه أخي المسلم، ومن ظهرت له جمالات الإسلام علم أن ما عليه القوم من الأديان الأخرى محض ضلال وتعصب قبيح للآباء، ذلك أمر بديهي إذا نظر نظرة مريد نجاة نفسه، وراغب في الحق، ومنزه عقله وفكره عن أن يقبل غير ما يتضح نوره ويظهر دليله.

أعمال الحج :

قد بينتها مفصلة في (أصول الوصول) و (معارج المقربين) وهنا أبين ما لا بد منه للسالك المخلص، قال الله تعالى : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ﴾[2] وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا أو إن شاء نصرانيا) [3] وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (بني ٱلإسلام علىٰ خمس...) [4] الحديث.وللحج أعمال ظاهرة ذكرناها فيما سبق لنا من الكتب، ونريد أن ننبهك في هذا المختصر إلى آداب دقيقة وأسرار باطنة.

---

(1) سورة الفرقان آية 70.

(2) سورة آل عمران آية 97.

(3) هذا الحديث أخرجه ابن عدي من حديث أبي هريرة، وذكر الترمذى نحوه من حديث علي، وقال هذا حديث غريب، وفى إسناده مقال، وقد ذكره الغزالي في الإحياء ج1 ص 239.

(4) هذا الحديث متفق عليه، ورواه الشيخان والترمذي والنسائي عن ابن عمر .

آداب الحـج :

أما الآداب فسبعة :

الأول : أن ترتاد للطريق رفيقا صالحا ونفقة طيبة حلالا، فالزاد الحلال ينور القلب، والرفيق الصالح يذكر بالخير، ويزجر عن الشر.

الثاني :أن يخلي يده عن مال التجارة لكي لا يتشعب فكره، وينقسم خاطره، ولا يصفو للزيارة قصده.

الثالث : أن يوسع في الطريق بالطعام، ويطيب الكلام مع الرفقاء والمكاري.

الرابع : أن يترك الرفث والجدال والتحدث بالفضول في أمر الدنيا، بل يقصر لسانه –بعد مهمات حاجاته – على الفكر وتلاوة القرآن

الخامس : أن يركب راحلة دون المحمل، ويكون رث الهيئة أشعث أغبر غير متزين، بل على هيئة المساكين، حتى لا يكتب في جملة المترفين.

السادس : أن ينزل على الدابة أحيانا ترفيها للدابة [1]،وتطييبا لقلب المكاري، وتخفيفا للأعضاء بالتحرك، ولا يحمل الدابة ما لا تطيق، بل يرفق بها ما أمكن

السابع : أن يكون طيب النفس بما أنفق من نفقة، وبما أصابه من تعب وخسران ، وأن يرى ذلك من آثار قبول الحج ، فيحتسب الثواب عليه.

([1]) لقوله عليه الصلاة والسلام : " لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسي " وهذا الحديث أخرجه أحمد من حديث سهل بن معاذ، ورواه الحاكم وصححه، وكذلك أيضا حديث : "كان النبي ﷺ ينزل عن الدابة غدوة وعشية، يريحها بذلك " وقد أخرج هذا الحديث الطبراني في الأوسط، ورواه البهيقي في الآدب أيضا .

أسرار الحج :

وأما أسراره فكثيرة نرمز منها إلى أمرين :

الأمر الأول : أنه وضع بدلا من الرهبانية التي كانت في الملل كما ورد به الخبر [1]، فجعل الله سبحانه الحج رهبانية لأمة سيدنا مُحَمَّد ﴿ ﷺ وآله﴾ ،فشرف البيت العتيق وأضافه سبحانه إلى نفسه ونصبه مقصد العباد،وجعل مع ما حواليه حرما لبيته تفخيما لأمره، وجعل عرفات كالميدان على فناء حرمه، وأكد حرمه الموضع بتحريم صيده وشجره،ووضعه على أمثال الملوك ليقصده الزوار من كل فج عميق، ضعفاء غبراء متواضعين لرب العالمين خضوعا لجلاله، واستكانة لعزته، مع الاعتراف بتنزهه عن أن يكتنفه بيت، أو يحويه مكان، ليكون ذلك أبلغ في رقهم وعبوديتهم لذاته ﷻ، ولذلك كلفهم سبحانه أعمالا غريبة لا تناسب الطبع والعقل، ليكون إقدامهم بحكم محض العبودية، وامتثال الأمر من غير معاونة باعث آخر، وهذا سر عظيم في الاستعباد، ولذلك قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (لبيك بحجة حقا تعبدا ورقا) [2].

الأمر الثاني : أن هذا السفر وضع على مثال سفر الآخرة، فليتذكر المريد بكل عمل من أعماله أمرا من أمور الآخرة موازيا له، فإن فيه تذكرة للمتذكر وعبرة للمعتبر المستبصر، فتذكر من أول سفرك عند وداعك أهلك وداع الأهل في سكرات الموت، ومن مفارقة الوطن الخروج من الدنيا، ومن ركوب الجمل ركوب الجنازة، ومن الالتفاف في أثواب الإحرام الالتفاف في أثواب الكفن، ومن دخول البادية إلى الميقات ما بين الخروج من الدنيا إلى ميقات القيامة، ومن هول قطاع الطريق سؤال منكر

---

(1) حيث يقول رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : حين سأله أهل الملل عن الرهبانية والسياحة في دينه : " أبدلنا الله بها الجهاد والتكبير عن كل شرف " يقول الإمام الغزالي : يعني الحج، وهذا الحديث أخرجه أبو داود من حديث أبي أمامه، ورواه الطبراني بلفظ : " إن لكل أمه سياحة وسياحة أمتي الجهاد في سبيل الله، ولكل أمه رهبانية، ورهبانية أمتي الرباط في نحر العدو " وقد أوضح الإمام الغزالي في الإحياء هذا الموضوع .

(2) هذا الحديث أخرجه البزار والدار قطني في العلل من حديث أنس، وقد أورده الغزالي في الإحياء جـ 1 ص 212، ص 266 .

ونكير, ومن سباع البوادي عقارب القبر وديدانه، ومن انفرادك عن أهلك وأقاربك وحشة القبر ووحدته, ومن التلبية إجابة داعي الله عز وجل يوم البعث.

وكذلك في سائر الأعمال، فإن في كل عمل سرا وتحته رمزا يتنبه له كل عبد بقدر استعداده للتنبه بصفات قلبه، وقصور همه على مهمات الدين، والله سبحانه وتعالى أسأل أن يمنحنا المعونة والتوفيق لعمل ما يحب، ويجعل لنا نورا نمشي به في الناس، إنه مجيب الدعاء، وصلى الله على سيدنا مُحَّد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الرابع
المعاملات
معاملة النساء وآداب عشرتهن

الإنسان مفطور على الضرورة والمثنوية :

خلق الله الإنسان ليكون خليفة عنه ﷻ، وسخر له ما في السموات وما في الأرض جميعا منه، خلق الله سبحانه ملكه بيد واحدة، وملكوته بيد واحدة، والإنسان بيديه, ليظهر ﷻ بعجائب قدرته وغرائب حكمته ظهورا تقوم به الحجة على أنه القادر الحكيم سبحانه، المنزه عن الزوجة والولد والوالد، خلق سبحانه الإنسان على صورة الرحمن [1], فهو ﷻ الواحد الأحد، المنفرد بالأحدية، المنزه عن الكثرة والاحتياج, فهو سبحانه وتعالى المنفرد بالواحدية دون غيره، والإنسان وإن كان خلقه الله على صورة الرحمن، إلا أنه ﷻ فطره على الضرورة والمثنوية، فالله هو الغنء الذي لا يفتقر إلى شيء.

والإنسان يغنى ويفتقر، ويعز ويذل، ويقوى ويضعف، ويقدر ويعجز، ويحيا ويموت، ويعين ويعان، ويعلم ويجهل، ويضل ويهتدي، قهره الله تعالى على حقيقة العبودية – وإن نسيها – وجعله مضطرا في كل نفس إلى عناية ومعونة – وإن غفل عن نشأته الأولى والآخرة – ومن دلائل احتياجه واضطراره وافتقاره أن خلق له بطنا يأكل ويتغوط، وجعله يقهر بالنوم في كل يوم، وجعل جسمه أصغر الأجسام، قال سبحانه : (لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس) [2] فهو فوق الملائكة قدرا إذا زكت نفسه، وأسفل من الشياطين إذا دساها.

([1]) لقوله عليه الصلاة والسلام : " خلق الله آدم على صورته " وهذا الحديث أورده السيوطي في الجامع الصغير تحت رقم3928 ج1ص532، وقال فيه أخرجه أحمد و البخاري ومسلم عن أبي هريرة .

([2]) سورة غافر آية 57

بين له سبحانه وتعالى سبيل الخير والشر، وأمره بما فيه خيره في الدنيا والآخرة، ومنحه الحرية والإرادة قال تعالى : (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) (1) ومن دلائل اضطراره وحجج احتياجه أن خلق له من نفسه زوجة، هي هو في الحقيقة ونفس الأمر، ولذلك جعل له أنسا بها وسكونا إليها، فهى كالأرض للإنسان وهو كالبذر لها، قال تعالى : (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها) (2)

فالمرأة حجة على أن الرجل عبد لله، والرجل حجة على أن المرأة أمة لله، لما لكل نوع من الحاجة إلى الآخر، الدالة على الذل والاحتياج، فهي محل أنسه وهو محل أنسها، وهي أرض الأشجار الإنسانية، وبستان مشاهد عجائب القدرة والحكمة العلية، وإني لولا أني وضعت هذا المختصر للأحكام الظاهرة، لكشفت الحجاب عن المشاهد العلية التي يشهدها الزوج في زوجته، من الرحمة والعناية والمشاركة في مرافق الحياة، والعفة والصون من مخالفة الله تعالى، ومن الآيات التي لا يشهدها إلا الصديقون، ولكن أفردت لذلك كتاب : (إصطلاح الصوفية) وهذا المختصر إنما أمليته ليكون سراجا منيرا للسالك، ولزمني أن أبين آداب الزوجية، وما يجب على الزوج لزوجته، وعلى الزوجة لزوجها، حتى تصفو الحياة, ويعيش الزوج مقبلا على الله مستريحا من شرور زوجته، وتعيش الزوجة مقبلة على الله تعالى في راحة من عناء زوجها، ليتم المعاملات في مختصري هذا، وإن كنت شرحت حسن المعاملات في غيره.

النكاح فرض مع الحاجة وسنة على الكفاية :

قال تعالى : (وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم) (3) وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ :(تناكحوا تناسلوا فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة حتى بالسقط والرضيع) وفى الخبر الآخر عنه ﴿ ﷺ وآله﴾ : (من رغب عن سنتي فليس مني،

(1) سورة الكهف آية 29 .
(2) سورة الأعراف آية 189 .
(3) سورة النور آية 32 .

وإن مـــن ســـنتي النكـــاح، ومـــن أحبـــني فليســـتن بســـنتي) [1] وفى الخـــبر المشـــهور عنـــه ﴿ ﷺ وآله﴾ (من كان ذا طول فليتزوج) [2] وفي لفظ آخر : (من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فإن في الصوم له وجاء) [3].

فأمر الله سبحانه وتعالى المحتاجين وندب المعصومين، فالنكاح فرض مع الحاجة، وسنة على الكفاية، ثم وعدهم جل شأنه الغنى على الفقر، فالغنى على الغنى يجعله على نحو الفقر من الفقير، فقد يكون فقيرا من الأجر فيغنيه بالأجر، ويكون فقيرا من عدم الحكم فيغنيه بإيجاب الحكم عليه، ويكون فقيرا بالضيعة والشتات وفقد المنزل والأثاث فيغنيه بوجود ذلك، وأحكمه عز وجل بما عقبه من قوله تعالى وهو الحكيم : (والله واسع عليم) [4] فهو سبحانه واسع، لغناه عن معاني فقرهم، عليم بحالهم وما يصلحهم فيما لا يعلمون مقادير رتبهم، روى الحسن عن أبي سعيد عن النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ : (من ترك التزوج مخافة العيلة فليس منا) [5] وروي عنه ﴿ ﷺ وآله﴾ : (إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فأنكحوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير) [6] وفى الخبر: (من نكح لله عز وجل وأنكح لله تبارك وتعالى استحق ولاية الله تعالى) وهذا أدنى حال تنال به الولاية، لأنها مقامات، لكل مقام عمل من الصالحات.

([1]) هذا الحديث متفق على أوله، من كلام أنس بلفظ :(من رغب عن سنتي فليس مني) وأما باقيه فقد أخرجه أبو يعلي في مسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ : (النكاح سنتي، فمن أحب فطرتي فليستن بسنتى) واسناده حسن، وقد أورده الغزالي كما ذكر هنا بنصه .

([2]) هذا الحديث أخرجه ابن ماجه عن عائشة ﵂ .

([3]) متفق عليه من كلام ابن مسعود، وقد أورده البخاري بلفظ : " من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء " رواه ابن مسعود في كتاب الصوم باب الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة .

([4]) سورة النور آية 32

([5]) رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس عن أبي سعيد، ورواه الدارمي في مسنده، والبغوي في معجمه، وأبو داود في مراسليه.

([6]) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة، وقد رواه الترمذى أيضا عن أبي حاتم المزني وقال حديث حسن .

إلا أنه روي أن بشر بن الحارث [1] ﷺ قيل له : إن الناس يتكلمون فيك، فقال : وما عسى يقولون ؟ قيل : يقولون : إنك تارك للسنة – يعنون النكاح – فقال : قل لهم أني مشغول بالفرض عن السنة. وقال مرة : ما يمنعني من ذلك إلا آية في كتاب الله تعالى، قوله: (ولهن مثل الذي عليهن) [2] ولعلي ألا أقوم بذلك، وكان يقول :

لو كنت أعول دجاجة لخفت أن أكون جلادا على الجسر. هذا يقوله في سنة عشرين ومائتين والرجال والنساء أحمد عاقبة، فكيف بوقتنا هذا ؟!.

ترك التزوج أفضل للمريد :

فالأفضل للمريد في مثل زماننا هذا ترك التزوج إذا أمن الفتنة، ووثق الحفظ، ولم تنازعه نفسه إلى معصية، ولم تترادف خواطر النساء على قلبه حتى يتشتت همه، أو يقطعه عن حسن الإقبال على الخدمة مسامرة الفكر ومحادثة النفس بأمر النساء ، ولم يجمح بصره إلى محظور، ولم يخالط ذكره شهوة تستولي عليه، لأن أول خطايا الفرج شهوة القلب بمسامرة الفكر، وهو معقول الخطيئة، الثانية إنعاظ الفرج عن شهوة القلب وهذا عمل، وقبض الرجل على فرجه منعظا معصية ثالثة، فإن ظهرت الشهوة من الفرج فهو معصية رابعة، ومس الفرج باليمين مكروه.

فمتى وقعت هذه المعاني فإنها تغير القلب عن الخشوع، وتدخل عليه النقصان، ومتى لم يبتل العبد بها فإن الخلوة أفضل المعاني, وفيها يجد لذة الوجود، وحلاوة المعاملة، ويقبل على نفسه، و يشتغل بحالة، ولا يهتم بحال غيره فيحمل حاله على حال غيره فيقصر، أو يقوم بحكم آخر فيعجز، ويعالج شيطانا آخر مع شيطانه، وتنضم نفس أخرى إلى نفسه، وله في مجاهدة نفسه مصابرة هواه وعدوه أكبر الاشتغال. ومنها أن المكاسب قد فسدت فليس ينال أكثرها إلا بمعصية، وهو مسئول من أين اكتسبه وفيم أنفقه، فإن كان كسب من غير حله حسب ذلك عليه، وإن أنفق على هواه لم يحسب ذلك له.

---

[1] هو بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء بن هلال بن ماهان بن عبد الله الحافي، وأصله من "مرو" سكن بغداد ومات بها، وصحب الفضيل بن عياض،وكان عالما ورعا، وكان أحد الصوفية المعروفين, توفى سنة 227 هـ .

[2] سورة البقرة آية 228 .

ومنها أن أكثر النساء قليلات الدين والصلاح، والأغلب عليهن الجهل والهوى، فلا يأمن أن ينقاد لأجل هواه فيخسر آخرته، أو يمانعهن فلا ينقدن له فيتنغص عليه عيش دنياه، روي أن الحسن ﷺ قال : والله ما أصبح اليوم رجل يطيع امرأته فيما تهوى إلا أكبه الله في النار.

ومنها أن الأغنياء في مقام الظالمين للفقراء لبخس حقوقهم، وتقصيرهم عما أوجب الله عز وجل عليهم لهم، فإن كان المتأهل فقيرا لقى شدة وجدا وعناء وكدا، ولم يأمن دخول الآفات عليه لأجل عيلته، وقد سئل ابن عمر رضي الله عنهما عن جهد البلاء فقال : كثرة العيال وقلة المال، وقال بعض السلف : قلة العيال أحد اليسارين، وكثرة العيال أحد الفقرين.

وقد جاء في الأثر : (الوحدة خير من قرين السوء) [1] وهو من القرين الصالح على غير يقين فلا يزال اليقين بالشك، فإن أكثر النساء لا صلاح فيهن لغلبة الهوى وحب الدنيا عليهن، وفى الخبر : (مثل المرأة الصالحة في النساء كمثل الغراب الأعصم من مائة غراب) [2] يعني أبيض البطن. وفى وصية لقمان لابنه : يابني اتق المرأة السوء فإنها تشيبك قبل المشيب، واتق شرار النساء فإنهن لا يدعون إلى خير وكن من خيارهن على حذر. وقال الله فيهن حين أفشين سر النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ : (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما) [3] يعني مالت إلى الهوى فأمرهما بالتوبة للميل إلى الهوى. ثم قال : (وإن تظاهرا عليه) [4] يعني تعاونا، وهما من خير الأزواج، فما ظنك بمن شاكلته الجهالة واستولى عليه الهوى والضلالة ؟ وفى الخبر عنه ﴿ ﷺ وآله﴾ : (ما أفلح قوم تملكهم امرأة) [5] وقال تعالى مخبرا بعداوة بعض

([1]) رواه الحاكم وأبو الشيخ والعسكري عن أبي ذر مرفوعا، ورواه الديلمي عن أبي هريرة، وثبت في صحيح البخاري :" لو يعلم الناس ما في الوحدة ما أعلم ما سار راكب بليل وحده " انظر صحيح البخاري كتاب الجهاد باب السير وحده وأخرجه الترمذي وابن ماجه .

([2]) رواه الطبراني عن أبي أمامة ولأحمد عن عمرو بن العاص ﷺ : كنا مع رسول الله ﷺ بمر الظهران فإذا بغربان كثيرة فيها غراب أعصم أحمر المنقار، فقال عليه الصلاة والسلام : " لا يدخل الجنة من النساء إلا مثل هذا الغراب في هذه الغربان" وإسناده صحيح، وهو أيضا في السنن الكبرى للنسائي .

([3]) سورة التحريم آية 4 .

([4]) سورة التحريم آية 4.

([5]) رواه البخاري في كتاب المغازى عن أبي بكرة بلفظ :" لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة " ومناسبة ذلك أن أهل فارس ملكوا عليهم بنت كسرى أنو شروان، وذلك لعدم من يتولى الملك من البنين عندهم، ورواه الحاكم وأحمد وابن حبان مطولا، وله روايات أخرى .

الأزواج والأولاد : ﴿إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ﴾ [1] يعني في الآخرة لانحطاطكم في أهوائهم، وميلكم إلى وهن آرائهن فصاروا عدوا, كيف وقد تكون المرأة والولد أعدى عدو للرجل اليوم وقبل يوم القيامة إذا خالفهم في أهوائهم وعمل بالعلم في أحوالهم، وقد كان إبراهيم بن أدهم[2] ﷺ يقول : من تعود أفخاذ النساء لم يفلح.

فالوحدة أروح للقلب، وأقل للهم، لخفة المؤنة، وقلة المطالبة، وأمن المنازعة، وسقوط حكم من أحكام الشرع عنه، وقد كان السلف يعملون في إسقاط الحكم عنهم للعجز عن القيام بها ويغتنمون ذلك، وفى التخلي قلة الاهتمام بالادخار والجمع، وترك المراعاة والتحفظ للمبيت في البيت، وسقوط المساءلة والاستخبار, وترك التجسس للآثار التي نهى الله ورسوله عنها، إذ لا يأمن ذلك مع الزوجة السوء.

وقد أبيحت العزبة وفضل التعزب لهذه الأمة في آخر الزمان، وفى خبر : (إذا كان بعد المائتين أبيحت العزبة لأمتي، ولأن يربي أحدكم جرو كلب خير من أن يربي ولدا) والخبر المشهور : (خير الناس بعد المائتين الخفيف الحاذ الذي لا أهل له ولا ولد) [3] وفى خبر آخر : (يأتي على الناس زمان يكون هلاك الرجل على يدي زوجته وأبويه وولده, يعيرونه بالفقر، ويحملونه ما لا يطيق، فيدخل المداخل التي يذهب فيها دينه فيهلك) [4]. وهذا كله لمن لم يخش العنت.

نكاح الأمة خير من العنت :

فأما من خاف العنت – وهو الزنا – فنكاح الأمة حينئذ خير له من العنت، والصبر عن نكاح الأمة خير من نكاحها، وهذا معنى قوله عز وجل في نكاح الأمة : ﴿ ذلك لمن خشي العنت

([1]) سورة التغابن آية 14

([2]) هو إبراهيم بن أدهم,يكنى أبا إسحاق,من أهل بلخ,كان من أبناء الملوك,خرج يوما للصيد فهتف به هاتف أيقظه من غفلته فترك زينة الدنيا ولعبها ولهوها,ورجع إلى طريقة أهل الزهد والورع,خرج إلى مكة، وصحب سفيان الثوري والفضيل بن عياض,مات بالشام.

([3]) أخرجه أبو يعلي عن حذيفة، ورواه الخطابي في العزلة من حديثه وحديث أبي أمامة، وأورده الغزالي في الأحياء ج2 ص24

([4]) أخرجه الخطابى في العزلة عن ابن مسعود نحوه، وللبيهقي في الزهد نحوه عن أبي هريرة .

منكم ﴾ [1] وكذلك إن كثرت الخواطر الردية والوساوس الدنية في قلبه بذكر النكاح، فشغله ذلك عن فريضة، أو شتت ذلك همه فإن نكاح الأمة أيضا خير له، على أن نكاح الأمة محرم على من وجد طولا لحرة.

كراهة الاستمناء وتحريمه :

انصرف الناس ذات يوم من مجلس ابن عباس رضي الله عنهما، وبقى شاب لم يبرح فأطال القعود، فقال له ابن عباس : هل لك من حاجة ؟ فقال : نعم، لى حاجة استحييت أن أسألكها بحضرة الملأ، قال : سلني عما شئت، قال : أني أهابك وأجلك، فقال ابن عباس : إنما العالم بمنزلة الوالد لا حشمة على السائل منه، فمهما أفضت به إلى أبيك فأفض به إلي فإنه لا عيب عليك عندى، فقال : رحمك الله، أني شاب لا زوجة لي وربما خشيت العنت على نفسي، وربما استمنيت بذكري فهل لي في ذلك معصية ؟ فأعرض عنه ابن عباس رضي الله عنهما ثم قال : أف وتف، نكاح الأمة خير من الزنا.

وقد جاء في كراهة الاستمناء وتحريمه والتغلظ فيه أخبار شديدة، روينا أن الله عز وجل أهلك أمة من الأمم كانوا يعبثون بمذاكيرهم، وقد أسنده إسماعيل بن أبان عن انس بن مالك، وسئل أبو مُحَمَّد [2] عن النساء فقال : الصبر عنهن ولا الصبر عليهن. والصبر عليهن خير من الصبر على النار، وكذلك قال بعض العلماء : معالجة العزبة خير من معالجة النساء، ولا يصلح التزويج في هذا الوقت إلا لرجل يدركه من الشبق ما يدرك الحمار، إذا نظر إلى أتان لم يملك نفسه أن يثب عليها حتى يضرب رأسه وهولا ينثني، فإن كان الإنسان على مثل هذا الوصف كان التزويج له أفضل، روي عن عكرمة ومجاهد رضي الله عنهما : (وخلق الإنسان ضعيفا) [3] قال: لا يصبر عن النساء.

([1]) سورة النساء آية 25 .

([2]) هو أبو مُحَمَّد سفيان بن عيينة بن عمران ميمون الكوفي، سكن مكة وتوفى بها، وهو من تابعى التابعين، كان إماما في الحديث، ولد سنة 107 هـ، وتوفى سنة 198 هـ .

([3]) سورة النساء آية 28 .

فضل النكاح والندب إليه :

وفى الخبر : (إذا تزوج ٱلرجل فقد أحرز نصف دينه فليتق الله في الشطر ٱلآخر) [1] وفى دعاء البراء بن عازب [2] ﷺ : أعوذ بك من شر سمعي وبصري وقلبي ومنيي. فكأن المني إذا امتلأ به خرز الصلب فطلب الخروج فخيف منه فساد القلب ومرضه بمنزلة الدم إذا كان في العروق، فإذا تصاعد من الصلب طبخه وغيره فابيض وصار منيا بإذن الله تعالى.

وذكر النساء في مجلس معاوية فذمهن قوم فقال : لا تفعلوا، فما علل المريض، ولا ندب الميت، ولا عمر البيوت مثلهن، ولا احتاجت الرجال إلى مثلهن.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : لا يتم نسك الشاب حتى يتزوج، وكان يجتمع غلمانه لما أدركوا عكرمة وكريبا وغيرهما فيقول : إن أردتم النكاح أنكحتكم، فإن العبد إذا زنى نزع نور الإيمان من قلبه، وقال عمر ﷺ لأبي الزوائد : ما يمنعك من النكاح إلا عجوزا وفجورا.

وكان بعض الصالحين يكثر التزوج حتى لم يكن يخلو من اثنتين أو ثلاثة، فعوتب في ذلك فقال : هل يعرف أحد منكم أنه جلس بين يدي الله عز وجل مجلسا أو وقف بين يدي الله موقفا في معاملته فخطر على قلبه خاطر شهوة أو فكر في ذلك ؟ فقيل : يصيبنا هذا كثيرا، فقال : لو رضيت في عمري كله بمثل حالكم في وقت واحد لما تزوجت، ثم قال : لكني ما خطر على قلبي خاطر يشغلني عن حالي إلا نفذته لأستريح منه وأرجع إلى شغلي، ثم قال : منذ أربعين سنة ما خطر على قلبي خاطر معصية.

وقد كان ابن عباس رضي الله عنهما يقول : خير هذه الأمة أكثرها نكاحا، وكان سفيان بن عيينة يقول : كثرة النساء ليست من الدنيا لأن عليا عليه السلام كان أزهد أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وكان له أربع نسوة وسبع عشرة سرية.. فالنكاح سنة ماضية، وخلق من أخلاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد كان بعض الصحابة انقطع إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يخدمه ويبيت

([1]) هذا الحديث رواه البيهقي عن أنس، ورواه الحاكم في المستدرك وقال صحيح الإسناد عن أنس مرفوعا بلفظ : " من زرقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه فليتق الله في الشطر الباقي " ورواه ابن الجوزي بلفظ : " من تزوج فقد أحرز شطر دينه فليتق الله في الشطر الآخر " .

([2]) هو الصحابي الجليل البراء بن عازب بن الحارث بن عدي الأنصارى، شهد مع سيدنا علي الجمل وصفين، توفى بالكوفة في خلافة مصعب بن الزبير . انظر : تهذيب الأسماء جـ 1 ص132.

عنده الحاجة إن طرقته فقال له : (ألا تتزوج ؟ فقال : يارسول الله أنا فقير لا شيء لي، وأنقطع عن خدمتك. فسكت عنه ثم عاد عليه ثانية : ألا تتزوج ؟ فقال له مثل ذلك، ثم تفكر الصحابي في نفسه فقال : والله لرسول الله أعلم بما يصلح دنياي و آخرتي وما يقربني من الله عز وجل، لئن قال لى الثالثة لأفعلن، فقال له رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : ألا تتزوج ؟ قال : فقلت : يارسول الله زوجني، قال : اذهب إلى بني فلان فقل لهم : إن رسول ٱلله ﴿صلى ٱلله عليه وسلم﴾ يأمركم أن تنكحونى فتاتكم، فقلت : يارسول الله إنه لا شيء ل، فقال لأصحابه : ٱجمعوا لأخيكم وزن نواة من ذهب، فجمعوا له وذهب إلى القوم فأنكحوه، فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : أولم [1]، فقال : يارسول الله لا شيء عندي، فقال لأصحابه :

اجمعوا لأخيكم ثمن شاة، فجمعوا له وأصلحوا له طعاما ودعا عليه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأصحابه) وحديث أبي سعيد الخدري ﷺ : (من ترك النكاح مخافة العيلة فليس منا) [2].

وقد كان عمر يكثر النكاح ويقول : ما أتزوج إلا لأجل الولد، وقد كانت هذه نية جماعة من السلف يتزوجون لأجل أن يولد لهم فيعيش فيوحد الله تعالى ويذكره, أو يموت فيكون فرطا صالحا يثقل به ميزانه، كيف وقد روينا عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (إن الطفل يجر أبويه بسره إلى الجنة) [3] و (إن ٱلمولود يقال له : ادخل الجنة، قال : فيقف على باب الجنة فيظل محبنطئا — أى ممتلئا غيظا وغضبا — فيقول : لا أدخل إلا وأبواي معي، فيقال : أدخلوا أبويه معه الجنة) [4] وروينا خبرا غريبا : (إن الأطفال يجمعون في موقف القيامة عند عرض الخلائق للحساب، فيقال للملائكة : اذهبوا بهؤلاء إلى الجنة، قال : فيقفون على باب الجنة، قال: فيقولون لهم مرحبا بذرارى المسلمين ادخلوا لا حساب عليكم، فيقولون: وأين آباؤنا وأمهاتنا ؟ قال : فتقول الخزنة : آباءكم وأمهاتكم ليسوا مثلكم، إنهم كانت لهم ذنوب وسيئات فهم يحاسبون عليها ويطالبون، قال: فيتضاغون ويضجون على باب الجنة

([1]) أي :اصنع وليمة .

([2]) هذا الحديث رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد، ورواه الدارمي في سنده، والبغوي في معجمه, وأبو داود في مراسيله من حديث أبي نجيح، وأورده الغزالي في الإحياء ج 2 ص 22 .

([3]) هذا الحديث أخرجه ابن ماجه من حديث علي، وكذلك رواه من حديث معاذ بلفظ : " إن الطفل ليجر أمه بسرره إلى الجنة إذا هي احتسبته " .

([4]) هذا الحديث أخرجه ابن حبان في الضعفاء من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده، وأخرجه النسائي من حديث أبي هريرة، وإسناده جيد .

ضجة واحدة, فيقول الله عز وجل للملائكة وهو أعلم : ما هذه الضجة ؟ فيقولون : ياربنا أطفال المسلمين، قالوا : لا ندخل الجنة إلا مع آبائنا، فيقول الله عز وجل : تخللوا الجمع فخذوا بأيدي آبائهم فأدخلوهم معهم الجنة).

وروينا عنه ﴿ ﷺ وآله﴾ : (خير نسائكم الودود الولود) [1] وقد قيل : إن فضل المتأهل على العزب كفضل المجاهد على القاعد، وإن ركعتين من متأهل أفضل من سبعين ركعة من أعذب، وقال تعالى في وصف الرسل عليهم الصلاة والسلام ومدحهم : ﴿ ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية﴾ [2] فعد الأزواج والذرية من مدحهم وذكرها في وصفهم، وكذلك ألحق بهم أولياءه في المدح والفضل في قوله عز وجل : ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما ﴾ [3] فسألوا الله عز وجل من فضله.

وكل ما ذكرناه من فضل النكاح يشترك فيه الرجال والنساء، بل هو لهن أفضل وأصوب لسقوط المكاسب عنهن، وقد أمر النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ المرأة بالتزوج وندبها إليه وأخبر بفضل الرجل وفضل المتزوجة على العزب في غير حديث، وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (لعن الله المتبتلين من الرجال الذين يقولون : لا نتزوج، ولعن الله المتبتلات من النساء اللاتي يقلن : لا نتزوج) بعد ما ذكر من عظيم حق الرجل على المرأة وثقل واجبه حتى قالت المرأة : إذا لا أتزوج أبدا، قال: (بلى تزوجي فهو خير)

وقد ندب الله تعالى إلى النكاح في قوله تعالى : ﴿ فأتوا حرثكم أني شئتم ﴾ [4] وفى (أنى) معان يحتمل أن تكون بمعنى متى، أي : متى شئتم ليلا أو نهارا، أو بمعنى كيف، أى : كيفما شئتم من قيام أو غيره، وإقبال أو غيره، على أن لا يجاوز الحرث.

ثم قال عز وجل : ﴿ وقدموا لأنفسكم ﴾[5] قيل : النكاح معطوف به الإتيان وهو أحد الوجوه الثلاثة، لما فيه من فضل الاغتسال من الجنابة، ولما فيه من فضل مباشرة المرأة، وأن المرأة إذا

---

(1) هذا الحديث أخرجه البيهقى من حديث ابن أبي أدية الصدفى، وقال البيهقي وروي بإسناد صحيح عن سعيد بن يسار مرسلا .

(2) سورة الرعد آية 38 .

(3) سورة الفرقان آية 74 .

(4) سورة البقرة آية 223 .

(5) سورة البقرة آية 223 .

لاعبها بعلها وقبلها كثرت له من الحسنات ما شاء الله، فإذا اغتسلا خلق الله من كل قطرة ملكا يسبح الله تعالى إلى يوم القيامة وجعل ثواب ذلك لهما، ولما في ذلك من التحصين لهما ووضع النطفة في محلها وفى ذلك فضائل جمة، وقد أمر به رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ في قوله : (ليتخذ أحدكم قلبا شاكرا، ولسانا ذاكرا، وزوجة مؤمنة تعينه على آخرته) [1].

والوجه الثاني في قوله تعالى : ﴿ وقدموا لأنفسكم ﴾ قيل : الولد قدموه لآخرتكم، لأنه عمل من أعمالكم كما قال عز وجل : ﴿ ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء﴾ [2] أى : ما نقصناهم أولادهم، أي : جازيناهم بهم وجعلناهم مزيدا في حسناتهم لأنهم من أعمالهم وأكسابهم، كما قال عز وجل : ﴿ ما أغنى عنه ماله وما كسب﴾ [3] يعني ولده، فف تدبير ذلك أن الولد يغنى المؤمن في الآخرة، كما يغني المال عنه إذا أنفقه في سبيل الله تعالى، وفى الخبر : (ولد الرجل من كسبه، فأحل ما أكل من كسب ولده) [4].

والوجه الثالث في قوله تعالى : (وقدموا لأنفسكم) قيل : التسمية عند الجماع، أي : أذكروا اسم الله تعالى عنده فذلك تقدمة لكم، وانه يستحب للمجامع أن يسمي الله عز وجل عند جماعه ويقرأ : (قل هو الله أحد) [5] قبله.

وإذا كانت المرأة معينة لزوجها على الطاعة، طالبة للتقلل والقناعة و فهى نعمة من الله عليه يطالبه سبحانه بشكرها، قال الله عز وجل : ﴿وأصلحنا له زوجه﴾ [6] فعد ذلك من نعمة الله عليه وإحسانه إليه، وروينا عن نبينا ﴿ ﷺ وآله﴾ : (فضلت على آدم عليه السلام بخصلتين : كانت له

---

(1) هذا الحديث أخرجه الترمذى وحسنه، ورواه ابن ماجة أيضا .

(2) سورة الطور آية 21 .

(3) سورة المسد آية 2 .

(4) رواه الطبراني في الأوسط عن ابن عمر رضي الله عنهما بلفظ : " الولد من كسب الوالد "

(5) سورة الإخلاص .

(6) سورة الأنبياء آية 90 .

زوجه عونا له على المعصية، وأزواجي عونا لي على الطاعة، وكان شيطانه كافرا، وشيطاني مسلما لا يأمرني إلا بخير) [1] فعد ذلك ﴿ ﷺ وآله﴾ في فضائله.

وإذا كانت المرأة حسنة الوجه، خيرة الأخلاق، سوداء الحدقة والشعر، كبيرة العين بيضاء اللون، محبة لزوجها، قاصرة الطرف، فهذه على صورة الحور العين، قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (خير نسائكم التي إذا نظر إليها الرجل سرته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته في نفسه وماله) [2].

النساء على أوصاف النفس:

واعلم أن النساء على أوصاف النفس، فمن عرف صفات النفس عرف بها أوصاف النساء، ومن قاسهن بالتجربة والخبر عرف بذلك صفات النفس، فمنهن المسولة وهي أدناهن, ومنهن الأمارة بالسوء وهي أشرهن، لا تستتر من الأذى، ولا تنأى عن خلق السوء، ومنهن بمنزلة النفس اللوامة وهي من صالح النساء، ومنهن المطمئنة المرضية وهذه هي الصالحة الخيرة الساكنة الراضية.

من وصايا بعض العرب لأبنائهم :

وأوصى بعض العرب بنيه فقال : لا تنكحوا من النساء ستا : أنانة، ولا منانة, ولا حنانة، ولا حداقة، ولا براقة، ولا شداقة. تفسير ذلك ؛ الأنانة : التي تعصب رأسها كثيرا وتكثر الأنين والتوجع والتشكي. والمنانة : هي التي تمن على زوجها تقول : فعلت بك وفعلت و أنا أفعل وأفعل. والحنانة تكون على وجهين : تكون ذات ولد من غيره فهي تحن إليه، وقد تكون ذات زوج قبله فيحن قلبها إليه. والحداقة هي التي تومي بحدقتها فتشتري كل شيء وتطالب زوجها بما تشتهيه من كل شيء، وقد تلحظ الرجال كثيرا كما يلاحظ بعض الرجال النساء. والبراقة تحتمل تأويلين : أحدهما أن تكون غضوبا في الطعام فتبرق لقلته أو لسوء خلقها، ولا تكاد البراقة للمأكول تأكل إلا وحدها لشرهها، وهي أيضا تستقل نصيبها من كل شيء، وهذه لغة يمنية، يقال : قد برقت المرأة وبرق الصبي الطعام إذا

([1]) رواه الخطيب في التاريخ عن ابن عمر رضي الله عنهما، وقد روى مسلم عن ابن مسعود : " ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن، قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : وأنا، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، ولا يأمرني إلا بخير "
.

([2]) أخرج النسائي عن أبي هريرة نحوه بسند صحيح، وقال : " ولا تخالفه في نفسها ولا مالها " وعند أحمد : "فى نفسها وماله " ولأبى داود نحوه عن ابن عباس بسند صحيح، وقد رواه الغزالي في الإحياء ج 2 ص39 .

غضب عليه، والوجه الثاني من البراقة أن تكون من البريق، تكثر صقال وجهها وخضابه فتتصنع في بروقه أبدا. و أما الشداقة : فهي التي تشدق بكثرة الكلام، وتكون زربة اللسان مفوهة في النطق.

وقال بعضهم : لا تنكح من النساء أربعا وأنكح من سواهن، المختلعة، والمبارية، والعاهر، والناشر. فالمختلعة : هي التي تطلب الخلع من زوجها من غير ما بأس وهو مع ذلك. يحبها.والمبارية : المباهية لغيرها المفاخرة بأسباب الدنيا، التي تطلب من زوجها ما تباهي به غيرها وتفتخر به على نظائرها. والعاهرة : الفاجرة التي تعرف بخليل أو خدن، المذكورة في قول الله عز وجل : ﴿ ولا متخذات أخدان﴾ [1]. والناشر : التي تعلو على زوجها في الفعال أو المقال وفصل الخطاب.

السر في أن الله تعالى أباح الجمع بين الأربع :

إن كان صلاح قلب العبد واستقامة حاله في العزبة فلا أعدل بالوحدة شيئا ، لأن أقل ما فيها السلامة، والسلامة في وقتنا هذا فضيلة وغنيمة، وإن تاقت نفسه على التزويج ولم يأمن دواعي الهوى فليتزوج إذا أدى إلى سلامة دينه، وإن لم تتم كفايته بواحدة،ضم إليها أخرى، فإن لم تكن بهما غنيمته وتمام حاله وتحصينه زاد ثالثة ، إلى أربع ، فإن الأربع مع توقان النفس إلى النكاح وقوة شهوتها في التنقل في المناكح بمنزلة الواحدة، وإن الواحدة مع وقوع الكفاية ووجود الاستغناء تنوب على الأربع.

كذلك خير الله عز وجل صورة النفس فيما عليه جبلتها، وفاوت بين الطبائع فيما عليه جعلها، يقال إن الله عز وجل أباح الجمع بين الأربع، لأجل الطبائع الأربع لكل طبيعة وحدة على قدر حركاتها وتوقان النفس عندها، ولا نقص على العبد في ذلك إذا قام بما عليه لهن،أو سمحن بحقوقهن من النفقة والمبيت له، بل ذلك مزيد له ودلالة على قوته وتمكنه في الحال. وهذه طرائق الأقوياء والأئمة من الرجال. وقد شرط الله تعالى مع الزوجة الواحدة ثلاثة شروط، إن وجدت كان بها كفاية العبد وسكنت بها نفسه، وكان ذلك من آيات الله الدالة عليه، وإن لم توجد الشروط الثلاثة مع الواحدة كان له المزيد عليها إلى الرباع، وكن في المعنى كالواحدة لعدم الشروط التي أخبر الله عز وجل بسكون النفس عندها، وعند الأربع توجد الشروط في قلوب المؤمنين لا محالة كما أخبر عز وجل،وكان ذلك أيضا من آياته وحكمته الدالة عليه، فقال سبحانه : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) [2] فإن وجد العبد سكون النفس ، ورحمة القلب ، والمودة في المرأة الواحدة

---

(1) سورة النساء آية 25 .

(2) سورة الروم آية 21.

فهو من آيات الله عز وجل، وهي كفايته وغنيته، وإن لم يجد السكون، ولا الرحمة، ولا المودة إلا في الأربع فهن حينئذ كفايته وغنيته، والله تبارك وتعالى يغني بالواحدة ويغني بالأربع.

العدل بين الأزواج :

وليتوخ العدل بين أزواجه من جمع بينهن في النفقة والكسوة والمبيت، ولا يحيف على بعض فيقصر عن كفايتها وواجبها في ذلك، فقد جاء في الحديث : (من كان له امرأتان فمال إلى إحداهما دون الأخرى — وفى لفظ آخر : فلم يعدل بينهما — جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل) [1] ولا عدل عليه في المحبة أو الجماع- لأن ذلك لا يملك- إذا سوى في البيتوتة، ولا عليه أن يجامع من بات عندها، إنما عليه المبيت ليلة وليلة، وفى تفسير قوله تعالى :﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم﴾ [2] قال : لن تقدروا على العدل بينهن في الحب والجماع ، لأن ذلك فعل الله عز وجل في القلوب وفى شهوة النفس.

وروينا عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أنه كان يقسم بين نسائه في العطاء والمبيت ، وكان يقول: (اللهم هذا جهدى فيما أملك ، ولا طاقة لى فيما تملك ولا أملك) يعني في المحبة والجماع ، فكان يحب بعضهن أكثر من بعض ، وكانت عائشة ﵂ أحبهن. وكان يطاف به ﴿ ﷺ وآله﴾ محمولا في مرضه في كل يوم وليلة فيقول : (أين أنا غدا) ففطنت امرأة منهن فقالت : إنما يسأل عن يوم عائشة ﵂ ، فقلن : يا رسول الله ، إنه ليشق عليك أن تحمل ، فقد أذنا لك أن تكون في بيت عائشة رضي الله عنها ، فقال : ((قد رضيتن بذلك ؟ قلن نعم ، قال : فحولوني إلى بيت عائشة)) [3] فلذلك كانت تقول : (قبض في بيتي وبين سحري ونحري) تفتخر بذلك.

ثم قال الله عز وجل : ﴿ فلا تميلوا كل الميل ﴾ [4] يعنى على واحدة دون الأخرى في التقصير والنفقة ﴿ فتذروها كالمعلقة ﴾ [5] أى : موقوفة كأنها لا ذات زوج ولا مطلقة ، أى : لا أيم

([1]) أخرجه أصحاب السنن وابن حبان عن أبي هريرة ، قال أبوا داود وابن حبان : ((فمال مع إحديهما)) وقال الترمذي : ((فلم يعدل بينهما)) وقد أورده الغزالي في الإحياء ج 2 ص 48 .

([2]) سورة النساء آية 129.

([3]) رواه ابن سعد في الطبقات من رواية محمَّد بن على بن الحسين .

([4]) سورة النساء آية 129 .

([5]) سورة النساء آية 129.

فتتحمل لنفسها ، ولا ذات زوج ينفق عليها فتستغني بزوجها. فعليه أن يقسم بينهن أيامه ولياليه، فيكون عند كل واحدة يوما وليلة إلا أن تهب لصاحبتها ليلتها ، أو تسمح له بذلك ، فكذلك كان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يقسم بين نسائه ، فأراد أن يطلق سودة [1] بنت زمعة لما كبرت فوهبت ليلتها لعائشة ، وسألته أن يقرها على الزوجية لتحشر في نسائه فتركها ولم يكن يقسم لها فكان يقسم لعائشة ليلتين ولسائر أزواجه ﴿ ﷺ وآله﴾ ليلة ليلة ، [2] إلا أنه عليه الصلاة والسلام لشدة عدله ، كانت نفسه إذا تاقت إلى واحدة ليلا في غير ليلتها أو نهارا في غير يومها أتاها فجامعها ،ثم طاف في ليلته على سائرهن ، وكذلك كان يفعل في يومه ، فمن ذلك ما روي عن عائشة ﵂ وغيرها أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ طاف على نسائه في ليلة واحدة.

ومن لم يكن له إلا واحدة استحب له أن يفضي إليها بعد كل ثلاث ليال بمنزلة من له أربع نسوة ، فيباشرها في الليلة الرابعة ، فإن علم أن حاجتها إلى أكثر من ذلك كان عليه أن يفعل ما هو أقرب لتحصنها وأثبت لعفافها ، وإن علم منها كراهة ذلك وقلة همتها له لم يكن عليه الإفضاء إليها إلا في كل شهر مرة ، أو في كل سنة مرة ، وعليها ألا تمنعه ليلا ولا نهارا في كل وقت ، وإن كانت صائمة فلا يحل لها أن تصوم إلا بإذنه.

وتزوج علي عليه السلام بعشر نسوة ، وتوفى عن أربع وسبع عشرة سرية ، وتزوج الحسن بن علي عليهما السلام مائتين وخمسين امرأة ، وقيل : ثلاثمائة ، وتزوج المغيرة بن شعبة [3] بثمانين امرأة ، وقد كان في الصحابة ﵃ من له الثلاث والأربع ، وكثير منهم لا يحصى كانت له اثنتان لا يخلو منهما.

ويقال : إن كثرة النكاح من شدة غض البصر وقطع المشي في الأثر ، إذا خشع الطرف وقصر عن الحرام وانقطع المشي على الأرض غاض البصر في النفس فاتسع في الحلال ، وذلك لأن

([1]) **هي** أم المؤمنين سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس القريشية العامرية ، تزوجت قبل الرسول ﷺ من ابن عمها السكران بن عمرو وكان مسلما ، وهو من مهاجرة الحبشة ، توفيت في شوال سنة 54 هـ .

([2]) هذا الحديث رواه أبو داود من حديث عائشة ﵂،وللطبراني أيضا قريب من هذه الرواية، وعند البخاري بلفظ : "لما كبرت سودة وهبت يومها لعائشة ... " وللبيهقي مرسلا مثله .

([3]) هو الصحابي الجليل أبو مُحَمَّد المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي الكوفي، أسلم عام الخندق، كان موصوفا بالدهاء والحلم، ولاه عمر بن الخطاب ﵁ البصرة مدة، ثم نقله عنها فولاه الكوفة، شهد اليمامة وفتح الشام، وذهبت عينه يوم اليرموك، وشهد القادسية، توفى سنة 50 هـ .

للنفس استراحات إلى مجانسها هو فتورها عن الذكر ، فاستراحات نفوس المتقين إلى المباح ، من ذلك قوله عز وجل : ﴿ ليسكن إليها ﴾ [1] وهذا سكون النفس إلى الجنس لما تلائمه من الصفات المجانسة ، وهو أحد المعاني في قول علي عليه السلام : (روحوا ٱلقلوب) يعني في الذكر ، قيل : روحوها باستراحة النفس إلى المباح، يعني ذكر الآخرة لأن الذكر أثقال، وهو بمعنى قول النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ (إن لكل عالمص شرها وفترة فمن كانت فترته إلى سنتي فقد ٱهتدىٰ) [2] والشره :المكابدة، والفترة: الوقوف والاستراحة.

وقد كان النساء قديما على غير وصفهن الآن، كان الرجل إذا خرج من منزله تقول له امرأته : يا هذا، وتقول له ابنته : يا أبانا لا تكسب اليوم شيئا من غير حله فيدخلك النار، فنكون نحن سببه، فانا نصبر على الجوع والضر ولا نكون عقوبة لك. وأراد رجل من السلف أن يغيب عن أهله في غزوة فكره إخوانه ذلك لأنسهم به، فجاءوا إلى أهله فقالوا : لم تتركين زوجك يسافر ولا يدع لك نفقة ويغيب عنك ولا تدرين متى يقدم ؟ فقالت : زوجي منذ عرفته أكال، وما عرفته قط رزاقا، يذهب الأكال ويبقى الرزاق، ومع ذلك فلا أحب أن أكون مشئومة عليه أقطعه عن سبيل الخير.

ما يستحب للرجل إذا أراد التزويج :

واستحب للرجل إذا أراد التزويج أن يشرح حاله ويبين أخلاقه للمرأة حتى تكون على بصيرة من أمره، ويقين من حاله، ويدخل على اختيار منها فذلك من الورع، وقد فعله بعض السلف، وقد تزوج رجل على عهد عمر ﷺ وكان يخضب بالسواد، فلما دخل بامرأته نصل خضابه فظهرت شيبته، فاستعدى أهل المرأة وقالوا : نحن حسبناه شابا، فأوجعه ضربا وقال : غررت بالقوم، وفرق بينهما. وروي عن شعيب ابن حرب لما أراد أن يتزوج قال للمرأة : أني سئ الخلق، فقالت يا هذا، أسوأ خلقا منك من يحوجك إلى سوء الخلق.

ومن خشي على نفسه الآفات ووفق له امرأة فيها بعض الخصال المحمودة فالتزوج له أفضل، فليكن له حينئذ في التزوج نيات، لأنه من أكبر الأعمال, ولا يكون نكاحه لأجل هواه مجردا،

---

[1] سورة الأعراف آية 189 .

[2] هذا الحديث رواه الطبراني عن ابن عمر، وأخرجه البيهقي ولفظه: " إن لكل عمل شره، ولكل شره فترة، فمن كانت فترته إلى سنتي فقد اهتدى، ومن كانت إلى غير ذلك فقد هلك " وله روايات أخرى، منها " لكل عامل شره، ولكل شره فترة فمن كانت فترته إلى سنتي فقد أفلح " .

ولتكن نيته إقامة سنة, وصلاح قلبه، وسلامة دينه, وغض بصره، وتحصين فرجه فقد أمر بذلك، ويحتسب في الكسب على العيال المثوبة من الله عز وجل، ويحتسب في مثل ذلك في نصحه لها في أمر الآخرة كما يحبه لنفسه حتى يؤجر بسببها مثل ما يثاب لنفسه,فهو من النصيحة لها والإشفاق عليها,وليجعل ذلك لوجه الله سبحانه وتعالى، فقد روي عنه ﴿ ﷺ وآله﴾ : (ما أنفق الرجل على أهله فهو له صدقة، وإن الرجل ليؤجر في رفع اللقمة إلى فم امرأته) ومنها أنه كالمجاهد في سبيل الله، وروي عنه ﴿ ﷺ وآله﴾ : (من حسنت صلاته، وكثرت عياله، وقل ماله، ولم يغتب المسلمين، فهو معي في الجنة كهاتين) [1] وفي حديث آخر : (إن الله تعالى يحب الفقير المتعفف أبا العيال) [2] ومن النية في ذلك أن الاهتمام بمصلحتهم والغم على نوائبهم زيادة في حسناته، لأنه عمل من أعماله. وفى الخبر (إذا كثرت ذنوب العبد ابتلاه الله تعالى بالهم ليكفرها) [3] وقد روينا (إن من الذنوب ذنوبا لا يكفرها إلا الهم بطلب المعاش) [4].

وله في الصبر عليهن وجميل الاحتمال لأذاهن وفى حسن العشرة لهن مثوبات وأعمال صالحات، وربما كان موت العيال عقوبة للعبد ونقصان حظ، إذا كان الصبر عليهم والإنفاق مقاما له، فكان عدم ذلك مفارقة لحاله وفى ذلك نقصان.

وإنما كره الأهل والولد لأجل الشغل بهم عن الله تعالى، وما يقرب إليه سبحانه، فإذا كان من لا أهل له ولا ولد مشغولا ببطالته عن الله عز وجل، منهمكا في شهواته عن سبيل هؤلاء، كان أسوا حالا من ذ الأهل والولد. وقد روي في الخبر : (إن من أهل النار الضعيف الذي لا دين له، هو فيكم تبع لا يبغي أهلا ولا مالا) قيل : هم السؤال المنهمكون في المسألة، الذي همه بطنه لا يبالي كيف طلب، ولا على أى حال من الفحش تقلب، فمن لم يشغله أهله وماله عن الله عز وجل، كان أفضل ممن لا أهل له ولا ولد فهو عبد بطنه وفرجه، أسير هواه وشهوته.

وقد أخبر الله تعالى أن للمؤمنين أموالا وأولادا، ثم أمرهم ألا يشغلهم ذلك عن الله عز وجل، وقد وصف أقواما أن بيعهم وتجارتهم لا تشغلهم عن عبادته، وإنهم أهل خوف من يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار.

([1]) أخرجه أبو يعلي عن سعيد الخدري .

([2]) أخرجه ابن ماجة عن عمران بن حصين .

([3]) رواه أحمد عن عائشة ﵂ إلا أنه ذكر بدل كلمة :(الهم) كلمة : (الحزن) .

([4]) أخرجه الطبراني في الوسط، وأبو نعيم في الحلية، وكذلك رواه الخطيب في التلخيص المتشابه عن أبي هريرة .

فإن عزم العبد على النكاح فلا يكون همه من النساء إلا ذات دين وصلاح وعقل وقناعة، فلا تخلص له النيات التي ذكرناها آنفا إلا على هذه القواعد، قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾: (تنكح المرأة لمالها وجمالها وحسبها ودينها، فعليك بذات الدين) [1] وفى حديث آخر : (من نكح المرأة لمالها وجمالها حرم مالها وجمالها، ومن نكحها لدينها رزقه الله عز وجل مالها وجمالها) [2] وروينا أيضا : (لا تنكحوا المرأة لجمالها فلعل جمالها يرديها، ولا لمالها فلعل مالها يطغيها، وانكحوا المرأة لدينها) [3] فنكاح المرأة للدين والصلاح طريق من الآخرة، والرغبة في المرأة الناقصة الخلق، الدنيئة الصورة، الكبيرة السن من باب الزهد. وكان مالك بن دينار [4] يقول : يترك أحدهم أن يتزوج يتيمة فيؤجر فيها، إن إطعمها أو كساها تكون خفيفة المؤنة، ترضى باليسير، ويتزوج بنت فلان وفلان – يعني أبناء الدنيا – فتشتهي الشهوات عليه وتقول : اكسنى ثوب كذا، واشتر لي مرط حرير، فيتورط في دينه.

واستحب له أن ينظر إلى وجهها قبل التزويج بها وإلى ما يدعوه إليها، فإن ضم إلى الوجه الكفين فلا بأس بذلك، ففي النظر إلى الوجه أحاديث مأثورة منها قوله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (إذا أوقع الله عز وجل في قلب أحدكم خطبة امرأة فلينظر إليها ليرى منها ما يدعوه إليها) [5] وفى الحديث الآخر : (إن في أعين الأنصار شيئا فإذا أراد أحدكم أن يتزوج منهم فلينظر إليهن ولا يغالي في المهر) فقد تزوج

([1]) متفق عليه من حديث أبي هريرة، وأورده البخاري بلفظ : " تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك "كتاب النكاح باب الأكفاء في الدين، ورواه عن أبي هريرة .

([2]) هذا الحديث رواه الطبراني في الأوسط من حديث أنس، ورواه ابن حبان في الضعفاء، إلا ان رواية الطبراني تخالف المذكورة هنا لفظا ولكنها تتفق معها في المعنى .

([3]) هذا الحديث أخرجه ابن ماجة من حديث عبد الله بن عمرو .

([4]) هو أحد علماء الزهاد،كان من التابعين، سمع الحسن البصري وسعيد بن جبير، قال النسائي : هو ثقة . توفى سنة 123 هجرية .

([5]) هذا الحديث أخرجه ابن ماجة من حديث أحمد بن مسلمة، وللترمذي وقال حديث حسن، والنسائي وابن ماجة من حديث المغيرة بن شعبة : أنه خطب امرأة فقال النبي ﷺ : " انظر إليها فانه أحرى أو يؤدم بينكما " وأورده الغزالي في الأحياء ج2 ص 29 .

رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بعض نسائه على عشرة دراهم وأثاث البيت [1] وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁ ينهى عن المغالاة لمهور النساء ويقول : ما تزوج رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ امرأة من نسائه ولا زوج على أكثر من أربعمائة درهم [2] وعن عائشة ﵂ : كانت مهور أزواج رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ اثنتي عشرة أوقية ونصفا، وقد كان يزوج أصحابه عليه الصلاة والسلام على وزن نواة من ذهب [3]، والنواة صغيرة وهي نواة التمر الصيحاني، يقال : قيمتها خمسة دراهم، ففي الخبر عنه ﴿ ﷺ وآله﴾ : (أبركهن أقلهن مهرا) [4] وأيضا عنه ﴿ ﷺ وآله﴾ (من بركة المرأة سرعة تزويجها وسرعة رحمها — يعني الولادة — ويسر مهرها) [5] قال عروة : وأقول إن من شؤمها كثرة صداقها.

أسس المعاملة والسلوك بين الزوجين :

ولا يصلح للمتزوج أن يسأل: أي شيء للمرأة ؟ ولا يحل له ان يدفع شيئا ليأخذ أكثر منه، ولا يحل لهم أن يهدوا إليه شيئا ليضطروه أن يكافيء بأكثر منه، وليس عليه أن يزيد بأكثر من قيمته إن كافأ، وله ألا يقبل هديتهم إن علم ذلك منهم، وهذا كله بدعة في النكاح، وهي كالتجارة في التزويج، وهو داخل في الربا، وهو يشبه القمار، ومن زوج أو تزوج على هذا بهذه النية فهي نية فاسدة، وليس نكاحه هذا للدين ولا للآخرة، وكان الثوري [6] يقول : إذا تزوج الرجل وقال : أي شيء للمرأة ؟ فاعلم أنه لص فلا تزوجوه.

([1]) هذا الحديث رواه أبو داود الطياسي والبزار من حديث أنس، وهذه الزوجة هي أم سلمة، وله روايات من طرق أخرى .

([2]) رواه الأربعة من حديث عمر، وقال الترمذي حسن صحيح .

([3]) متفق عليه عن انس : أن عبد الرحمن بن عوف تزوج على ذلك، وتقويمها بخمس دراهم، وقد رواه أيضا البيهقي، وأورده الغزالي في إحياء علوم الدين ج2 ص 40 .

([4]) رواه أبو عمر التوقاني في معاشرة الأهلين من حديث عائشة :" إن أعظم النساء بركة أصبحهن وجوها وأقلهن مهرا " وقال : حديث صحيح : وأخرج ابن حبان عن ابن عباس :" خيرهن أيسرهن صداقا " .

([5]) رواه أحمد والبيهقي عن عائشة :" من يمن المرأة أن تتيسر خطبتها وأن يتيسر صداقها وأن يتيسر رحمها " قال عروة : يعني الولادة، وإسناده جيد .

([6]) هو أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي، وهو من تابعي التابعين، ولد سنة 97 هـ، اتفق العلماء على وصفه بالبراعة في العلم والفقه والحديث والورع والزهد، رحل إلى البصرة وبها توفي سنة 161هـ .

ولا ينكح إلى مبتدع ولا فاسق ولا ظالم ولا شارب خمر ولا آكل الربا، فمن فعل ذلك فقد ثلم دينه وقطع رحمه، ولم يحسن الولاية لكريمته لأنه ترك الإحسان، وليس هؤلاء أكفاء للحرة المسلمة العفيفة، قال بعض السلف: (النكاح رق، فلينظر أحدكم عند من يرق كريمته) [1]. وقال بعضهم : لا تنكح إلا الاتقياء فإنه إن أحبها أكرمها، وإن أبغضها أنصفها، وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (تخيروا لنطفكم وانكحوا الأكفاء وأنكحوا إليهم) ولا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل وإن كانت ثيبا، فإن لم يكن ولي فالسلطان ولي من لا ولي له، أو من ولاه الحكم، كذلك كانت السنة.

تحصيل ما يلزم للزوجين من العلم :

وليتعلم المتزوج علم الحيض واختلاف أوقاته وزيادته و نقصانه، وأحكام الاستحاضة من ذلك، وعلم وقت الإطهار ليعلمها ذلك، وليغنيها بذلك عن السؤال والظهور إلى الرجال، ثم ليعلم أهله علم ما لا يسعهم جهله من الفرائض وأحكام الصلاة وشرائع الإسلام واعتقادات المؤمنين من السنة وما عليه من مذهب الجماعة، فإذا فعل ذلك لم يكن عليها أن تخرج إلى العلماء، وإن قصر عن علمها علم التوحيد ومباني الإسلام وعقود الإيمان ومذهب أهل السنة، فلها أن تخرج إلى السؤال عما لا يسعها جهله ، وليس لها أن تخرج بغير إذنه لطلب علم يرجى فضله.

تحري الكسب الحلال :

وليس للمرأة أن تحمل زوجها على المكاسب الحرام، ولا تكلفه ما يقترف به الآثام، ولا للرجل أن يدخل في مداخل السوء, ولا يبيع آخرته بدنياه، فإن صبرت معه على البر والتقوى أمسكها، وإن حملته على الإثم والعدوان فارقها،﴿ وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته﴾ [2].ويقال : أول من يتعلق بالرجل يوم القيامة زوجته وولده، فيوقفونه بين يدى الله عز وجل، فيقولون : يا ربنا خذ لنا حقنا من هذا ، فإنه ما علمنا ما نجهل، وكان يطعمنا الحرام ونحن لا نعلم، قال : فيقتص لهم منه. وفى خبر : (إن العبد ليوقف للميزان وله من الحسنات أمثال الجبال، فيسأل عن رعاية عياله والقيام بهم، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، حتى تستفرغ تلك المطالبات جميع أعماله، فلا يبقى له

([1]) رواه أبو عمر التوقاني في معاشرة الأهلين موقوفا على عائشة وأسماء ابنتى أبي بكر . قال البيهقي وروى ذلك مرفوعا
.

([2]) سورة النساء آية 130

حسنة، فتنادي الملائكة : هذا الذي أكل عياله حسناته في الدنيا، وارتهن اليوم بأعماله) [1]. قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا) [2] فأضاف سبحانه الأهل إلى النفس، وأمرنا أن نقيهم النار بتعليم الأمر والنهي، كما نقى أنفسنا النار باجتناب النهي، وجاء في تفسير ذلك : علموهن وأدبوهن. وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالمرأة راعية على مال زوجها وهي مسئولة عنه، والرجل راع على أهله وهو مسئول عنهم) [3]

ويقال : إذا أنفقت المرأة من مال زوجها بغير إذنه لم تزل في سخط الله عز وجل حتى يأذن لها : والخبر المشهور : (كفى بالمرء إثما ان يضيع من يعول) [4] ولا يحل للزوجة أن تطعم من منزل زوجها إلا الرطب الذي يخاف فساده، فإن أطعمت وأنفقت عن إذنه ورضاه كان لها مثل أجره، وإن أطعمت بغير إذنه كان له الأجر وعليها الوزر.

طاعة الزوجة لزوجها :

وينبغي أن يعرفها أعظم حقه عليها في مقام الوالدة بقوله للمرأة : عليك بطاعة زوجك، فإنه جنتك ونارك، قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة) [5] وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها، دخلت جنة ربها) [6] فأضاف طاعة الزوج إلى أبنية الإسلام التي لا يدخل الجنة إلا بها، واشترط طاعته لدخولها. وذكر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ النساء فقال : (حاملات والدات مرضعات رحيمات بأولادهن، لولا ما يأتين إلى أزواجهن دخلت مصلياتهن الجنة) [7] وفى الخبر الجامع لفضائل الزوج أن

([1]) أورده الغزالي في الإحياء ج 2 ص 33

([2]) سور ة التحريم آية 6 .

([3]) رواه ابن عمر، وقد أخرجه الشيخان وهو متفق عليه .

([4]) رواه أبو داود والنسائي بلفظ : "كفى بالمرء إثما يضيع من يقوت " وهو عند مسلم بلفظ آخر .

([5]) أخرجه الترمذي وقال : حسن غريب . وأخرجه ابن ماجة من حديثه .

([6]) أخرجه ابن حبان عن أبي هريرة .

([7]) أخرجه ابن ماجة والحاكم وصححه عن أبي إمامة، ولكنه لم يذكر قوله : " مرضعات " ولكن الطبراني ذكرها في المعجم الصغير .

النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ قال : (لو أمرت أن يسجد لشيء سوى الله عز وجل لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها) [1] من عظم حقه عليها.

ومن حقه ألا تعطء شيئا من بيته إلا بإذن زوجها، فإن فعلت ذلك كان الإثم عليها والأجر له. ومن حقه ألا تصوم تطوعا إلا بإذنه، فإن فعلت جاعت وعطشت ولن يقبل منها. ومن حقه ألا تخرج من بيتها إلا بإذنه، فإن فعلت لعنتها الملائكة حتى ترجع إلى بيتها أو تتوب. وينبغى أن تعرض نفسها عليه في كل ليلة. وفى حديث : (إن المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان) [2] فإن أمرها بما يصلحها مما أبيح لها فخالفته وعظها وزجرها، فإن عادت لخلافه هجرها في المضجع، فبعض العلماء يقول : يوليها ظهره، وبعضهم يقول : يعتزل فراشها من ليلة إلى ثلاث إلى سبع ليال، فإن لم ينجح فيها ذلك ولم تبال به ضربها، والعلماء يقولون : ضربا غير مبرح، وتفسيره أنه لا يكسر لها عظما ولا يدمي لها جسما. وله أن يغضب عليها في الأمر من أمور الدين من عشرة أيام إلى شهر، فقد غضب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ في كلام كلمه بعض أزواجه، فأرسل بهدية إلى بيت زينب فردتها عليه، فقالت له التي هو في بيتها : لقد أقمتك إذ ردت عليك هديتك، فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (أنتن أهون على الله أن تقمئنني) ثم غضب عليهن كلهن شهرا. ومعنى أقمتك : استصغرتك وأذلتك.

ولا ينبغي أن يقتر على أهله بالإنفاق، فقد روي عنه ﴿ ﷺ وآله﴾ : (خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي) [3].

رفق الزوج بزوجته :

إن كان من أهل زلة أو هفوة احتمل ذلك، ورفق بها ولم يعسفها، ففى الحديث : (خلقت المرأة من ضلع أعوج إن قومته كسرته، وإن تركتها استمتعت بها على عوج) [1] وفى لفظ حسن : (وكسرها طلاقها).

---

(1) أخرجه الترمذى وابن حبان عن أبي هريرة، وكذلك أبو داود عن قيس بن سعد، وابن ماجة عن عائشة، وابن حبان عن ابن أبي أو في .

(2) رواه الترمذى وقال حسن صحيح، ورواه ابن حبان عن ابن مسعود .

(3) أخرجه الترمذي عن عائشة وصححه, وله رواية أخرى أوردها الترمذي عن أبي هريرة " خيركم خيركم لنسائه، وأنا خيركم لنسائى "

وقد كان أزواج النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ يراجعنه القول، وتهجره إحداهن يوما إلى الليل، ودفعت إحداهن في صدره فزجرتها أمها، فقال : (دعيها فإنهن يصنعن أكثر من هذا) وجرى بينه عليه الصلاة والسلام وبين عائشة ﵂ كلام، حتى أدخل أبا بكر ﵁ بينهما حكما واستشهده، فقال لها رسول الله, ﴿ ﷺ وآله﴾: (تكلمين أو أتكلم ؟ قالت : بل تكلم أنت ولكن لا تقل إلا حقا) فلطمها أبو بكر ﵁ حتى دمى فوها وقال : (أى عدوة نفسها، أو يقول غير الحق ؟ بل أنت وأبوك تقولان الباطل ولا يقول رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلا حقا) نصرة لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وغضبا له، حتى استجارت بالنبي ﴿ ﷺ وآله﴾ وقعدت خلف ظهره، فقال له النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ : (لم ندعك لهذا، ولم نرد هذا منك) [2]

وقالت له مرة في كلام : أنت الذي تزعم أنك نبى،فتبسم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ حلما وكرما [3]، وكان عليه الصلاة والسلام يقول لعائشة ﵂ : (أني لأعرف غضبك من رضاك، قالت : وكيف تعرف ذلك ؟ قال : إن رضيت قلت لا وإله مُحَّد، وإذا غضبت قلت لا وإله إبراهيم، قالت : صدقت، إنما أهجر اسمك). وقد كان ﴿ ﷺ وآله﴾ يمزح مع أزواجه، ويقاربهن في عقولهن في المعاملة والأخلاق، وفى الخبر : (كان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من أفكه الناس مع نسائه). وقال لقمان الحكيم : العاقل في بيته ومع أهله كالصبي، فإذا كان في القوم وجد رجلا، وفى تفسير الخبر المروي : (إن الله يبغض الجعظري الجواظ) [4] قيل : هو الشديد على أهله، المتكبر في نفسه.

الغيـرة :

روينا في الخبر: (غيرة يبغضها الله عز وجل، غيرة الرجل على أهله في غير دينه)، كأنه يكون من سوء الظن الذي نهى الله ورسوله عنه، وروينا عن على عليه السلام : (لا تكثر الغيرة على أهلك فترمى بالسوء من أجلك) ولعمري، إن الغيرة لها حد فإذا جاوزها الرجل قصر عن الواجب وزاد على الحق. وقد كان الحسن يقول : (أتدعون نساءكم يزاحمن العلوج في الأسواق ؟ قبح الله من لا يغار).

([1]) متفق عليه من حديث أبي هريرة، ولفظ البخاري :" فإنهن خلقن من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه ..... " ولفظ مسلم : " إن المرأة خلقت من ضلع لن تستقيم لك " .

([2]) أخرجه الطبراني في الأوسط والخطيب في التاريخ عن عائشة ﵂، وأورده الغزالي في الإحياء ج2 ص 43

([3]) أخرجه أبو يعلي في مسنده وأبو الشيخ في الأمثال عن عائشة .

([4]) رواه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق عن أبي هريرة .

وقد قال ابن عمر رضي الله عنهما، عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (لا تمنعن إماء الله مساجد الله) [1] فقال بعض ولده بلى والله نمنعهن، فضربه وغضب عليه وقال : تسمعني أقول : قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لا تمنعوهن وتقول بلى نمنعهن ؟ وقد قال الله تعالى : (قد جعل الله لكل شيء قدرا) [2]. وقال بعض الحكماء من جاوز الشيء فمذموم كمن قصر عنه.

فلا بأس بالحرة العفيفة أن تخرج لشيء لا بد لها منه من قضاء حوائجها، قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (أذن لكن أن تخرجن في حوائجكن) وكذلك تخرجن في الأعياد خاصة، أطلق ذلك لهن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ [3]، ولكن لا يخرجن إلا بإذن أزواجهن وعن رضاهم، ولا يخرجن أيضا إلا فيما يعني مما لا بد منه، وألا يراهن رجل فهو أفضل لهن وأصلح لقلوبهن، وروينا أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قال لابنته السيدة فاطمة عليها السلام : (ياابنتي أي شيء خير للمرأة ؟ فقالت : ألا ترى رجلا ولا يراها رجل، فضمها إليه وقال : ذرية بعضها من بعض) [4] وكان أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يسدون الثقب والكواء في الحيطان لئلا يطلع النسوان.

احتمال الهفوات والصبر على الأذى :

وهو مأجور على احتماله هفوات أهله وصبره على أذاهن، ومثاب على حسن عشرتهن. وقال مُحَمَّد بن الحنفية [5] ﷺ : ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بدا حتى يجعل الله له منه فرجا ومخرجا. فإن كانت بذيئة اللسان، قليلة القبول، عظيمة الجهل، كثيرة الأذى فطلاقها أسلم لدينهما، وأروح لقلوبهما في عاجل دنياه وآجل آخرته، وقد شكا رجل إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بذاء امرأته فقال له : (طلقها، فقال : أني أحبها، قال : أمسكها إذن) فخشى عليه تشتت همه بفراقها مع المحبة، وتشتت الهم أعظم من أذى الجسم. وفي معنى قوله عز وجل :

([1]) متفق عليه عن ابن عمر .

([2]) سورة الطلاق آية 3 .

([3]) ورد حديث الإذن بالخروج للنساء عن أم عطية، وهو متفق عليه .

([4]) رواه البزار والدار قطني في الأفراد عن على .

([5]) هو مُحَمَّد بن على بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية، واسم أمه : خوله من سبي بنى حنفية، ولد في خلافة عمر بن الخطاب، وهو من كبار التابعين، توفى حوالى 73 هـ .

﴿ لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ [1] قال ابن مسعود : إذا بذت على أهلها وآذت زوجها فهو فاحشة، وهذا يعني به العدة لأن الله تعالى يقول : ﴿ أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ﴾ [2] فهو متصل بقوله : ﴿ وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ﴾[3] أى : في العدة.

الطلاق مباح إلا أنه مكروه بغير سبب :

من الناس من يظن أن الطلاق محظور يتأول هذه الآية على غير تأويلها، فالطلاق مباح إلا انه مكروه بغير سبب لتفرقة الألفة، وقد روى في خبر : (ما أحل الله شيئا أبغض إليه من الطلاق) [4]. ولا بأس أن تفتدى المرأة من زوجها إذا خافت ألا تقيم حدود الله فيه، ولا تقوم بواجب حقوقه عليها، وأكره أن يأخذ الفدية أكثر مما أعطاها، وقد قال الله تعالى : ﴿ فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾[5] وهذا هو الخلع [6] الجائز عند أكثر العلماء. ولا يحل لامرأة أن تسأل زوجها طلاقها ولا أن تخلع منه بغير رضاه، قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (أيما امرأة سالت زوجها طلاقها من غير باس لم ترح رائحة الجنة) [7] وقال : (المختلعات هن المنافقات) [8].

([1]) سورة الطلاق آية 1 .

([2]) سورة الطلاق آية 6 .

([3]) سورة الطلاق آية 1

([4]) أخرجه الحاكم عن ابن عمر، وقال حديث صحيح الإسناد .

([5]) سورة البقرة آية 229 .

([6]) الخلع هو أن تفتدى المرأة نفسها بمال ليخلعها به زوجها، فإذا فعلا لزمها المال ووقعت تطليقة بائنة، ويكره أن يأخذ منها شيئا إن كان هو الناشز .

([7]) رواه أبو داود والترمذى وقال حسن، ورواه ابن ماجة وابن حبان عن ثوبان .

([8]) رواه النسائي عن أبي هريرة .

النشـوز :

النشوز قد يكون من الزوجين معا، إلا أنه أبيح للزوج ضربها في النشوز، وأبيح لها الصلح في نشوز الزوج، قال الله عز وجل : (والصلح خير) [1] وأصل النشوز أن يعلوا أحدهما على صاحبه ويرتفع عنه، كأن يجفو عليه ويجتنبه فيكون في نحو غير نحوه، فيكون من هذا الكلام الفاحش، ويكون منه الأذى، ويكون منه الهجر والانفراد. ويحكم الحكمان في هذا أحدهما من أهله والآخر من أهلها، يعدلون وينظرون فيما بينهما. وقد وعد الله عز وجل الغنى مع الفرقة كما وعده سبحانه مع النكاح فقال : (وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته) [2] كما قال تعالى : (وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) [3] فقد يكون الغنى بالمال، ويكون بأن يستغني كل واحد منهما عن صاحبه بما خصه الله من خفي لطفه، وجاء في خبر : (ثلاث لا يستجاب دعاؤهم : رجل له امرأة سوء يقول : أراحني الله منك، وقد جعل سبحانه الطلاق بيده إن شاء طلق، والآخر في المملوك السوء، وجار السوء).

حسن العشرة :

ليحسن الرجل عشرة أهله والقيام بهن، فقد قال تعالى : (فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا) [4] أي : لا تطلبوا طريقا إلى الفرقة ولا إلى خصومة أو مكروه، وهذه حينئذ على صورة الأنفس المطمئنة إذا استجابت للإيمان وطوعت لك إلى أخلاق المؤمنين، فتولها من الإرفاق وأرفق بها مثالها من المباح. وقد شبه الله عز وجل حسن القيام على الزوجة بحسن القيام على الوالدين فقال فيهما : (وصاحبهما في الدنيا معروفا) [5] وقال سبحانه في أمر النساء : (وعاشروهن بالمعروف) [6] ثم أجمل سبحانه في النساء ما فرقه من حق الزوج في كلمة واحدة فقال : (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف)

---

(1) سورة النساء آية 128 .

(2) سورة النساء آية 130 .

(3) سورة النور آية 32 .

(4) سورة النساء آية 34 .

(5) سورة لقمان آية 15 .

(6) سورة النساء آية 19 .

[1] وقال في عظيم حقهن : (وأخذن منكم ميثاقا غليظا) [2] وقال عز وجل : (والصاحب بالجنب) [3] قيل : هي المرأة.

وآخر ما أوصى به رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ثلاث كان يتكلم بهن حتى تلجلج لسانه وخفى كلامه، جعل يقول : (الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم مالا يطيقون، والله الله في النساء فإنهن عوان في أيديكم – يعني أسرى – أخذتموهن بعهد الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله) [4] وسئل ﴿ ﷺ وآله﴾ : ماحق المرأة على الرجل ؟ قال : (يطعمها إذا طعم، ويكسوها إذا اكتسى، ولا يقبح الوجه ولا يهجر إلا في البيت)

وينبغي أيضا إذا أراد النكاح أن يتعلم ما تحتاج إليه المرأة من حسن العشرة والقيام بما لها عليه، وجميل المداراة، ولطف المفاوضة، ويعلمها حسن قيامها بما يجب له عليها، ويعرفها ما أوجب الله عليها من ذلك.

الزوج سيد زوجته :

لا تملك المرأة شيئا من أمرك،فإن الله عز وجل قد ملكك إياها، فلا تقلب بهواك حكمة الله فينقلب الأمر عليك، فكأنك قد أطعت العدو ووافقته في قوله : (ولآمرنهم فليغيرن خلق الله) [5] وقال تعالى : (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما) [6] يعني النساء والصبيان، ومنه قوله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (تعس عبد الزوجة) لأنه إذا أطاعها فيما تهوى دخل تحت التعس، فكأنه قد بدل نعمة الله كفرا، لأن الله عز وجل جعله سيدها في قوله تعالى : (وألفيا سيدها لدى الباب) [7] يعني زوجها، ولا تعودها عادة فتجترئ عليك وتطلب المعتاد منك، فهى على مثال أخلاق النفس سواء، إن أرسلت

([1]) سورة البقرة آية 228.

([2]) سورة النساء آية 21 .

([3]) سورة النساء آية 36 .

([4]) أخرجه النسائي في السنن الكبرى، وأخرجه ابن ماجه عن أم سلمة .

([5]) سورة النساء آية 119 .

([6]) سورة النساء آية 5 .

([7]) سورة يوسف آية 25 .

عنانها جمحت بك، وإن ارخيت عنانها فترا جذبتك ذراعا، وإن شددت يدك عليها وكبحتها ملكتها فلعلها أن تطوع لك.

من وصايا بعض العرب لبناتهم :

كان نساء العرب يعلمن أولادهن اختبار أزواجهن، كانت المرأة إن أنكحت ابنتها قالت : يا بنتي اختبرى زوجك وقبل أن تقدمي عليه انزعي زج رمحه، فإن سكت لذلك قطعي اللحم على ترسه، فإن أقر فاكسري العظام بسيفه، فان صبر فاجعلي الإكاف على ظهره وامتطيه ؛ فإنما هو حمار.

وأوصى أحد حكماء العرب ابنته ليلة زفافها فقال : يابنية، قد كانت والدتك أحق بتأديبك مني لو كانت باقية، وأما الآن فإني أحق بتأديبك من غيري، افهمي عني ما أقول : إنك قد خرجت من العش الذي فيه درجت، وصرت إلى فراش لا تعرفيه، وقرين لم تألفيه، كوني له أرضا يكن لك سماء، وكوني له مهادا يكن لك عمادا، كوني له أمة يكن لك عبدا، لا تلحفي به فيقلاك، ولا تتباعدي عنه فينساك، إذا دني فاقربي منه، وإن نأى فابتعدي عنه، واحفظي أنفه وسمعه وعينه لا يشم منك إلا طيبا، ولا يسمع إلا حسنا، ولا ينظر إلا جميلا، واكرهى العزل كراهية شديدة، فإنه دقيقة من الشرك الخفي، وفيه نهى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾.

حكم العزل :

كرهه جماعة من السلف الصالح، ولم يكن خيار المتقين يعزلون، وأقل ما فيه الخروج من التوكل على الله عز وجل، وقلة الرضا بحكم الله تعالى، وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول : العزل هو الموءودة الصغرى. فلقوله هذا استنباط حسن من السنة، وذلك أنه روي عن النبي ﴿ ﷺ وآله﴾ في فضائل الجماع : (إن الرجل ليجامع أهله فيكتب له من جماعة أجر ولد ذكر قاتل في سبيل الله عز وجل، فقيل له : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ فقال : أنت خلقته ؟ أنت رزقته ؟ أنت هديته ؟ إليك محياه ؟ إليك مماته ؟ قالوا : بل الله خلقه ورزقه وهداه وأحياه وأماته، قال : فأنت تراه في هذا المعنى) يقول : إذا جامعت فأمنيت في الفرج وقد قال تعالى : ﴿ أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ﴾[1] فإذا لم يخلق الله من منيك خلقا، حسب لك أنه قد خلق منه ذكرا على أتم أحواله وأكمل أوصافه، بأن يقاتل في سبيل الله فيقتل، لأنك قد جئت بالسبب الذي عليك وليس عليك خلقه ولا

([1]) سورة الواقعة آية 58 59 .

رزقه ولا هدايته، وإنما يقدر على ذلك الله عز وجل، وهو فعله مجردا، فكان لك أجر ما لو فعله الله تعالى، إذ قد أتيت بما أمكنك عمله، فلذلك قال ابن عباس : (هو الموءودة الصغرى) لأنه يوجد بالعزل عدم هذا الفضل إذ كان العبد سبب عدمه، لأنه لم يفعل ما يتأتى منه الولد، فذهب فضله وحسب عليه قتله.

العزل دقيقة من الشرك الخفي :

إنما قلنا : إن العزل دقيقة من الشرك الخفي، لأن أهل الجاهلية كان سبب قتلهم بناتهم معاني، أحدها خشية العار بهن، ومنها كراهة الإنفاق عليهن، ومنها الشح وخوف الفقر والإملاق، وكانت العرب تقول : من كان له أحد الحوبات الثلاث لم يشرف عشيرته، ولم يسد قومه، يعنون بالحوب : الأم والأخت والبنت، والحوبات :

جمع حوبة، وهي كبيرة، قال الله تعالى : في أكل أموال اليتامى : ﴿ كان حوبا كبيرا﴾[1] وعندي : ليس هذا الذي قلتم عندكم. وكان من خيار التابعين المؤمنين من يستحب له الجمع بين هؤلاء الثلاث : الأم والأخت والبنت، لما فيهن من عظيم المثوبة والفضل، ليخالف بذلك سنة الجاهلية، فقد توجد هذه المعاني أو بعضها في العزل، فلذلك سميناه شركا خفي وكرهناه.

وهو مذهب الخوارج من النساء كأن فيهن تقذر وتعمق من استعمال كثرة الماء للطهارة، ودخول الحمامات ومجاوزة الحد في الطهور، وكن أيضا يقضين الصلاة أيام الحيض، ويصمن في حيضهن، ولا يصلين في ثياب الحيض حتى يغسلنها، ولا يدخلن الخلاء إلا عراة. وكانوا يكرهون الولادة طلبا للنظافة وكراهة للتقذر، خلافا لسنة نساء العرب، ابتدعوا هذه البدع ففارقوا بها سنة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وسنن نسائه، من أنباط العراق وأهل النهر، وكان بعضهن استأذن على عائشة رضي الله عنها لما قدمت البصرة فلم تأذن لهن في الدخول عليها.

وأيضا فإن الله تعالى ندب إلى اتخاذ الولادة بقوله تعالى : ﴿ فأتوا حرثكم أني شئتم وقدموا لأنفسكم ﴾ [2] قيل : الولد، وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (تناكحوا تناسلوا فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة) [3] وقوله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (خير نسائكم الودود الولود) [1] وقوله : (سوداء ولود خير من

([1]) سورة النساء آية 2.

([2]) سورة البقرة آية 223 .

([3]) أخرجه أبو بكر بن مردويه في تفسيره عن ابن عمر بلفظ : (تناكحوا تكثروا) .

حسناء لا تلد) [2] ومن بركات المرأة أن تيسر رحمها أحوج ما يكون إلى الجماع إذا طهرت من الحيض، وفى هذا الوقت أكثر ما يعبر النساء بالحمل، وأحمد ما يكون المولود عاقبة إذا علق به بعد الطهر، فلهذه المعاني عقب الله عز وجل الأمر بالجماع والولد بعد الطهر في قوله تعالى : ﴿ فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله﴾ [3] ولأضدادها في الكراهة والذم أمر الله تعالى باعتزال النساء في المحيض. ويقال : أن كل من كان مجنونا أو مجذوبا أو مختلا أو في حالة أو معتلا مخبلا وذلك لأن غرسه كان في سبخة من الأرض فلم يزرع ولم يزك، ومن زرع من حرث طيب زكا زرعه وهو الغشيان في الطهر، فلذلك قال : (من حيث أمركم الله) وقد رخص بعضهم في العزل رخصة عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وكان سعد يعزل.

العزل هو الموءودة الصغرى :

قد أنكر علي عليه السلام على ابن عباس رضي الله عنه في قوله : إن العزل هو الموءودة الصغرى ، وقال إنها لا تكون موءودة إلا بعد سبع ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ وإذا الموؤودة سئلت﴾ [4] أنها ذكرت بعد سبع ، ثم تلا قوله عز وجل آية أطوار الخلقة : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين۞ ثم جعلناه نطفة........ ﴾ إلى قوله : ﴿ ثم أنشأناه خلقا آخر ﴾ [5] أي : في نفخ الروح فيه ، قال فلا يكون موءودة مقتولة إلا بعد هذا السبع الخصال ، ولأن الله عز وجل ذكرها في : ﴿ إذا الشمس كورت ﴾[6] بعد سبع معان ، ثم جمع بينهما في الفهم فاستنبط ذلك ، وهذا من دقيق العلم ، وغامض الفهم ، ولطيف الاستدلال الذي تفرد به عليه السلام لثقوب علمه ، ونفاذ فطنته ، وخفي استدلاله.

([1]) أخرجه البيهقي عن ابن أبي أديه الصدقى، وقال البيهقي : وروي بإسناد صحيح عن سعيد بن يسار مرسلا .

([2]) أخرجه ابن حبان في الضعفاء من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده .

([3]) سورة البقرة آية 222.

([4]) سورة التكوير آية 8 .

([5]) سورة المؤمنون آية 12 – 14 .

([6]) سورة التكوير آية 1 .

الجماع والطهارة :

فلا يجامعهن حتى يطهرن ، فإذا تطهرن يعني بالماء ويكره الجماع مستقبل القبلة لحرمة القبلة، وفي الخبر (إذا جامع أحدكم أهله فلا يتجردا تجرد العيرين) [1] يعني الحمارين ، وروينا أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ كان إذا جامع غطى رأسه وخفض صوته وقال للمرأة : (عليك بالسكينة) [2] ومن جامع مرة وأراد العود فليغسل فرجه قبل ذلك ، فإن احتلم فلا يجامع حتى يغسل فرجه أو يبول ،فإن جامع بعد احتلام من غير غسل خيف على ولده إن كان من جماعه أن يصيبه لمم من الشيطان ، ويكره الجماع في أول الليل لئلا ينام على غير طهارة ، فإن الأرواح تعرج إلى العرش فما منها طاهر أذن له في السجود ، وما كان جنبا لم يؤذن له ، والرؤيا أيضا على طهارة من غير جنابة وعلى وضوء أصح وأفضل ، إلا أن يغتسل ثم ينام ، فإن لم يغتسل وجامع فلا ينام ولا يطعم حتى يتوضأ وضوءه للصلاة [3] وقد جاء رخصة في النوم بعد الجماع من غير أن يمس ماء ، فعله رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ [4] وأنا أكره أن يحلق الرجل رأسه ، أو يقلم ظفره أو يستحد أو يتور أو يخرج دما وهو جنب ، فإن العبد يرد عليه جميع شعره وظفره ودمه يوم القيامة ، فما سقط منه من ذلك وهو جنب رجع إليه جنبا ، وقيل طالبته كل شعرة بجنابتها.

ولا يحل للرجل من امرأته إلا الفرج لا غير على أي حال شاء ، ومن جامع فليستمهل على أهله ، وليتوقف حتى تقضي هي نهمتها كما قضى هو نهمته ، فربما أخر إنزال المرأة بعد الرجل فيكون ذلك كريها إليها ، فإن علم أنها قد سبقت بالشهوة فلم يحتج إلى توقف ، وليس يخفى سبقها بالشهوة على فطن. وأوفق ما يكون الجماع بينهما إذا اتفقت الشهوتان منهما معا ، وأكثر ما يكون التباغض بين الزوجين لاختلافهم من طبع الإنزال أن، يكون طبعه سابقا لطبعها أيضا. وكان بعض الحكماء الأدباء لا يتأخر عن المرأة حتى يستأمرها في ذلك.

([1]) أخرجه ابن ماجه عن عتبة بن عبد .

([2]) رواه الخطيب عن أم سلمة .

([3]) وذلك لحديث عمر بن الخطاب ﷺ قلت للنبي ﷺ : أينام أحدنا وهو جنب ؟ قال : (نعم ، إذا توضأ) وهذا الحديث متفق عليه .

([4]) لحديث عائشة ﷺ : (كان رسول الله ﷺ – ينام جنبا لم يمس ماء) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه .

وينبغي أن يعلمها ،لأن المرأة إذا بلغت واحتلمت يجب عليها الغسل كما يجب على الرجل ، فإن في ذلك سنة ، لأن أم سليم [1] سألت عن ذلك رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فأمرها بذلك ،وقال :(نعم النساء نساء الأنصار ، لا يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين) [2] وإذا كانت المرأة حائضا اتزرت بمئزر صغير من حقويها [3] إلى أنصاف الفخذين ، وكان له المتعة بجميع جسدها كيف يشاء إلا تحت المئزر. واستحب للرجل إذا دخل في لحافها أن يتزر بحقو صغير في وسطه وهو المئزر لئلا يتجرد عريانا ، فإن هذا من الأدب ، ويضاجع الرجل الحائض كيف شاء ، وتناوله ما شاء ، ويؤاكلها ، ولا يجانبها في شيء من الأشياء إلا الجماع في الفرج.

حكم الطلاق والتحليل :

ينبغي للمتزوج أن يعرف حكم الطلاق ، فإن عرض له الطلاق طلق واحدة واحدة في طهر لا جماع فيه ، لأن التطليقة الواحدة إذا انقضت عدة المرأة منها بحيض أو أشهر تعمل عمل التحريم بالثلاث سواء ، إلا أنه يربح في التطليقة الواحدة أربع خصال : إحداها : موافقة الكتاب والسنة ، والثانية : تيسير العدة عليها ، والثالثة : سرعة خروجها منها ، فخروجها من الطلاق محتسب من الطهر الذي طلقها فيه من غير جماع ، والرابعة : هو أنه إن ندم على طلاقها كان له رجعتها في العدة ، من غير إحداث عقد ثان ولا مهر آخر ، وإن أحب رجعتها بعد انقضاء العدة كان له تزويجها ثانية من غير زواج ثان تحدثه.

وهذا كله معدوم مع الثلاث دفعة واحدة ، وموجود فيه التحريم ، وإن ندم لم يجعل الله له مخرجا ، لأنه لا تحل له إلا بعد زوج ، ويخسر العبد خروج المرأة من يده ،فإن ابتلى يهواها يحتاج لانتظار فراغ الزوج الثاني ، أو التجأ أن يعمل في تزويجها لغيره فيكون محللا لنفسه ومفسدا لنكاح الثاني بالتحليل فيقع في ثلاث معان من المعاصي و (قد لعن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ المحلل والمحلل له)

([1]) **هي** الصحابية الجليلة أم أنس بن مالك رضي الله عنهما ، وكانت أم سليم وأختها خالتين للرسول ﷺ من جهة الرضاع ، وكانت من فقيهات المسلمات .

([2]) أخرجه البخاري عن عائشة ﵂ قالت : (نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين) كتاب العلم ، باب الحياء في العلم .

([3]) الحقو : هو الخصر .

[1] وقال بعض العلماء : إن نكاح الأول بعده على التحليل لا يجوز أيضا ، وهذا كله ثمرة الجهل ومخالفة السنة وقد قال الله تعالى : ﴿ فطلقوهن لعدتهن ﴾ [2] ثم قال سبحانه : ﴿ لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ﴾ [3] يعني ندما من المطلق ، فإذا كان قد طلق تطليقة واحدة أو اثنين حلت له من العدة من غير عقد وبعد انقضائها بغير زوج ، ثم قال : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ﴾ [4] أي : يتق الله فيطلق في العدة ، يجعل له مخرجا في جواز الرجعة كما ذكرناه. ومن طلق ثلاثا مرة واحدة أو طلق في الحيض وقع الطلاق ، وحرمت المرأة ولم تحل له إلا بعد أن تتزوج غيره ، وبذلك يكون قد خالف السنة ووافق كراهة الأئمة بآثار قد كثرت في ذلك عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وعن عمر وابنه ، وأبي بن كعب ، وزيد ابن ثابت ، وابن عباس ، وجملة من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين ، وصلى الله وسلم على سيدنا مُحَمَّد وآله وصحبه وورثته والتابعين.

﴿ تم بعون الله وحسن توفيقه ﴾

(1) هذا الحديث رواه أحمد والنسائي والترمذي وصحيحه عن ابن مسعود مرفوعا

(2) سورة الطلاق آية 1.

(3) سورة الطلاق آية 1.

(4) سورة الطلاق آية 2.

فهرس الكتاب